بعض ما يمكن قوله
أوراق ليست شخصية

(الطبعة الثانية)

محمود الوردانى

لوجو
الهيئة

الهيئة العامة
لقصور الثقافة

سلسلة
الإصدارات الخاصة

تصدرها
الهيئة العامة لقصور الثقافة

رئيس مجلس الإدارة
د. أحمد مجاهد
أمين عام النشر
سعد عبد الرحمن
الإشراف العام
جمال العسكرى
الإشراف الفنى
د. خالد سرور

• بعض ما يمكن قوله
أوراق ليست شخصية
• محمود الوردانى
• الطبعة الثانية:
الهيئة العامة لقصور الثقافة
2009 م
248ص. 17 × 24 سم
• تصميم الغلاف:
الفنان/ أحمد الجنايني
• المراجعة اللغوية: عادل سميح
نهلة فيصل
• رقم الإيداع: ٢٧٦٧ / ٢٠٠٩
• الرقيم الدولي: 978-977-479-035-2
• المراسلات:
باسم / مدير التحرير
على العنوان التالى: 16 أ شارع أمين
سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى 11561
ت: 27947891 (داخلى: 180)

• الطباعة والتنفيذ:
شركة الأمل للطباعة والنشر
ت: 23904096

62

تعنى بنشر الأعمال الفكرية والثقافية والأعمال الخاصة لأبرز
الكتاب فى مصر والعالم

• هيئة التحرير •

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير
د. أحمد مجاهد
مدير التحرير
عماد مطاوع

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن توجه الهيئة
بل تعبر عن رأى وتوجه المؤلف في المقام الأول.

• حقوق النشر والطباعة محفوظة للهيئة العامة لقصور الثقافة.
• يحظر إعادة النشر أو النسخ أو الاقتباس بأية صورة إلا بإذن
كتابى من الهيئة العامة لقصور الثقافة، أو بالإشارة إلى المصدر.

بعض ما يمكن قوله
أوراق ليست شخصية

المحتوى

- قبل أن تقرأ 7
- فاتح الأندلس وعابر البحر 11
- الفتى الشريد .. صقر قريش 21
- عندما غربت شمس الأندلس 31
- ابن جبير .. ساكن زقاق القناديل 39
- هل نصدق الحسن ابن الوزان .. أم ليون الأفريقى ؟ 45
- أخرجوا جثته من القبر وأشعلوا فيها النار 53
- ثورة الموريسكيين 61
- الخروج إلى الأبد 69
- ماذا قال ابن خلدون لتيمور لنك ؟ 77
- الأمير أسامة ابن منقذ.. محارب فى التسعين 85
- الحاج عبد الله فيلبى يرسم صورة على هواه 93
- ماذا فعل الأب إلياس في أمريكا ؟ 101
- الكونت روسيتى يفاوض آخر المماليك 109
- القبطان سليم باشا صاحب أول ضوء 117

– كيف بنى محمد على جيش مصر..... 125
– تغريبة الشيخ طنطاوى فى روسيا 135
– حكاية الطبيب السورى سليمان العيص وتابعه بركات 143
– الشيخ حسين المرصفى يتحدث فى نص مجهول 151
– چون نينيه.. فلاح مصرى فى سويسرا 159
– حفنى ناصف عازفًا ومغنيًا ورياضيًا يجيد الغطس 167
– ضابط المخابرات البريطانى الذى رسم الخريطة العربية 175
– مشروع واينبرخم / على بهجت 185
– عائشة التيمورية.. ماذا يتبقى منها ؟ 193
– بطاقة هوية لامرأة مختلفة 199
– الذى أكل وزة على طبلية أم كلثوم! 209
– صورة جانبية لامرأة تقف خلف قضبان الزنزانة رقم ٧ 217
– لطيفة الزيات .. صاحبة الوطن 227
– لماذا انتحرت أروى صالح؟! 237

قبـــل أن تقـــرأ

كتبت هذه الأوراق على مدى سنوات طويلة ربما تجاوزت خمسة عشر عامًا. وهى بطبيعة الحال ليست كل الأوراق التى كتبتها، بل اخترت من بينها ما يمكن أن يشكل سياقًا ما. والواقع أننى ترددت طويلاً قبل أن أستقر على نشر الأوراق – المنشورة أصلاً فى عدد كبير من الدوريات العربية – فى كتاب، كما ترددت أيضًا فى اختيار هذه الأوراق دون غيرها.

وكما سوف يرى القارئ، فإن هذه الأوراق تشكل بانوراما واسعة للغاية، من الأندلس إلى جزيرة العرب إلى أعالى النيل إلى سويسرا وروسيا وإلى الجنوب اللابنانى، وتتوزع على مدى زمنى يمتد إلى قرابة أربعة عشر قرنًا، ويشمل نساءً ورجالاً مصريين وعربًا وأوربيين وأكرادًا، مناضلين ومغنين ومفكرين وفقهاء وجواسيس وضباط استخبارات ومحاربين..

أظن أن نشر كل هذه الأوراق معًا فى كتاب واحد يمكن أن يكشف عن سياق ما، وعن وحدة تربط بينها، على الرغم من البانوراما الواسعة سواء فى الزمان أو المكان أو اختلاف الشخصيات الواردة.

وإذا كانت بعض الشخصيات التى تناولتها عبر ثمانية وعشرين «بورتريه» معروفة وكتب عنها الكثيرون، فإن بعضها الآخر غطاه غبار الزمن وتصاريف القدر. وفى الحالتين لم يكن مهمًا بالنسبة لى أن أكتب دراسات ومقالات رصينة، بقدر ما كان مهمًا أن أورد التفاصيل ذات الطابع السردى الروائى، وهى التفاصيل التى تغيب عادة أو لا يُنتبه لها.

ربما لهذا السبب بالتحديد تنوعت البورتريهات وامتدت عبر الزمان والمكان، وضمت تيارات أكثر تنوعًا من أسلافنا فى الأندلس ومحاربى الصليبيين وعملاء الاستخبارات الدولية ومناضلين ومناضلات كانوا فى الطليعة دائمًا. لقد حاولت – كما أسلفت من قبل – أن أقدم صورة بانورامية عريضة لأجيال امتدت من فاتح الأندلس إلى أروى صالح، وبينهما الحسن ابن الوزان وابن خلدون والشيخ طنطاوى وجون نينيه وحفنى ناصف وعائشة التيمورية ودرية شفيق ولطيفة الزيات وغيرهم وغيرهن.

لقد شغلنى فى الأساس غنى وثراء تلك الشخصيات بوصفها شخصيات روائية فى حقيقة الأمر، لذلك فهى معقدة بقدر تعقيدات عصرها، وبقدر ما واجهته من محن، وما حاولت الإجابة عنه من أسئلة كبرى هى أسئلة وجودهم ذاته واختياراتهم التى دفعوا ثمنها غاليًا.

على أى حال، تحققت لى أثناء قراءتى فى مصادر هذا الكتاب متعة الاكتشاف البهية وبهجته، وأتمنى أن يشاركنى القارئ الكريم فيما تحقق لى.

محمود الوردانى

الشيخ زايد فى ٢٠٠٨م

فاتح الأندلس وعابر البحر

تصلح حياة الفاتح العربى موسى ابن نصير أن تكون عملاً تراجيديًا ضخمًا، سواء أكان فيلمًا سينمائيًا أو تليفزيونيًا، أم مسرحية، فقد بلغ الذرى فاتحًا وقائدًا عسكريًا ورجل دولة ووالـيًا وقريبًا من سُدة الحكم بل أحد القلائل من المرتبطين ببيت الخلافة، وانتهى متسولاً يستجدى الناس فى الطرقات!

ذلك هو موسى ابن نصير (١٩ – ٩٧ هـ / ٦٤٠ – ٧١٥م) فاتح الأندلس وعابر البحر الذى وصلت فتوحه إلى أرض فرنسا، وربما يكفيه وصف مؤرخ الأندلس الكبير محمد عبد الله عنان بأنه «من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين فى القرن الأول للهجرة، وقد ظهرت براعته الإدارية فى جميع المناصب التى تقلدها، كما ظهرت براعته الحربية فى جميع الحملات البرية والبحرية التى قادها»، ويضيف أنه أبدى خبرة فائقة بنفسية الشعوب وبراعة وسياسة فى قيادتها وفوق هذا كان غزير العلم والأدب، متمكنًا من الحديث والفقه، عالمًا بالفلك، مجيداً للنثر والنظم.

أما أصوله فتختلف الروايات بشأنها، والمؤكد أنه جاء إلى الدنيا عام ١٩ هـ فى عهد الخليفة عمر ابن الخطاب وفى قرية من قرى الجزيرة. والغالب أنه بدأ من أول السلم – كما

يقال – جندياً فى جيش الخلافة فى ذروة فتوحاتها المترامية فى شرق العالم وغربه، ثم تقلب فى عدد من المناصب العسكرية والإدارية لشجاعته وحسن سياسته، وفى أيام معاوية ابن أبى سفيان قاد بعض الحملات البحرية وغزا قبرص.

قدم موسى ابن نصير إلى مصر لدى صديقه عبد العزيز ابن مروان الذى كان والياً على البلاد، ثم استدعاه الخليفة ليعمل وزيراً ومستشاراً لأمير البصرة حتى تولى الحجاج حكم العراق فاتهم موسى باختلاس أموال البصرة، ولم ينقذه من بطش الحجاج المعروف إلا تدخل حاميه وصديقه عبد العزيز ابن مروان بعد أن استجار به.

لعل هذه الواقعة هى الأولى فى سلسلة الوقائع التى تكشف عن أن اقتراب موسى من السلطة كثيراً ما قاده إلى حافة الهلاك، وعندما نهض من هذه الكبوة وبمساعدة عبد العزيز ابن مروان عاد إلى الخدمة، بل وسرعان ما تولى حكم أفريقيا عام ٨٩ هـ أثناء خلافة الوليد ابن عبد الملك. كانت ولاية أفريقيا فى ذلك الوقت تضم كل ما هو غرب مصر وحتى المغرب الحالية. وكانت مهمته صعبة بسبب ثورات البربر المتتالية وانتفاضاتهم بسبب ظلم الولاة الذين حكموهم، فعالج ابن نصير الأمور بحكمة، حيث كان صارمًا حاسمًا؛ سحق الثورة فى كل ناحية، وفى الوقت نفسه حكم بالعدل ورفع الظلم عن الناس، وانتهى به الأمر إلى أن حاصر ثورة القبائل البربرية فى طنجة ثم فتحها حيث كانت آخر معقل اعتصم به الثوار، وولى طارق ابن زياد القائد الشهير الذى قاد جيوش المسلمين فيما بعد وعبر البحر للأندلس.

ومما يدل على ذكائه وحسن إدارته للولاية المترامية الأطراف أنه لم يكتف بالسيف، بل عمل على استمالة القبائل بنشر الإسلام بينهم واستمال وجوههم وضم الآلاف منهم إلى جيشه ثم استدار ليواجه اعتداءات الرومان على الثغور وغزوها ونهبها بين الحين والآخر، وبنى داراً للصناعة لينشئ أسطولاً يواجه به قوة الرومان البحرية، واستفاد بطبيعة الحال من خبرته السابقة فى جيش المسلمين الذى غزا قبرص وغيرها من الجزر العربية.

وما إن استقرت الأمور حتى امتد ببصره عبر البحر المتوسط، فمن طنجة يستطيع بالعين المجردة أن يلمح أرض الأندلس الخضراء الخصبة.

ولأن موسى ابن نصير كان سياسيًا ذكيًا، استغل التناقضات الكامنة فى صفوف مملكة القوط التى كانت تحكم إسبانيا فى ذلك الوقت، وعقد تحالفًا مع أحد الأمراء وهو الكونت يوليان الذى كان قد تعرض لأبشع أنواع الظلم على يد ملك القوط رودريك الذى اغتصب االبنة يوليان بعد أن كان الأخير قد أرسلها إلى البلاط فى طليطلة على عادة العصر لتتلقى ما يليق بها – بوصفها االبنة كونت – من التربية والعلوم، فاغتصبها الملك.

تفاوض موسى ابن نصير سرًا مع الكونت يوليان بشأن فتح إسبانيا. والأرجح أن الاتفاق الذى توصل إليه الطرفان هو مساعدة جيش المسلمين للكونت لإسقاط ملك القوط ليتولى يوليان مكانه، ويقنع المسلمون بغنائم النصر ومجد الفتح المعنوى. كانت الخطوة التالية هى الكتابة للخليفة الوليد ابن عبد الملك يخبره بأمر المشروع ويستأذنه فى الفتح، إلا أن الخليفة كان خائفًا من أن يزج بجيش المسلمين فى أهوال البحر، وطالبه بأن يختبر الموقف أولاً من خلال عدد محدود من الجنود وينتظر النتيجة.

لذلك جهز ابن نصير حملة صغيرة من خمسمائة جندى بينهم مائة فارس يقودهم ضابط من البربر اسمه طريف ابن مالك، عبروا البحر فى أربع سفن قدمها الكونت يوليان، ونزلوا أولاً فى جزيرة بالقرب من الشاطئ الإسبانى فى يوليو عام ٧١٠م، وتجولت الحملة فى الجزيرة بمعاونة يوليان واستقبلت بالترحيب وأصابت كثيرًا من الغنائم ثم عادت سالمة.

استغرق إقناع الخليفة بنجاح الفتح المقبل قرابة عام، جهز فى خلاله ابن نصير جيشًا من العرب والبربر قوامه سبعة آلاف مقاتل بقيادة طارق ابن زياد حاكم طنجة، والذى كان موسى ابن نصير قد عينه من قبل لهذا المنصب تقديرًا لشجاعته وبراعته كقائد عسكرى. وقدم الكونت يوليان للمرة الثانية سفنه لنقل الحملة الثانية التى وصلت البر المقابل يوم الإثنين الخامس من رجب عام ٩٢ هـ (٢٧ أبريل ٧١١م) وساعد يوليان جيش طارق وأرشده لاحتلال قلاع ولاية الجزيرة أولاً، ثم توجه إلى طليطلة حيث دارت أولى المعارك التى انتهت بانتصار طارق، وكان العامل الأول لانتصار المسلمين هو الخلافات الطاحنة التى كانت تعصف بالقوط ملكًا وأمراء وشعبًا.

بصعوبة شديدة استطاع الملك رودريك (والذى سماه العرب لذريق) أن يجمع جيشًا

ضخمًا- قدرته بعض المصادر بمائة ألف- لمقاومة الفتح، وسارع طارق إلى الاستنجاد بموسى الذى أرسل له خمسة آلاف مقاتل، فبلغ عدد جنود المسلمين نحو اثنى عشر ألفًا انضم إليهم الكونت يوليان فى قوة من أتباعه. وعلى الرغم من ضخامة جيش القوط فإنه كان مفكك العرى اخترقت الخيانة صفوفه وقادته، وفى الثالث والعشرين من يوليو عام ٧١١م بدأ القتال بين الجيشين واستمر أربعة أيام، وقاتل المسلمون بشجاعة وبأس فى أرض غريبة وطبيعة مختلفة، لكنهم انتصروا فى نهاية الأمر، بل وغرق رودريك فى النهر الذى دارت على ضفافه هذه المعركة. لم يضيع طارق وقتًا وطرق الحديد وهو ساخن فزحف شمالاً نحو عاصمة القوط طليطلة، وعندما وصلت أنباء النصر إلى المسلمين عبر البحر، سارع المئات من المجاهدين من العرب والبربر للحاق بطارق الذى أرسل حملات متفرقة إلى قرطبة وغرناطة والبيرة ومالقة ومرسية، وفتحت كلها تباعًا. أما طارق ابن زياد، فبعد أن فتح طليطلة، تابع زحفه إلى الشمال مخترقًا قشتالة، وعلى مدى عام كامل واصل فتوحاته حتى وصل إلى شواطئ بسكونيه حيث تلقى أوامر موسى ابن نصير بوقف الفتح.

هنا يشير المؤرخون إلى أن السبب الرئيسى الذى دفع موسى لإصدار أوامره لطارق بوقف الفتح، هو مخالفة أوامره السابقة بألا يتجاوز قرطبة ويغامر بجيش المسلمين فى أرض غريبة، فضلاً عن الغيرة والحسد من هذه الانتصارات التى يمكن أن تنسب لطارق وحده. وهكذا عبر البحر فى سفن أعدها خصيصًا وبصحبة جيش بلغ ثمانية عشر ألف مقاتل، يحفزه أمل أن يرتبط اسمه بفتح كل هذه المدن والبلدان فى الطرف الآخر على الرغم من شيخوخته؛ فقد كان قد تجاوز فى ذلك الوقت ستة وسبعين عامًا.

نزل موسى ابن نصير فى قاعدة المسلمين الأولى فى ولاية الجزيرة حيث استقبله الكونت يوليان. وقاد موسى جيشه على الفور لفتح عدد من المدن والحواضر المنيعة حتى وصل إلى إشبيلية فحاصرها شهرًا كاملاً حتى تمكن من فتحها ثم حاصر مدينة منيعة أخرى هى ماردة حتى سلمت له. وفى الطريق إلى طليطلة التقى بطارق ابن زياد. وهنا يذكر المؤرخون أنه أهان طارق إهانة شديدة بل وزجَّ به فى السجن بتهمة الخروج

والعصيان، إلا أن طارق ترضاه فيما بعد حتى عفا عنه، فطارق – على أى حال– كان قد أثبت شجاعة وبأسًا عظيمين سواء فى طنجة أو فى الأندلس.

أعد الاثنان – موسى وطارق – خطة مشتركة لفتح ما بقى من مقاطعات إسبانيا ومدنها. زحف الأول شمالاً فاخترق جبال البرنيه ثم ولاية لا نجدوك وغزا وادى الدون حتى مدينة ليون بفرنسا الحالية وكانت فى ذلك الوقت تابعة لمملكة الفرنجة، بينما سار طارق غربًا ليقضى على فلول القوط.

كانت أوروبا وقتذاك لا تعدو أن تكون مجموعة من القبائل المتفرقة المتطاحنة، بينما المسلمون هم القوة البازغة والإمبراطورية المترامية الأطراف فى النصف الجنوبى من العالم. وفكر السياسى النابغة موسى بن نصير فى مشروع جريء:

لماذا لا يغزو بجيشه المنتصر كل أرض أوروبا حتى يصل إلى الشام عبر القسطنطينية؟ ويفتح فى طريقه المدن والحواضر؟ أو حسبما عبر ابن خلدون:

«وجمع أن يأتى المشرق على القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام ودروب الأندلس، ويخوض ما بينهما من بلاد الأعاجم وأمم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحماً لهم إلى أن يلحق بدار الخلافة».

وحسب معطيات الواقع آنذاك وموازين القوى واجتياح جيش المسلمين ما يقرب من نصف الطريق فإن مشروع موسى ابن نصير كان ممكنًا تنفيذه بقليل من الجرأة وإعمال الخيال، وهو ما لم يكن ينقص السياسى الحصيف ابن نصير، إلا أن الخليفة الوليد ابن عبد الملك تردد، ثم حزم أمره وأرسل إلى موسى بأن يوقف الفتح فى البقعة التى وصل إليها وألا يزج بجيوش المسلمين فى بقاع مجهولة أكثر من ذلك. خضع موسى لأوامر الخليفة غير أنه راح يؤمن الحدود التى وصل إليها ويطارد الفلول الأخيرة.

ثم فوجئ برسالة من مقر الخلافة فى دمشق تستدعيه وطارق ابن زياد، بينما كان يتأهب للقضاء على تلك الفلول التى تجمعت فيما بعد وأسست مملكة نصرانية قامت فى الشمال واستمرت قرونًا تحارب المسلمين فى إسبانيا حتى قضت عليها كما هو معروف.

لكن موسى اضطر لتسوية الأمور على عجل فنظم حكومة الأندلس وجعل عاصمتها

إشبيلية لاتصالها بالبحر، وعين ابنه عبد العزيز والياً عليها، كما عيَّن على المغرب الأقصى ابنهالثانى عبد الملك، أما ابن الثالث عبد الله فعينه والياً على أفريقيا. أغلب الظن أن الخليفة الوليد شدد فى رسالته الأخيرة على عودته وطارق بسبب ما بلغه من استفحال الخلاف بين موسى وطارق مما قد يؤدى إلى الفرقة فى جيش المسلمين، فضلاً عن وفرة الغنائم والأموال والتحف والنفائس التى كان الخليفة ينتظرها بشوق ولهفة خائفًا عليها من التبديد.

يختلف المؤرخون اختلافًا شديداً حول ما جرى بعد ذلك، لكن أقرب الروايات للحقيقة هى أن موسى وصل قبل وفاة الوليد ابن عبد الملك بفترة يسيرة وقدم إليه الغنائم التى حصل عليها فأكرمه الخليفة وأحسن وفادته. وتشير رواية أخرى إلى أن الخليفة كان مريضًا مرضًا شديداً قبل وصول موسى، فأرسل أخوه سليمان ولى العهد لموسى يستمهله فى العودة حتى يصل بعد وفاة الوليد وجلوسه على عرش الخلافة فيحصل على الغنائم والأموال الطائلة، لكن موسى فعل العكس متصوراً أن هذا فى مصلحته، وسلم كل شيء للوليد الذى مات بعد قليل مستخلفًا أخاه سليمان، فانتقم الأخير شر انتقام من موسى ابن نصير، ولعب طارق ابن زياد دوراً لا يستهان به فى إلصاق تهم سرقة الغنائم والنفائس والفساد مما زاد من جرعة انتقام الخليفة الجديد.

كتب المؤرخ الكبير الراحل والمتخصص فى تاريخ الأندلس عبد الله عنان يصف ما جرى قائلاً:

«وفى الحال أمر بعزله واتهمه وبنيه باختلاس أموال عظيمة وقضى عليه بردها، وبالغ فى إهانته وتعذيبه، ثم ألقى به فى السجن. واستجار موسى بصديقه يزيد ابن المهلب من نقمة سليمان، وكان من أخصائه وذوى النفوذ لديه، فألح يزيد على سليمان حتى عفا عنه وأعفاه من الغرامة الفادحة التى قضى بها عليه، ويقال بل عفا عن حياته ولم يعفه من الغرامة، وإن موسى استطاع أن يفتدى نفسه ببعض ما فرض عليه».

ويضيف عبد الله عنان: «وتبالغ بعض الروايات فتقول إن سليمان أصر على معاقبة موسى وتغريمه حتى كان يطوف أحياء العرب مع حراسه ليسأل بعض المال ليفتدى نفسه،

وإنه لبث على تلك الحال حتى توفى فى منتهى البؤس والذلة بوادى القرى فى شمال الحجاز، وذلك فى سنة سبع وتسعين».

وهكذا عاش فاتح الأندلس وصاحب المشروع الإستراتيجى الضخم أغلب سنوات عمره فى خدمة الإمبراطورية وفتوحاتها يجاهد فى الشطر الغربى من الإمبراطورية، حتى عبر البحر، وانتهى متسولاً يطوف أحياء العرب مع حراسه ليحصل على مال يفتدى به نفسه ولم ينقذه إلا الموت!!

الفتى الشريد صقر قريش

كان عليه أن يقطع آلاف الكيلو مترات هاربًا متخفيًا من دمشق حاضرة الخلافة ومقر الملك، ويعبر الفيافى والصحراء والجبال ثم البحر فى قوس واسع، حتى يصل إلى قارة أخرى، وهناك فقط يمكن له أن يسترد أنفاسه!

وما إن استرد أنفاسه حتى بدأ فى تشييد حاضرة جديدة ليستعيد مجد أسرته التى سبق لها أن حكمت ما يقرب من ربع هذا الكوكب!

إنه صقر قريش عبد الرحمن الداخل حاكم الأندلس..

تكاد حكاية عبد الرحمن الداخل تدخل فى باب الخرافات التى لا يمكن تصديقها، بل هو أسطورة تمشى على قدمين، مضت حياته كالشهاب.. مثل ومضة متألقة لكنها قصيرة جدًا لم تتجاوز ستًا وخمسين عامًا فقط هى كل حياته!

هو عبد الرحمن ابن معاوية ابن هشام الأموى الذى انهار ملك أسرته فجأة، وتحطمت الدولة التى شيدها معاوية ابن أبى سفيان تحت ضربات العباسيين الذين كانوا يكمنون مستعدين للانقضاض فى اللحظة المناسبة، لأنهم يعتبرون أنفسهم الأحق بالخلافة طوال حكم الأمويين.

وبمجرد نجاح العباسيين فى الفوز بالخلافة وهزيمة الأمويين، هرب عبد الرحمن ابن معاوية ابن أبى سفيان الذى كان وليًا للعهد. وبمفرده على جواده انطلق من دمشق وخلفه مطاردوه، واخترق فلسطين ثم مصر حتى وصل إلى برقة بليبيا الحالية، حيث شعر بالراحة للمرة الأولى فى رحلته الشاقة. ففى برقة أخواله بنو نفزة من برابرة طرابلس، التى تنحدر منها أمه «راح».

وعندما استقر وصل إليه مولياه بدر وسالم بعد أن أرسلتهما إليه أخته «أم الأصبغ» بما تيسر لها من المال والجواهر. والأمر الطبيعى بالنسبة لحالته كمطارد تطلب رأسه أعلى سلطة فى البلاد أن يقنع بهروبه من الموت ويقضى بقية عمره متخفيًا خائفًا من وصول جنود العباسيين إليه والفوز به. لكن عبد الرحمن كان من معدن مختلف من الرجال، فقد سعى إلى القبض عليه أولاً والى أفريقيا عبد الرحمن ابن حبيب ليكتسب حظوة لدى العباسيين السادة الجدد، واستطاع الداخل مع نفر قليل من أصحابه أن يهرب من عسكر ابن حبيب بعد أن كادوا يمسكون به، وأقام متخفيًا لدى أحد شيوخ البربر فى المغرب الأقصى، ثم غادرهم إلى إحدى قبائل زناتة الذين قبلوا استضافته وإيواءه.

مرة أخرى كان من الطبيعى أن يقنع الداخل بما وصل إليه، فرأسه مطلوب وجند العباسيين وولاتهم يسعون خلفه، غير أنه – كما سبقت الإشارة – من معدن مختلف من الرجال، وأثناء تجواله فى «زناتة» القريبة من الأندلس عبر البحر، نبتت الفكرة فجأة فى خاطره، وراح يفكر مليًا فى هذا الحل الذى كان يبدو مجنونًا تمامًا للوهلة الأولى: أن يهرب إلى أبعد مكان عن بصاصى العباسيين وعسكرهم فى الأندلس. والجنون ليس فى هذا الهروب فى حد ذاته، بل فى أنه لم يَكْتَفِ بمجرد الهروب وإنما أراد تأسيس ملك جديد له ولأسرته هناك.

فى ذلك الوقت – أى عام ١٣٨ هـ – ٧٥٥م – كانت الأندلس التى حكمها العرب وأسسوا دولتهم فيها منذ عام ٧١١، تمرّ بفترة من الحروب الأهلية بسبب النزاع الحضارى بين القبائل المصرية واليمنية، وانتهت بتولية واحد من المصريين هو يوسف

ابن عبد الرحمن المصرى كأمير مؤقت حتى يأتى الأمير الذى يعينه الخليفة، إلا أن الخلافة الأموية لقيت مصرعها وتولى العباسيون الذين أبقوا الأمر على حاله.

أما عبد الرحمن الأموى فكان فى تلك الأثناء يقلب الفكرة الجنونية وهو على الجانب الآخر من البحر ويجمع أخبار الأندلس وأحوالها وظروفها، وأدرك أن الفتن والحروب الأهلية قد تمكنت منها، وما لبث أن أرسل مولاه بدر إلى الأندلس عام ٧٥٣م ليحاول بث دعوته حتى يعبر البحر كوريث شرعى لمناصرى الأمويين هناك. وبالفعل وصل بدر إلى منطقة «البيرة» التى كانت مركزًا لعُصْبة بنى أمية، وانعقدت رئاستهم لعثمان عبيد الله ابن عثمان وصهره عبد الله ابن خالد، فاجتمع بهما بدر وأبلغهما برسالة مولاه عبد الرحمن واستجاب الرجلان اللذان كانا من موالى بنى أمية، وجهز بدر مركبًا خاصًا ومعه عدد من أنصاره الأمويين، فاستبشر عبد الرحمن وعبر البحر معهم إلى الأندلس فى سبتمبر عام ٧٥٥م، واستقبله عثمان وأكرم وفادته وأعلن له استعداده ليكون فى خدمته، واستقر هناك ليدبّر خططه ويبحث الخطوة التالية.

أما يوسف ابن عبد الرحمن فقد أبلغه عيونه بوجود عبد الرحمن وانتشار دعوته فى جنوب الأندلس، وعلم أن العديد من زعماء القبائل والجند هناك قد التفوا حول عبد الرحمن الأموى، وأن أبا عثمان وصهره حشدا جموعًا كبيرة من الأمويين وأهل الشام، ويستعدون للمعركة. وهنا فكر يوسف فى استعمال الحيلة ليأمن شر عبد الرحمن ويطمئنه ثم يتخلص منه.

وهكذا أرسل له أن يزوجه ابنته ويعيِّنه حاكمًا على إحدى المناطق ويتحالف معه. لكن عبد الرحمن لم يكن من السهل خداعه فرفض على الفور، ولم يَبْقَ إلا أن يتأهبا لمعركة تحسم الأمر. وفى الوقت نفسه كان عبد الرحمن يجمع أنصاره وينشر دعوته دون كلل، بل وتقدم فى الجنوب عابرًا القرى والأمصار يأخذ البيعة من الجند والأنصار حتى وصل إلى «إشبيلية» وبلغ عدد الجنود الذين انضموا إليه عدة آلاف، وفى أوائل عام ٧٥٦م سار نحو قرطبة مقر إمارة يوسف ابن عبد الرحمن.

قاد صقر قريش جيشه رافضًا محاولة خصمه للصلح قبيل المعركة الفاصلة، وأصر

عبد الرحمن على القتال. لم تستغرق المعركة سوى يوم واحد، وكان أول أيام عيد الأضحى، وبعد عدة ساعات بدا أن القتال قد حسم، وما لبث يوسف ابن عبد الرحمن أن فرَّ هاربًا بعد أن تيقن من هزيمة جيشه، ودخل عبد الرحمن الأموى قرطبة منتصرًا وصلى الجمعة بالجامع وبويع بالإمارة فى ١٠ ذى الحجة عام ١٣٨ هـ – ٨ مايو ٧٥٦م.

على أن الأمير الجديد لم يكن يتطلع لحكم قرطبة وحدها، بل كان طموحه الأندلس بكاملها، وأن يستعيض بربوع الأندلس عن الخلافة التى فقدها فى دمشق. لم يخدمه الحظ السعيد أو المصادفات، كما أن انتصاره فى معركته الأولى لم يكن ليثنيه أو يقنعه بالاكتفاء بقرطبة والجنوب، وهى منطقة شاسعة، لذلك لم يضيع الوقت، واستفاد من حالة الفوضى المنتشرة فى الأندلس والخلافات الضارية بين القبائل والاقتتال الدائر بينها، وبدت القرى والمدن الصغيرة وكأنها ديوك لا تكف عن النزاع وغابت السلطة المركزية التى تشد أواصر القبائل والبطون والعصبيات فى دولة موحدة تستطيع مواجهة أعدائها المتربصين من الفرنجة والنصارى الذين يتحينون الفرصة المناسبة للانقضاض على العرب.

لم يكن عبد الرحمن آنذاك قد تجاوز السادسة والعشرين من عمره، إلا أن تجاربه ومعاركه والأهوال التى عاشها منذ انهيار مُلك أبيه وهروبه من دمشق قد شحذت من عزمه، فتقدم غير هيَّاب يخوض معركة تلو أخرى ليعيد توحيد الأندلس المفككة الأوصال تحت زعامته، وصمد للمؤامرات والثورات والأخطار وأعمل الحيلة واستغل الظروف حتى نجح فى آخر الأمر.

من جانب آخر لم تكن مشكلة عبد الرحمن محصورة فى أعدائه الداخليين وحدهم، بل إن الغزو الخارجى كان يتهدده من جانب جارته القوية فى الشمال، مملكة الفرنج وعاهلها القوى شارلمان. وبالفعل اتصل بالأخير زعماء الخوارج على عبد الرحمن، واتفقوا معه على مساعدته على أن يغزو الثغر الأعلى ويسلموه له فى مقابل أن يوطد حكمهم المستقل عن قرطبة.

كانت كل الشواهد تشير إلى قرب هزيمة عبد الرحمن الداخل، فقد كانت الحروب

والفتن الداخلية لا تكاد تنقطع وتستنزف جيشه، كما أن جيش الفرنج كان مجهزًا وقويًا وخطوط إمداداته تتميز بالتأمين الجيد والمستمر، وفى الوقت نفسه يعتمد على حلفائه من القبائل والبطون الثائرة على عبد الرحمن والخارجة عليه. وفى اللحظات الأخيرة فى أثناء استعداد جيش الفرنج للغزو، اختلفت الخوارج من المسلمين مع ملك الفرنج شارلمان وانقلبوا عليه، وبذلك زال هذا الخطر الخارجى مؤقتًا.

وهكذا دانت الأندلس لعبد الرحمن صقر قريش كاملة، وبدأ فى استعادة مجد الأمويين الغارب فى تلك البقعة النائية. واستطاع فى سنوات قليلة أن يبعث الأندلس من جديد موحدة قوية، وبدأ بحاضرة ملكه قرطبة وعمل على أن تفوق دمشق حاضرة أجداده، فزينها بالمنشآت الفخمة والحدائق وأنشأ ضاحية ملوكية جديدة وقصرًا تحيطهاالأشجار التى جلبها من الشام وأفريقيا، وسمى الضاحية الرصافة تخليدًا لذكرى الرصافة التى أنشأها جده هشام بالشام، ومازالت الضاحية حتى اليوم فى الموقع نفسه الذى اختاره عبد الرحمن قبل ثلاثة عشر قرنًا من الزمان، كذلك أنشأ جامع قرطبة العظيم الذى يعد أعظم جامع فى الغرب الإسلامى حتى اليوم، ومازال رمزًا لعظمة فنون العمارة الإسلامية.

أما سبب تسميته بالداخل فترجع إلى أنه أول من دخل الأندلس من بنى أمية وحكمها، وتبعه فى الحكم ابنه عبد الرحمن الأوسط، ثم عبد الرحمن الناصر. وتعد الفترة التى تولى فيها هؤلاء الثلاثة من أكثر الفترات ازدهارًا ورخاءً وقوة فى الأندلس.

والمثير للدهشة أن واحدًا من ألدِّ خصومه وأعدائه هو الذى أطلق عليه اللقب الشهير الذى التصق به: «صقر قريش». وهو ما يؤكد أن عبد الرحمن كان يتمتع باحترام خاص من جانب خصومه ومُحبيه، فالذى أطلق عليه هذا اللقب هو الخليفة العباسى أبو جعفر المنصور. فطبقًا لرواية أحد المؤرخين المعاصرين أن المنصور سأل أصحابه يومًا: «من صقر قريش من الملوك؟» قالوا أمير المؤمنين – يقصدون المنصور – فأجابهم بأنهم أخطأوا، فعادوا يقولون: معاوية، فأجاب: ولا هذا، فقالوا: عبد الملك ابن مروان .. أجابهم: لا .. فقالوا: من إذن يا أمير المؤمنين؟. قال: صقر قريش عبد الرحمن ابن

معاوية الذى تخلص بكيده من سنين الأسنة، وظباة السيوف، يعبر اتفقر، ويركب البحر، حتى دخل بلداً أعجمياً منفرداً بنفسه، فمصر الأمصار، وجند الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيماً بعد انقطاعه بحسن تدبيره وشدة شكيمته. إن معاوية، نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان وذللا له صعبه، وعبد الرحمن منفرد بنفسه، مؤيد برأيه، مستصحب لفرحه، ولحد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور وقتل المارقين وأذل الجبابرة الثائرين».

إلى جانب هذا كان بالغ التواضع، يصلى بالناس أيام الجمع والأعياد، ويشارك شعبه أحزانه فى حضر الجنائز ويصلى عليها، ويعود المرضى، ويزور الناس ويتبادل الحديث معهم ليتعرف على مشاكلهم الحقيقية بنفسه.

كان صقر قريش أيضًا شاعراً وترك عشرات القصائد.

ولعل من أجمل قصائده تلك التى يقول فى مطلعها وهو يصف روض الرصافة، الضاحية الملوكية التى أنشأها:

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهى فى التغرب والنوى
وطول التنائى عن بنىّ وعن أهلى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
فمثلك فى الإقصاء والمنتأى مثلى

لذلك اعتبره كثير من المؤرخين رائد النهضة الأدبية التى تفتحت فيما بعد على يد خلفائه.

وفى الوقت نفسه كان يتسم بطباع أخرى انحدرت إليه من أجداده الأمويين وفى مقدمتهم معاوية ابن أبى سفيان المعروف بمكره وخبثه، فحتى يستطيع أن يقيم ملكه ثم يحافظ عليه ل ابنه ثم حفيده من بعده خاض كفاحًا دمويًا، فلم يدع وسيلة إلا واستعملها فى سحق خصومه. وإلى جانب دهائه لم يتورع عن الخيانة والغدر والفتك

والقمع والانتقام، وكان طاغية يسرف فى البطش حتى بأصدقائه القريبين، ومن بينهم من آزروه عندما كان شريداً، وقاتلوا معه وقادوه إلى حكم الأندلس، بل لم يتورع عن الفتك بذويه وخاصة أسرته.

وأخيراً كتب عنه مؤرخ الأندلس الراحل الكبير عبد الله عنان:

«ذلك هو صقر قريش، وتلك هى قصته، قصة فتى شريد، يعمل القتل الذريع فى أسرته وعُصْبته. وحيد ليس له أنصار ولا صحب، ومع ذلك فإنه يتجه من وراء القفر الشاسع، إلى افتتاح قطر عظيم زاخر بالقادة والجند، ثم يفوز بافتتاح هذا القطر خلال حروب ومعارك لا يخمد أُوارُها، ويقيم ملكًا عظيما على بركان يضطرم من الثورة والمؤامرة والخصومة، ثم يرسى قواعده على أسس وطيدة، ويغدو هذا الملك الجديد، بعثًا لملك أسرته المندثر، واستئناف مجدها العريض الشامخ. وإنها لقصة عجيبة، ليست من حوادث التاريخ العادية، ولا يقدم لنا التاريخ كثيراً من أمثالها».

عندما غربت شمس الأندلس

«كان اسم الناصر والمنصور اللذان يعنيان باللغة العربية «صيحات النصر» هما المسيطران على كافة أنحاء إسبانيا خلال القرن العاشر لكن اعتباراً من الآن وحتى تدخَّل أمير الصحراء «يوسف ابن تشفين» نرى أن القرن الحادى عشر هو عصر فرناندو الأول وألفونسو الرابع والسيد القمبيطور الذى أُلِّفت بشأنه القصيدة الملحمية، وعلا نجم قشتالة هذا الإقليم الذى صنع إسبانيا وأخذ يرتفع شيئًا فشيئًا، أما نجم الأندلس المسلمة فقد أخذ يخبو، كما أن تكاثر حالات كسوفه أعلنت عن غروبه الكامل وسقوطه فى بحر العدم».

بهذه السطور ينهى العلاَّمة الفرنسى والمستعرب المتخصص فى تاريخ العصور الوسطى سِفْره النفيس «تاريخ إسبانيا الإسلامية من الفتح إلى سقوط الخلافة القرطبية ٧١١ – ١٠٣١م» العلامة هو ليڤى بروڤنسال وترجمه إلى الإسبانية إميليو جارثيا جوميث، ونقله إلى العربية كل من على عبد الرءوف البمبى وعلى إبراهيم المنوفى والسيد عبد الظاهر عبد الله بمراجعة صلاح فضل وصدر فى سلسلة المشروع القومى للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة فى مصر.

ولعل أول ما يثير الدهشة هو أن المؤلف فرنسى، بينما المترجم إسبانى، فلماذا اختار

الإسبانى كتابًا فرنسيًا عن تاريخ بلاده، وهل خلت إسبانيا من مؤرخ يتناول هذه الفترة المضطرمة الشائكة ؟!

يجيب إميليو جارثيا جومث عن هذا التساؤل بالتعبير عن أسفه لأن معظم المهتمين بحقل الدراسات التاريخية الإسبانية فى العصر الوسيط يجهلون اللغة العربية، وبالتالى ليس فى مقدورهم التعامل المباشر مع المصادر العربية، بينما أسدى بروڤنسال خدمات جليلة بأعماله التاريخية المتخصصة حول الأندلس، وهو ما دفع جومث لاختيار هذا الكتاب لترجمته إلى .

وإذا كان العرب قد أسسوا حكمًا وحضارة زاهرة استمرت ثمانية قرون، ثم غربت شمسهم بسبب تفرق كلمتهم وتشرازمهم والتحالفات التى عقدوها – بعد أن انفرط عقدهم وأصبحوا مجرد إمارات متهالكة صغيرة – مع الأمراء الإسبان وضد بعضهم البعض.. إذا كان ذلك كذلك فإن جومث يلفت انتباه القارئ الإسبانى – وليس العربى! – إلى ما يدفعنا لإعادة التأمل فى «الخيبة العربية الكبرى» التى أدت لانهيار حضارة زاهرة تفتحت وتطورت وبلغت الذُّرَى خلال عدة قرون.

وطبقًا لنظرية ابن خلدون فى فلسفة التاريخ، يشير جومث إلى أن بلاط قرطبة وخلافتها عاش ثلاث مراحل أساسية: التأسيس فالمحافظة ثم الهدم، ويمكن فى هذا السياق التمييز بين ثلاث مجموعات تضم كل مجموعة ثلاثة أجيال يأتى فى مقدمتها دائمًا حاكم يسمى عبد الرحمن يليه حاكم يدعم الابنيان الذى تم تشييده، بينما يدفع الثالث هذا الابنيان إلى الهدم. تتألف المجموعة الأولى، طبقًا لما أورده جومث من «العبقرى عبد الرحمن الأول يليه السمح الوديع هشام الأول ثم الغضوب النزق الحكم الأول» ويضيف «وتتألف المجموعة الثانية كذلك من ثلاثة أجيال: عبد الرحمن الثانى ثم محمد الأول والأخوان المنذر وعبد الله. ونفس ما تقدم نجده فى المجموعة الثالثة: عبد الرحمن الثالث (الناصر)، الحكم الثانى «المستنصر»، هشام الثانى (المؤيد)» .. ومن الغريب أن هذه العصور الأربعة يتألف كل منها من ثلاثية تتوازى مع الأربع مراحل لابناء المسجد الجامع بقرطبة، فالثلاثة الأولى منها (التى قام بها الأمويون) زادت من بهاء المسجد بينما كانت إضافة المنصور (الأخيرة)

غير متناسقة وأقل عناية.

والواقع أنه أيًا كان الأمر فإن «الاحتلال» العربى لإسبانيا، لا يتناوله جومث – الإسبانى وليس العربى – بوصفه مجرد استعمار استمر ثمانية قرون ثم تم دحره والتخلص منه، بل يتناوله بوصفه إضافة حضارية كبرى أسهمت وأضافت وأنجزت الكثير وأصبحت جزءًا من روح إسبانيا حتى الآن. فإلى جانب الإنجاز الشعرى، حمل زرياب العربى ألحانه وموسيقاه، بل إن وصفات المأكولات وفن الإتيكيت وطرق تصفيف الشعر والأزياء.. تشكل كلها إضافات استقرت عبر ثمانية قرون.

شكلت الثقافة الإسلامية إذن جاذبية لا شك فيها، فضلاً عن الزيجات الحتمية بين المسيحيات والعرب، مما أدى إلى تبنى المسيحيين للعادات الوافدة (كان كثير منهم يختتنون) ويقلدون الأدب العربى، حيث كانوا يتعلمون العربية ويؤلفون بها الأشعار، بينما أخذت اللاتينية فى التلاشى حتى بين الرهبان، كذلك ترجم الإنجيل والقوانين الكنسية إلى العربية.

أما ما يشاع عن الاضطهاد الدينى للمسيحيين فإن جومث وبروڤنسال معًا يؤكدان بوضوح أن الدولة الإسلامية كانت تحقق أقصى درجات التسامح مع المسيحيين واليهود، فالقساوسة يغشون الأماكن العامة بزيهم التقليدى والكنائس يتم تشييدها والمسيحيون يرتقون إلى أعلى المناصب العسكرية والسياسية.

هناك واقعة تاريخية محددة خلال الفترة من ٨٥٠ إلى ٨٥٩ بقرطبة حكم فيها على أربعين مستعربًا بالإعدام عقابًا على سبهم للرسول (ص) علانية، وهى واقعة يعلق عليها جومث قائلاً:

«من غير المعقول أن نطلب من المسلمين التساهل إلى الحد الذى يغضون فيه الطرف عن إهانة وسب المسيحيين لرسولهم علانية فى نفس الوقت الذى لا يسمح فيه لأحد، بالتعريض بالعقيدة المسيحية. والقانون القرآنى ينص على إنزال أقصى العقوبة بمن يقترف هذا الجرم، وهذا ما تم تطبيقه بالفعل ودون زيادة على الذين تطاولوا علانية على شخص رسول المسلمين».

والحال، أن النسيج الداخلى للشعب فى ذلك الوقت سمح بذوبان نادر للعرب والإسبان، بل إن قرطبة – طبقًا لمؤرخ إسبانى وليس عربيًا هو «سيمونت» كان يعيش فيها عام ١٣١١ حوالى ٢٠٠٠٠٠ مسلم من بينهم ٥٠٠ فقط ينحدرون من أصول عربية خالصة. ويضيف جومث هنا «هذه العجينة الهائلة التى تضخمت دون هوادة بفعل التكاثر الطبيعى من خلال الزيجات التى شملت كل الطوائف والسلالات حتى العائلة المالكة ذاتها، هذه الجموع الغفيرة من المسلمين الأنقياء (وغالبيتهم من أصل إسبانى ولذا يتمتعون بمكونات نفسية وغرائزية خاصة جعلتهم فى كثير من الأحيان يختلفون مع الغزاة)، هذا الشعب المبهم الذى تشكل فى تلافيف الصمت ووعى أخيرًا دوره هو الوجه الحقيقى لإسبانيا المسلمة».

وإذا كان هناك مؤرخون كبار عرب قدموا إسهامات أساسية حول تاريخ الأندلس منذ الفتح العربى وحتى غروب شمس العرب، مثل عبد الله عنان الذى نذر حياته تقريبًا لمثل هذا التأريخ وترك لنا – من بين ما ترك – ستة مجلدات عن تاريخنا فى الأندلس – إذا كان هذا هو ما فعله المؤرخون العرب، فإن العلامة الفرنسى بروڤنسال بفضل معرفته بالعربية واشتغاله بها وتحقيقه ونشره لمصادر عربية عديدة، يضيف بهذا السفر الكثير للمشتغلين بدراسة تاريخ الأندلس. وقد تجلَّت حيدته العلمية وابتعاده عن الأهواء والعداوات التقليدية العرقية أو حتى الدينية فى هذا السفر النفيس حقًا.

وعلى مدى ٥٤٣ صفحة من القطع الكبير، وبالاستناد إلى مجموعة متنوعة وضخمة حقًا من المخطوطات العربية (وبعضها لم يصل ليد شيخ مؤرخى الأندلس عبد الله عنان) يتابع بروڤنسال بدقة ودأب وتمحيص أدق الملابسات والوقائع التاريخية ليقدم لوحة بانورامية عريضة لتاريخنا – نحن العرب – فى الأندلس، منذ فتح إسبانيا على يد طارق ابن زياد وموسى ابن نصير عام ٧١٠م، ثم تأسيس إمارة قرطبة الأموية عام ٧٥٦، ويتفرغ منذ هذه اللحظة لرواية تاريخ الخلافة الأموية فى قرطبة، وحتى تدهورها وما أعقبه من سقوط لابنيان ضخم تم تشييده بسواعد العرب والإسبان معًا.

وإذا كانت مراحل التأسيس والتشييد والتدعيم قد شهدت بناء عالم يقوم على التسامح الدينى والعرقى ورفض الاضطهاد ومقاومته، مما أتاح الفرصة للازدهار والتأثير والتأثر،

فإن المرحلة الأخيرة، مرحلة القوط شهدت تاريخًا من المساخر المتوالية حيث كان كل حاكم يقضى بضعة أشهر فقط ثم يسقط ليحل محله حاكم آخر.

لقد سقطت الخلافة الأموية فى إسبانيا الإسلامية فيما لا يزيد على ربع قرن، بينما استغرق تشييدها عدة قرون. وعلى حد تعبير بروڤنسال سقطت وكأنها قلعة من ورق أسسها الأمويون خير تأسيس، أما أسباب التهاوى السريع ففى مقدمتها ضعف الخلفاء والحكام، والتدخل المتزايد فى الشؤون العامة للخلافة من جانب البربر والصقالبة الذين استقدمهم الخلفاء فى قرطبة أصلاً كمرتزقة يتم استخدامهم فى الجيش، وأصبحوا فى نهاية الأمر هم المتحكمون والقادرون على تنصيب هذا الحاكم أو ذاك وفق مشيئتهم ومصالحهم.

والمثير للدهشة أن هذا الانهيار السريع للخلافة فى قرطبة لم يكن مثلاً بسبب مجموعة من النكسات العسكرية أو قيام «العدو المسيحى» بالاستيلاء على بعض المناطق، فعندما تم إقصاء آخر خليفة أموى، كانت قد مرت ٣٥ سنة دون أن يقوم المسلمون فى الأندلس بتوجيه ضربات للمسيحية الإسبانية، وكانوا قد فرضوا سيادتهم على كل شبه الجزيرة، والممالك التى كانت تعيش فى الشمال رهن تهديداتهم المباشرة، بل وكانوا الحكم فى الخلافات التى تحدث فيما بينهم ..

ومع ذلك فإن القوط كان مدويًا يكاد يذكرنا بسقوط الإمبراطورية الرومانية، والسبب الأساسى فى هذا القوط هو تلك «السحابة» من الدويلات والممالك والإمارات المتناطحة فيما بينها، والأحلاف التى يتم عقدها بين هذه الدويلات وبين أعدائها من أجل القضاء على بعضها بعضًا على نحو يذكرنا بما يجرى الآن، فهل يخرج العرب المعاصرون من التاريخ مثلما خرج أسلافهم عرب الأندلس من جنة الأندلس التى شيدوها بأنفسهم؟!

بطبيعة الحال لن يجيب أحد عن هذا التساؤل المشروع والمطروح بقوة عندما يعيد قراءة تاريخنا فى الأندلس، هذا التاريخ الذى يؤكد الإسبان أنفسهم أن «الإسلام كان لجسد الأمة الإسلامية بمثابة غذاء ومطهر فى آن واحد» وبفضل الخلافة الأموية «تمكنت إسبانيا من إضافة صفحات مشرقة ناصعة لتاريخها الجامد الجاف، وأمكنها التعرف على ثقافة

رفيعة لا نظير لها فى عالم الغرب قبل عصر النهضة، كما أنها تحولت بفضلها إلى رباط يصل بين الحضارتين الكبيرتين للعصور الوسطى، والى جسر عبر فوقه القسط الأعظم من العوامل التى أهَّلت أوربا لتولى زمام الحركة الإنسانية» وفق كلمات المؤرخين الإسبان أنفسهم ..

ما جرى لنا فى إسبانيا ليس مجرد موعظة حسنة، حيث لا يمكن الدفاع عن الاحتلال أيًا كان المحتل، لكنه مثل لما جرى ويمكن أن يجرى بعد أن أصبحنا مهدَّدين فعليًا بالخروج من التاريخ! هل نتعلم ونتدبر ونستخدم نعمة التفكير؟!

ابن جبير .. ساكن زقاق القناديل

صباح الخميس ٨ من شوال ٥٧٨ هـ الموافق ٣ فبراير ١١٨٢م غادر ابن جبير موطنه غرناطة متجهًا إلى المشرق، ليقوم برحلته الأولى قاصدًا الأراضى المقدسة ليؤدى مناسك الحج. وما كتبه بعد عودته، ووصفه لتجربته ومكابدته لمشاق السفر عدة آلاف من الكيلو مترات، يؤكد مدى ما كان على المسلمين المقيمين بالأندلس أن يتحملوه من أجل أداء فريضتهم.

اشتهر ابن جبير بين الرحالة العرب والمسلمين، بسبب ما تركه لنا من كتب يحكى فيها أسفاره، فكانت تلك الكتب وثائق نادرة على العصر والأماكن والحياة الاجتماعية للمشرق والمغرب والأندلس منذ عشرة قرون تقريبًا. وضاعف من أهمية ما تركه لنا ابن جبير أسلوبه وبلاغته وقدرته على التعبير وحسن الصياغة.

وإذا كان هناك رحالة عرب ومسلمون كثيرون جابوا الآفاق ووصلوا فى رحلاتهم إلى أبعد مما وصل إليه ابن جبير، إلا أن الأخير – على الرغم من أن رحلاته تُعد أقصر ولم تبلغ ما، بلغته رحلات غيره – كان دقيق الملاحظة، وجاء من إمبراطورية كانت قد وصلت إلى مرتبة عالية من الرقى الحضارى والتقدم، لذلك فإن عينه اختزنت ما كان يشاهده

ويصادفه، وقارنت بينه وبين الحضارة التى انتمى إليها، حضارة الأندلس الزاهرة.

أما مولده فكان فى الأندلس عام ٥٤٠ هـ – ١١٤٥م بعد أن نزح جده الأكبر عبد السلام ابن جبير الكنانى إلى هناك سنة ١٢٣ هـ، أى أنه أندلسى قُحّ أصيل عاش أجداده المباشرون أكثر من ثلاثمائة عام فى أرض الأندلس قبل مولده.

أما الأندلس فى الفترة التى عاشها ابن جبير فكانت تحت حكم الموحدين الزاهر، وفى لحظة فريدة من لحظات قوتها وتقدمها على كل المستويات تحت حكم الخليفة يعقوب المنصور، الذى يعتبره كثير من المؤرخين أعظم خلفاء الدولة الموحدية.

وشأنه شأن سائر المسلمين اعتزم أن يؤدى فريضة الحج فقام برحلته الأولى السابق الإشارة لها عام ٥٧٨ هـ – ١١٨٢م، وركب البحر من ثغر طريف جنوبًا وعبر المضيق إلى سبتة، ومنها ركب مركبًا أخرى كانت فى طريقها إلى الإسكندرية، فسارت فى المتوسط ومرت على عدد من الجزر فى عرض البحر لتتوقف فى صقلية وكادت تغرق بسبب اشتداد العواصف، لكنها وصلت فى نهاية الأمر بعد ٣٠ يومًا من هياج البحر إلى الإسكندرية.

لحسن الحظ وصلتنا رحلة ابن جبير الأولى بكل وقائعها وما شاهده فى كل الجزر التى توقفت المركب بها وهى فى طريقها، كما يصف لنا منار الإسكندرية قبل أن يتحطم، ويتحدث كثيرًا عن مدارس الإسكندرية وما كانت قد بلغته من تقدم وازدهار. وفى الوقت نفسه تحدث عما لقيه هو وزملاؤه من الحجاج المغاربة من تعسف وظلم رجال الضبط فى جبايتهم للضرائب . وما لبث ابن جبير أن وصل إلى القاهرة، ونزل بالفسطاط، وحسبما ذكر هو فى رحلته أنه سكن فندق أبى الثناء بزقاق القناديل قرب جامع عمرو إبان حكم الناصر صلاح الدين.

وهنا أتيح له أن يكتب الكثير مما شاهده وتجول بين جنباته آثار القاهرة ومساجدها ومزاراتها، مما يعد كما سبق وأشرت وثائق نادرة عن العصر والمكان. من جانب آخر تكشف رحلة ابن جبير الأولى للحج مدى ما كان يتعرض له الحجاج من مشقة لأن الصليبيين كانوا يحتلون جانبًا كبيرًا من أرض الشام وفلسطين وقتذاك ويسيطرون بحصونهم المنتشرة على طريق العقبة وشمال البحر الأحمر. لذلك كان الحجاج من مصر

يسيرون فى قوافل بطريق البر إلى قوص فى الجنوب ثم عيذاب عبر الصحراء الشرقية، حيث يركبون البحر إلى جدة.

وبعد هذا الطريق الوعر، سار إلى مكة التى وصلها فى ١٣ ربيع الثانى عام ٥٧٩ هـ وأقام بها أكثر من ثمانية أشهر، كانت كافية ليترك لنا المزيد من الوثائق عن مكة فى ذلك العصر. لم يترك الرجل شاردة أو واردة إلا وتحدث عنها بالتفصيل: الكعبة ومقام إبراهيم ومكان الطواف والحجر الأسود وباب الكعبة وكسوتها وبئر زمزم والصفا والمروة.

والمعروف أن هناك كتابات عديدة سجلت تلك التفاصيل وربما زادت عليها، لكن أحداً لم يبلغ ما بلغه ابن جبير من حرارة «تذيب قلب المؤمن» على حد قول العلامة الراحل عبد الله عنان فى كتابه الأشهر «تراجم إسلامية».

من مكة شد ابن جبير رحاله إلى المدينة، ومنها إلى العراق عبر نجد، وصل بغداد وقضى فيها أسبوعين شاعراً بالأسى نحو عاصمة الخلافة العباسية التى كانت تعيش لحظاتها الأخيرة وعلى وشك أن تلفظ أنفاسها وقد فقدت بهاءها! ويواصل ابن جبير مشاهداته للأطلال الغابرة فى المدن التى أفلت شمسها مثل سامرا والموصل. ثم نصيبين وحران حتى وصل إلى حماة فى الشام ومنها إلى دمشق فى الخامس من يوليو ١١٨٤، أى بعد نحو عامين من مغادرة الأندلس.

لفتت دمشق أنظاره بقوة فأفاض فى وصف أبوابها ومعالمها وجامعها الأعظم وعادات أهلها وطوائفها الصوفية. لكن الطريق إلى الأندلس بعد ذلك كان كئيباً، فقد تعين عليه أن يعبر الإمارات والقواعد الصليبية حتى وصل إلى عكا وأتاح له هذا العبور أن يرسم لنا صورة صادقة وبالغة الألم عن أحوال المسلمين الذين يئنون تحت حكم الصليبيين وما يفرضونه عليهم من ضرائب.

ومن عكا استقل المركب إلى صقلية وقبل بلوغه الجزيرة كاد يفقد حياته بعد أن تحطمت قلاع المركب، إلا أن النجاة كتبت له قبل أن تشرف المركب التى يستقلها على الغرق، وركب زورق نجاة وصل به بسلام، ودامت إقامته بالجزيرة ثلاثة أشهر أمكن له خلالها أن يدرسها بدقة ويقف بنفسه على أحوال المسلمين هناك والعلاقات الطيبة التى تربط بينهم

وبين النصارى، لكنهم مع ذلك كانوا أقلية يعانون ما تعانيه الأقليات من ظلم واضطهاد.

وبعد عامين وثلاثة أشهر ونصف وصل ابن جبير إلى بيته بغرناطة ليعكف على تسجيل وصياغة رحلته الأولى، قبل أن يستعد لرحلته الثانية عام ٥٨٥ هـ. وحسبما يرى العلامة الراحل عبد الله عنان، فإن ما دفع ابن جبير لرحلته تلك فتح الناصر صلاح الدين لبيت المقدس وانتصاره المدوى على الصليبيين، وقضى عامين آخرين تقريبًا فى رحلته الثانية للحج ثم عاد إلى غرناطة ، وما لبث أن عبر البحر إلى المغرب وعاش بين فاس وسبتة وانقطع هناك للقراءة والدراسة.

أما رحلته الثالثة والأخيرة فكانت عقب وفاة زوجته عاتكة بنت الوزير أبى جعفر الوقشى عام ٦٠١ هـ. وكان مرتبطًا بها بشدة، لذلك كان حزنه عليها مضاعفًا وهو ما سجله فيما خلفه لنا ذاكرًا أنها ماتت فى نفس يوم زفافها إليه:

«ومن عجايب اتفاقات الأقدار، الباعثة على الاعتبار، أن كان تجهيزها إلى بجيان فى الحادى عشر من شعبان سنة سبعين وخمسمائة، فوافق تجهيز الحياة، تجهيز الممات، وليلة القبر تنسى ليلة العرس، فيا لها من لوعة وحرقة، ولكل اجتماع من خليلين فرقة».

وبعد أن حج فى رحلته الثالثة جاور بالحرم الشريف ردحًا من الزمان، ثم سافر إلى بيت المقدس، ومنه إلى مصر، واختار أن يقضى بقية حياته فى الإسكندرية متخصصًا فى الحديث وذاع صيته من هناك وبلغ الشام والأندلس. وإلى جانب رحلاته الشهيرة، جرت بينه وبين مجايليه من أدباء عصره رسائل مازالت حتى الآن وثائق تكشف لنا عن الكثير، وترك لنا أيضًا مئات القصائد والموشحات تضمنت قصائد عديدة فى رثاء زوجته، هذا فضلاً عن رسائل أخرى عن مناسك الحج ومعالم مكة المكرمة..

وفى ٢٩ شعبان عام ٦١٤ هـ الموافق ١٠ نوفمبر ١٢١٧م توفى ابن جبير فى الإسكندرية مستقره الأخير. رحل ابن جبير فى هدوء عن أربعة وسبعين عامًا، لكنه ترك لنا مخطوطاته التى وجدت لحسن الحظ من يحافظ عليها حتى حُققت ونشرت وذاع صيتها ومازالت حتى الآن وثائق نادرة لا يبليها الزمن.

هل نصدق الحسن ابن الوزّان .. أم ليون الأفريقى ؟

ما الذى جرى للحسن ابن الوزَّان الفاسى الغرناطى؟

هل نصدقه أم نصدق ليون الأفريقى؟!

كيف يمكن فهم مثل هذه التحولات العاصفة فى شخصية واحدة؟

هل أجرى الفرنجة عملية غسيل مخ من نوع غير معروف حتى يتحول الإنسان من النقيض إلى النقيض ؟

هذه الأسئلة وغيرها تظل معلقة ولا تجد إجابة شافية عندما نتأمل شخصية مثل الحسن الوزَّان الفاسى الغرناطى الذى عاش بين (٩٠٠ – ٩٤٤ هـ / ١٤٩٦ – ١٥٣٧م) وتجول فى أرجاء أفريقيا واكتشف أعماقها وكان رائداً بحق فى الكتابة عن مجاهلها التى لم يتمكن أحد قبله من اكتشافها.

ولد الوزَّان فى غرناطة آخر حواضر الإسلام فى الأندلس بعد سقوطها عام ١٤٩٢. فبعد أن ظهرت نيات السياسة الإسبانية واضحة فى نقض الاتفاقيات والعهود التى أبرمت بين ملك غرناطة الإسبانى قبل تسليم غرناطة بالحفاظ على المسلمين واحترام دينهم ومساواتهم بغيرهم من الإسبان، بعد أن ظهرت تلك النيات بدأت آلاف الأسر المسلمة

تغادر غرناطة إلى بلاد المغرب هربًا من الكارثة المقبلة، وكان من بين هذه الأسر أسرة الحسن ابن الوزَّان التى غادرت إلى فاس على الشاطئ الآخر من البحر الأبيض المتوسط.

كان حلم المسلمين الزاهر فى الأندلس قد شارف على نهايته بعد أكثر من ثمانية قرون، وتحول حكامهم إلى ملوك لطوائف متناحرة يستعينون بملوك المسيحيين ضد بعضهم بعضا، وفقدوا مبرر وجودهم بعد أن فقدوا وحدتهم، وراح كل حاكم يسعى لتثبيت موطئ قدم له، ودارت المعارك بينهم بدلاً من أن تدور بينهم وبين أعدائهم المتربصين على الحدود!

وبعد هزيمة آخر معاقل المسلمين وهى غرناطة، غادرت أسرة الوزَّان – كما سبقت الإشارة – غرناطة إلى فارس، وكان عمْر حسن ابن الوزَّان لا يتجاوز ثلاث سنوات، فنشأ هناك، وتلقى تعليمه فى مسجد القرويين، ودرس النحو والعروض والأدب والتاريخ والفلسفة والمنطق والشريعة، كما قرأ عن التصوف.

ومنذ حداثته عمل فى بلاط سلطان فاس، وأوفده السلطان فى مهام عديدة إلى أفريقيا فعندما كان فى السابعة عشرة من عمره أرسله إلى تمبكتو، فسار فى قافلة عظيمة حاملاً هدايا سلطان فاس إلى سلطان تمبكتو بأعماق أفريقيا المجهولة آنذاك، وشاهد ممالك أفريقيا الوسطى وحوض نهر النيجر، ودرس جغرافية تلك المنطقة.

وفى كتابه المشهور أوربيًا قبل أن يكون مشهورًا عربيًا «وصف أفريقيا»، يتحدث بدقة شديدة عن خمس عشرة مملكة زارها قبل وصوله إلى تمبكتو، بعد ذلك أنفق أعوامًا أخرى فى التجول فى سائر أنحاء المغرب، كما اشترك فى بعض الحملات التى تصدت لرد البرتغاليين عن ثغور المغرب، كما صحب مولاه محمد سلطان فاس فى بعض حملاته.

وحسب المؤلف الشهير «وصف أفريقيا» نعلم أنه زار مصر وخصص «الكتاب الثامن» من ذلك المؤلف للحديث عن رحلته التى تمت عن طريق النيل من القاهرة إلى أسوان، ثم عاد ليخترق الصحراء الشرقية حتى البحر الأحمر وعبره إلى ينبع ثم إلى جدة، وعبر بلاد الحجاز إلى القسطنطينية، ثم عاد مرة أخرى إلى مصر ومنها اتجه إلى إيطاليا.. واستغرقت هذه الرحلات نحو خمسة أعوام من ١٥١٦ إلى ١٥٢٠م، حيث عمل مع القوافل التجارية يقوم بأعمال التوثيق والمحاسبة، كما اشتغل أحيانًا بالتجارة لحسابه الخاص.

وحوالى عام ١٥٢٠ كان فى مصر يستعد للعودة إلى وطنه، فركب البحر من الإسكندرية قاصداً تونس، وفى خليج قابس عند شاطئ جزيرة جربة، هاجم قراصنة من الابندقية سفينة الوزَّان وأخذوه أسيراً، لتبدأ مرحلة جديدة تماماً من حياته، على الرغم من أن هذا الحدث كان معتاداً، وكان القراصنة فى العادة يطلبون فدية لإطلاق سراح الأسرى، ولسبب ما لم يجد الحسن ابن الوزَّان من يدفع فديته، فحمله القراصنة – الذين أدركوا أهميته مما يحمله من أوراق وكتب تشكل أغلب متاعه – حملوه إلى روما وقدموه هدية إلى البابا ليون العاشر.

والواقع أن الحسن لم يكن وحده، فقد شهدت تلك الفترة جمهرة كبيرة من الأسرى المسلمين الذين كانوا يتحولون إلى عبيد يخدمون فى قصور الملوك وبيوت الأثرياء، ومنهم من كان يلتحق بالحرس الملكى جندياً يترقى فى سلك الضباط، ويبدو أن البابا أدرك أن هذا العبد يتمتع بقيمة علمية خاصة، فأعتقه وشمله بعطفه ورعايته، بل وقرر له معاشاً سخياً.

أغلب الظن أن الحسن الوزَّان الذى تلقى العلم فى جامع القرويين، وهو جامعة عريقة معروفة، وخدم سلطان فاس وتجول فى أرجاء أفريقيا وآسيا، يبدو أنه تعرض لـ «غسيل مخ» من نوع لا نعرفه، وإلا فكيف نجح البابا فى إقناعه باعتناق النصرانية، وأطلق عليه اسم «چيوڤانى ليونى» تيمنا باسم البابا الذى سبق أن أعتقه ورعاه وقرر له المعاش السخى؟!

وحسبما يتساءل مؤرخ الأندلس الكبير الراحل محمد عبد الله عنان فى كتابه «تراجم إسلامية» هل كان اعتناقه النصرانية أمراً تمليه بواعث المصلحة قبل كل شىء ؟ أم أنه قد أضحى بهذه الصورة نصرانياً مخلصاً؟ ويميل عنان للانحياز للرأى الأول.

على أى حال تحول الحسن بن الوزَّان إلى چيوڤانى ليونى أو ليون الأفريقى الذى خصص له الروائى اللابنانى الشهير أمين معلوف رواية ممتعة استلهمها من أحداث حياة الوزَّان وأطلق عليها اسم «ليون الأفريقى».. وفى روما اشتغل الوزَّان بالعلم، فدرس الإيطالية واللاتينية والإسبانية، وقام بتدريس اللغة العربية، بل وكان من بين تلاميذه الكاردينال المعروف آنذاك جيدو أنتونينى. وفى الوقت نفسه عاش وحيداً، فلم يتزوج، ولم

يعرف عنه أنه كان له صلة بالنساء، على الرغم من أن «الحياة المرحة» كانت شعار روما فى تلك الأيام!

اللافت للنظر هو حجم مؤلفاته الهائل فى تلك الفترة، حيث انتهى من أشهر المؤلفات الجغرافية الرصينة التى اعتمدت عليها أوروبا فى معرفة أفريقيا وهو «وصف أفريقيا» السابق الإشارة له، وقد كتبه بالعربية أولاً ثم ترجمه بنفسه للإيطالية، إلا أن ما وصلنا كان النسخة الإيطالية فقط، وقد ترجم بعد ذلك إلى عدة لغات أوروبية مثل الفرنسية والألمانية والإنجليزية والهولندية وغيرها.

ووصف أفريقيا كتاب ضخم يضم عدة مجلدات وينقسم إلى تسعة كتب. لا يتناول وصف أفريقيا الممالك والسلطان والأصول فقط، بل يعنى أيضًا وبدقة غير مسبوقة بالأقاليم واللغات والأمراض المتوطنة، إلى جانب أقاليم المغرب ومدنه وجامع مراكش وحوانيت الكتب تحت شرفات ذلك الجامع! كذلك يخصص أحد كتب مصنفه فى الحديث عن مملكة فاس وحواضرها. وهنا يتجلى الوزان – أو ليون الأفريقى كما أضحى فى ذلك الوقت – فهو يتحدث عن المكان الذى نشأ وترعرع فى كنفه، ويعرف دقائقه مثل ملابس أهل فاس وطعامهم وشرابهم وعاداتهم فى الزواج والحفلات والجنازات، ثم ينسى نفسه تمامًا وهو يصف جامع القرويين الذى تلقى العلم بين جنباته، وينتقل إلى حمامات فاس والمارستان والفنادق والأسواق والحدائق، وبهذه المناسبة يذكر أنه اشتغل سنتين موثقًا فى المارستان. كذلك يتناول ليون الأفريقى شعراء فاس ومزاراتها وأولياءها وصوفييها وزهدهم وتقشفهم.

بقية كتب المصنف الضخم تواصل وصفها بدقة لممالك بجاية وتونس وطرابلس. وهو لا يكتفى بوصف الحاضر فحسب، فمثلاً حين يتحدث عن طرابلس يبدأ منذ بناها الرومان ثم يواصل سرده ذاكرًا أن القوط استولوا عليها ثم المسلمون وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن محاصيل طرابلس وتجارتها وزراعتها ومساجدها وحكامها والمعارك التى خاضوها وقراها الصغيرة.

يتوقف ليون الأفريقى أو الحسن ابن الوزَّان كثيرًا عند مصر ويخصص لوصفها كتابًا

كاملاً فقد زارها مرتين متتاليتين تسحره القاهرة تحديداً بمتاجرها وشوارعها وأبوابها وعادات القاهريين قائلاً: «إنهم شعب ذو ميول مرحة باسمة تبشر بالكثير، ولكن تؤدى إلى القليل. وهم يزاولون التجارة والحرف الآلية، ولكنهم لا يغادرون أوطانهم، ومنهم الكثير من طلاب الفقه، ولكن قليل جداً من أهل الفنون الحرة والعلوم، وبالرغم من أن معاهدهم تكتظ دائماً بالطلبة، فإن القليل منهم يصل إلى الكمال».

ولا يفوت ليون الأفريقى أن يصف بدقة نساء القاهرة فيقول:

«أما النساء فيخرجن فى ثياب فاخرة ويزين جباههن بالقلائد، وأعناقهن بعقود اللؤلؤ، ويضعن على رؤوسهن «قلنسوة» وافرة الجمال والأناقة، ويبلغ ارتفاعها نحو شبر، ويرتدين أردية من الصوف بأكمام مزركشة مطرزة، وعليها أغطية من أفخر القماش الهندى، يسبلن على وجوههن خماراً أسود، ويلبسن نعالاً جميلة وأخفافاً تركية».

ويضيف: «وهؤلاء النسوة وافرات الطموح والكبرياء، حتى أنهن جميعاً يحتقرن أن يغزلن أو يقمن بأعمال المطبخ، من ثم فإن أزواجهن يرغمون على شراء الأطعمة الجاهزة من المطابخ، وقليل من الأسر الكبيرة تقوم بإعداد الطعام فى منازلها. وتتمتع نساء القاهرة بحُريات واسعة، وبينما يخرج الزوج إلى المقهى أو لشراء الطعام، إذا بالزوجة ترتدى أفخر ثيابها، وتتعطر بأزكى العطور، ثم تتجول فى المدينة لتروّح عن نفسها وتتحدث مع صاحباتها، وهن يمتطين الحمير أكثر من الخيل، تسير بهن فى راحة وهوادة».

تسنى لليون الأفريقى وهو فى روما التى تحتفظ مكتباتها بعشرات المراجع وبلغات تعلمها ليون أن يوثق معرفته المباشرة ومشاهداته أثناء رحلاته العديدة، وأن ينفقها وينقل عنها. أى أنه لم يرتجل أو يكتب ما يعنّ له كيفما اتفق، بل يعود لبطليموس وسالوست وليڤى وبن رشيق والإدريسى. وفى خاتمة مؤلفه الضخم كتب:

«تلك هى الأشياء الهامة الجديرة بالمعرفة التى شاهدتها ولاحظتها أنا يوحنا الأسد فى أفريقيا، وهى القطر الذى طفت فى سائر أنحائه، وكلما رأيت شيئًا جديراً بالملاحظة قيدته على الأثر. وأى الأشياء التى لم أرها بنفسى، فقد تلقيت معلوماتها من أشخاص ثقات جداً، كانوا شهود عيان لها، ومن ثم فإنه لما تيسرت الفرصة الملائمة، رأيت أن أدون

رحلاتى ودراساتى فى هذا المؤلف».

ومما له دلالة واضحة على ما كان يعانيه من قلق الفقرة الأخيرة فى مصنفه والتى كتبها بالعربية وبخطه: «فرغ من نسخ هذا الكتاب العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطى المدعو قبل الحسن ابن محمد الوزَّان الفاسى، فى أواخر يناير عام أربعة وعشرين لتاريخ المسيحيين، الموافق لعام ثلاثين وتسعمائة لتاريخ المسلمين، وذلك بمدينة بلونيا من بلاد إيطاليا برسم المعلم الحكيم الطبيب الماهر يعقوب ابن شمعون الوفى الإسرائيلى، حفظ الله نعمته آمين».

إلى جانب كل هذا ألف كتابًا جمع ما قرأه على شواهد قبور منطقة الشلة من المنثور والمنظوم، وألف كتابًا آخر فى الفقه وثالثًا فى الشريعة ورابعًا فى النحو.. إلا أن تلك الكتب لم تصلنا للأسف، فضلاً عن رسالة باللاتينية فى تراجم الأطباء العرب.

لم تتوقف فصول حكاية ليون الأفريقى عند هذا الحد، والمفاجأة الحقيقية هى نهايته، وهناك روايات عديدة تشير إلى أنه فى نهاية حياته وبعد أن فرغ من كتاباته السابقة، قرر العودة ليس إلى وطنه السابق فقط، بل إلى دينه أيضًا، واستمر على الإسلام حتى موته فى الأرض التى شهدت طفولته وشبابه.

تلك هى مسيرة حياة الحسن ابن الوزَّان الفاسى الغرناطى، أو چيوڤانى ليون الأفريقى، ثم الحسن ابن الوزان مرة أخيرة قبل رحيله.. فهل كان كرادلة روما قد نجحوا فى إجراء عملية غسيل مخ له امتدت لنحو ثلاثين عامًا أنجز خلالها أعمالاً خلدت اسمه كمستكشف ورحالة؟ وما هو السبب الذى جعله يختار فى آخر حياته أن يعود إلى الوطن وإلى الإسلام؟..

أخرجوا جثته من القبر وأشعلوا فيها النار

على مر التاريخ ظلت العلاقة بين المثقف والسلطة ملتبسة على الدوام، فالسلطة تحتاج للمثقف فى الطنطنة والدعاية والإعلام والتبرير واكتساب الشرعية وإلهاء الناس، بينما يحتاجها المثقف من أجل أهداف مختلفة، من أجل كفالة حرية التعبير وتوفير الظروف للخلق والإبداع ورفع يدها عن كل ما يخنق ويحد من الحرية التى هى الشرط الوحيد للازدهار والإنجاز الحضارى للأمة بكاملها.

وفى عالمنا العربى تتجلى وتتجسد هذه الحقيقة بكل قوة، ليس فقط فى تاريخنا القريب، بل على مر التاريخ، ليفتح القارئ أى صفحة من صفحات التاريخ ليفاجأ بهذه الحقيقة، بل إن تاريخ الفكر العربى يكاد يكون هو تاريخ الصراع بين السلطة والمثقف.

تاريخنا فى الأندلس – على سبيل المثال – يؤكد هذه الحقيقة، بل إن سبب انتصار العرب فى الأندلس ونجاحهم فى إقامة حكم مزدهر امتد من ٧١١م حتى ١٤٩٢م هو الحرية غير المسبوقة فى العلم والفكر، والانفتاح على كل الاتجاهات والأفكار والاستفادة من كل التيارات، ولذلك أنجبت الأندلس عشرات القامات الكبرى فى كل أنواع المعارف من الفلسفة إلى التاريخ إلى الفقه إلى الشعر.

وعندما غربت شمسنا – شمس العرب فى الأندلس– غربت معها شمس الحرية، ووصل هذا الغروب إلى حد قتل الكتاب والعلماء، نعم.. قتل الكتاب مثلما جرى مع المؤرخ والشاعر والكاتب لسان الدين ابن الخطيب، الذى كان، علاوة على ما سبق، وزيراً وقريباً من سدة الحكم لسنوات طويلة.

كان العصر الذى عاش فيه الخطيب هو عصر الغروب، فقد كانت غرناطة التى ولد وعاش وتعلم وتقلد المناصب فيها هى آخر معاقل العرب فى الأندلس بعد أن فتح فرديناند الثالث ملك قشتالة وجايم الأول ملك أرجوان أهم المدن مثل إشبيلية وقرطبة ومرسية وبلنسية، فيما عرف بالاسترداد بين عامى ١٢٣٨ – ١٢٦٠م.

ولد لسان الدين ابن الخطيب عام ١٣١٣ وشهد وعاين واكتوى بنار هذا الغروب فى آخر المدن العربية فى الأندلس. وفى عهد السلطان محمد الخامس وصل بسبب علمه وتفوقه ومؤلفاته إلى منصب يشبه رئيس الوزراء فى عصرنا، خصوصًا أنه جمع بين السيف والقلم، فقد كان سياسيًا ورجل دولة ومشرفًا على الكتابة وديوان الإنشاء فى القصر.. كما كان فى الوقت نفسه مفكراً وكاتبًا وشاعراً، حسبما وصف هو نفسه فى سيرته الذاتية:

«قلدنى السلطان سره ولم يستكمل الشباب ويجتمع السن، معززًا بالقيادة ورسوم الوزارة واستعملنى فى السفارة إلى الملوك واستنبنى بدار ملكه، ورمى إلى يدى بخاتمه وسيفه وائتمننى على صوان حضرته وبيت ماله وسجوف حرمه ومعقل اقتناعه».

أما أعماله التى كلفه بها السلطان محمد الخامس فهى:

«الوقوف بين يدى السلطان فى المجالس العامة وإيصال الدفاع وفصل الأمر، والتنفيذ للحكم، والترديد بينه وبين الناس، والعرض والإنشاد والمواكلة والمجالسة، جامعًا بين خدمة العلم ولقب الوزارة. منفرداً بسر السلطان. وبلغت الحظوة منتهاها، والدرجة التى تؤمل بأبواب الملوك إلى الآماد أقصاها، إلى أن وقع الكياد على الدولة، ولما هلك السلطان – يعنى أبا الحجاج – ضاعف ولده حظوتى، وأعلى مجلسى وقصر المشورة على نصحى، إلى أن كانت عليه الكائنة فاقتدى فىّ أخوه المتغلب على الأمر به، فسجل الاختصاص وعقد القلادة، ثم حمله أهل الشحناء من أعوان ثورته على القبض علىّ ونكث ما أبرم من أمانى».

شهد ابن الخطيب إذن، كما يقرر، الانقلاب الذى فقد خلاله السلطان محمد الخامس عرشه عام ١٣٥٩م، وجرى نفيه إلى المغرب، واعتقل الخطيب وصودر كل ما كان يملكه بلا استثناء وطرد أهله من قصره، إلا أن الحاكم الجديد سمح له بالخروج (وهو إفراج مشروط بالخروج من البلاد). وهو ما جرى بالفعل، بأن يصحب أهله وأولاده إلى المغرب ليلحق بسلطانه المخلوع هناك.

فى تلك الأثناء كان ابن الخطيب قد ملأ الدنيا كتابة: فى الشعر والتاريخ والسيرة الذاتية والتراجم، فكان الأفضل له وللثقافة العربية أن ينقطع للتأليف ويواصل مسيرته الحافلة، لكنه بعد نفى استمر ثلاث سنوات جرت أحداث جديدة وعاد السلطان إلى عرشه فى غرناطة مرة أخرى، وطلب من لسان الدين أن يلحق به.

ويشير مصطفى نبيل فى كتابه «سير ذاتية عربية» إلى أنه بعد عودة ابن الخطيب وتوليه الوزارة مرة أخرى تضاعفت ثقة السلطان فيه فكانت ولايته مطلقة وبدأت مرحلة جديدة فى حياته، كان عليه خلالها أن ينجز الكثير والكثير من الأعمال والمهام، فغرناطة التى عاد إليها كانت تحتاج إلى عناية وترميم وتنظيم بعدما جرى من أحداث وخطوب خلال السنوات الثلاث التى خُلع خلالها السلطان محمد.

كتب ابن الخطيب يصف هذه الفترة من حياته بأنه كان «مراعيًا ربه، حذرًا من النقد»، واهتم بترميم الثغور فى غرناطة «وتثمير الجباية وإنصاف الحماة، ومقارعة الملوك المجاورة، وإصلاح بواطنه الخاصة والعامة، واستعنت بالله وعاملت وجهه».

ومع ذلك لم ينج من مؤامرات ودسائس المحيطين، وبسبب قربه الشديد من السلطان وحظوته لديه توالت المؤامرات من العلماء ورجال الدولة، بل إن علاقته بصديقه القريب المؤرخ ومؤسس علم الاجتماع فى العالم عبد الرحمن ابن خلدون شهدت بدايات التدهور للمرة الأولى، كانت علاقتهما قد توثقت من قبل أثناء نفى ابن الخطيب إلى فاس، وكان ابن خلدون أثناء ذلك أحد كبار رجال الدولة، فوقف إلى جانب صديقه وساعده وأكرمه كما يليق بصديقين جمع بينهما اشتراكهما فى الكتابة والتأليف.

وبعد عودة ابن الخطيب من منفاه واستعادته لنفوذه وحظوته فى بلاط غرناطة تعرض

ابن خلدون فى فاس لمحنة تشبه محنة ابن الخطيب، فقد وشى به البعض لدى سلطان فاس، فتغير قلب الأخير عليه، واضطر لمغادرة البلاد متوجهًا للأندلس، حيث استقبله ابن الخطيب واحتفى به وقدمه لسلطان غرناطة الذى استقبله بدوره، وسعى ابن الخطيب ليكلفه السلطان بمهام رسمية فى القصر، وبدأت الدنيا تبتسم لابن خلدون!.

وما لبث الأخير أن أحس بانقباض السلطان عليه وتغير الحال، وهنا كتب ابن خلدون فى سيرته الذاتية: «ثم لم يلبث الأعداء وأهل السعايا أن خيلوا للوزير لملابستى، واستمالوه على وحركوا له جواد الغيرة فتنكر، وشممت فيه رائحة الانقباض ولم يبق محل لإطالة الإقامة ولا مناص من الرحيل»..

وهكذا .. وصل الأمر إلى أن ظن صديقه أن الغيرة تملكته، بينما الحقيقة أن المؤامرات كانت تزداد ولم يكن قادرًا على مواجهتها خصوصًا أن مدبرها كان قائد الجيش عثمان ابن أبى يحيى الذى لعب دورًا مهمًا فى استرداد السلطان لعرشه وعودته إلى غرناطة.

مرة أخرى اضطر للذهاب إلى المغرب، فقد زهد فى منصبه الذى كان مطمعًا لمنافسيه وخصومه.. كتب ابن الخطيب:

«وثاب لى النظر بإزماع الفرار، ومصانعة السلطان، بالتأنى له، والانحطاط فى هواه، وشرعت فى عقد السلم مع العدو لسنين، ورتبت الأمر ترتيب الأب للابنين، وقلت أحج عن نفسى وأقضى فرضى، وأشغل الناس بغيرى، فاقتضيت من المولى ابن فارس عبد العزيز – سلطان المغرب – وقد اتصل بى فضل دولته وطهارة نشأته، عهدا بخطه، ضمن لى المشاركة حتى إعراضى من إقامة».

وبعد أن حصل على هذا الوعد الذى يشير إليه من سلطان المغرب، خرج من غرناطة متجهًا إلى الجنوب وكأنه فى عمله المعتاد يتفقد الثغور، وعبر إلى جبل طارق الذى كان يتبع سلطان المغرب، ومن جبل طارق انتقل إلى سبتة حيث استقبله السلطان بحفاوة وقربه منه، لكن ابن الخطيب مع ذلك يكتب:

«فارقت الأهل والولد والمال، والجاه الذى بلغ الأبد، لدنيا فانية.. ولا لخدمة نستأنفها عوضًا. ولا لفرار أمام جناية، ولا لفتكة فى مال جباية، ولا لتفويت معقل لعدو الملة، ولا لسفك دم

يطلابنى تتبعه، ولا لخيانة فى أهل، ولا لسعى على ملك، نبرأ إلى الله من ذلك كله. إنما تلخص قصدى فى الفرار إلى الراحة، والتفادى من حملة الكلفة، والاشتغال بما يعنى، لكن فى ظل العافية، وتحت سحاب النعمة، وذمة الحرمة، نسأل الرقيب على ما فى القلوب، إن كنت قد شابتنى فى ذلك شائبة، ألا يمتعنى بالبقية ولا يمن على بحسن الخاتمة»؟

لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، بل ازدادت المؤامرات اشتعالا، وعقد مجلس حضرة السلطان لمحاكمته، ولم تكن هناك تهمة أسهل من أنه زنديق ومارق عن الدين وخارج عن أصول الشريعة، مستندين إلى كتاب فى التصوف وهو «روضة التعريف بالحب الشريف».

من جانب آخر، لم يكن ظفر خصومه به سهلاً، فعقب هروبه مباشرة اتهم بالزندقة والكفر وحكم عليه بالموت، وأرسل قاضى غرناطة رسالة إلى سلطان فاس بحكم الموت، لكن الأخير رد قائلاً:

«لماذا إذا كان زنديقًا لم تنفذوا فيه الحكم وقد كان لديكم وأنتم عالمون بما كان عليه؟!».

ثم أرسل سلطان غرناطة هدية ثمينة تضم نفائس أندلسية من الجواهر والأمتعة والجوارى من أجل تسليم ابن الخطيب لسلطان المغرب، غير أن الأخير أصر على رفضه، وهنا توافرت الفرصة الثمينة التى كان ينتظرها وهى الانقطاع إلى البحث والتأليف بلا منغصات أو قلق. لكن هذا لم يستمر طويلا، وكما كتب ابن الخطيب نفسه: «ثم دك الجبل العاصم من الطوفان والممسك للأرض من الرجفان، فكان موت المولى الذى أوينا إليه، ونزلنا عليه، ووثقنا بعهده».

وهكذا مات السلطان عبد العزيز سلطان المغرب، وشعر ابن الخطيب أن نهايته قد اقتربت، وتأكد له ذلك بعد فترة قصيرة، حين ساعد سلطان غرناطة السلطان الجديد أبو العباس على اعتلاء عرش المغرب خلفا للسلطان عبد العزيز، فالسلطان الجديد يدين بعرشه تقريبًا لسلطان غرناطة الذى يتلمظ على رأس ابن الخطيب منتظراً سقوطه فى شباكه، وبحث السلطان الجديد أبو العباس عن طريقة مختلفة للإيقاع بابن الخطيب، واهتدى إلى أن الأفضل ألاَّ يسلمه على الفور لسلطان غرناطة، وأمر بعقد مجلس لمحاكمة ابن الخطيب على التهم المنسوبة إليه بالزندقة والكفر، ليتحمل هذا المجلس المسئولية. فى تلك الفترة لم

يكن صعبا على أبى العباس أن يجد علماء وقضاة فاسدين يأتمرون بأمره ويأكلون لحم ابن الخطيب حيًا.

انعقد مجلس المحاكمة، وجيء بابن الخطيب مصفدا بالأغلال من سجنه، ورددوا على مسامعه التهم ذاتها التى سبق لغرناطة أن وجهتها له بالكفر والزندقة.

وهنا أعود إلى العلامة الراحل عبد الله عنان مؤرخ الأندلس الكبير ومحقق كتاب «الإحاطة فى أخبار غرناطة» لابن الخطيب والذى كتب معلقًا على زعم غرناطة بكفره وزندقته:

«حاولنا العثور على شىء فى ذكر يصلح سنداً للاتهام، ولم نجد شيئًا من ذلك، بل على العكس، رأينا روضة يانعة حافلة بمزيج رائع من الآراء والنظريات التى تشع بالإيمان والخشوع، وتشهد لصاحبها بسلامة العقيدة، وصدق الطوية والبعد التام عن كل ما يمكن أن يوسم صاحبها بالخروج أو الإلحاد».

والحقيقة أن كل الدلائل تؤكد أن الاتهامات التى وجهت إلى ابن الخطيب عارية تمامًا من الصدق، وكل ما فى الأمر أن سلطان غرناطة أراد أن يعاقبه على فراره من القصر وهروبه إلى المغرب، بينما كان فرار ابن الخطيب مقصوداً به الهروب من جو المؤامرات الصغيرة والدس والوقيعة، للانقطاع للتأليف والكتابة.

على أى حال، كان الفقهاء والعلماء الفاسدون قد قاموا بإحراق كل كتبه ومؤلفاته فى أحد ميادين غرناطة، فى مشهد بائس يدين غرناطة وسلطانها على مدى الدهر، ويرفع من قامة ابن الخطيب على مدى التاريخ.

الأكثر بؤسًا من كل ما سبق هو ما جرى بعد محاكمة ابن الخطيب وإعادته إلى السجن، حيث لم ينتظر المجرمون أكثر من ذلك وأوعزوا إلى الغوغاء والعامة بقيادة عدد من حاشية بلاط غرناطة، بالهجوم على السجن وقتل ابن الخطيب خنقًا، ثم عادوا فى اليوم التالى بعد دفنه وأخرجوا الجثة من القبر وأشعلوا النار فيها!!.

ليست هناك وحشية وهمجية أكثر من ذلك، لكن التاريخ لا يكذب، واحتفظ لنا بصورة ابن الخطيب نقية لا تشوبها شائبة، واحتفظ أيضًا بأعماله ومؤلفاته، بينما لا أحد يتذكر سلطان غرناطة إلا مقرونًا بالإدانة واللعنة!.

ثورة الموريسكيين

كانت غرناطة هى آخر الولايات الإسلامية التى سقطت فى الأندلس عام ١٤٩٢م، وبعدها انطوت صفحة باهرة من ازدهار الثقافة الإسلامية، لكن هناك صفحات أخرى ظلت مفتوحة تنتظر من يستكملها أو يطويها، وهى تحديداً صفحات الموريسكيين، نتاج الاندماج والتعايش على مدى ثمانية قرون بين قبائل المسلمين والبربر الذين انتقلوا إلى إسبانيا مع الفتح العربى، وبين الإسبان الأصليين. ولأن ثمانية قرون ليست فترة يمكن أن تمّر بسهولة، فإن النتيجة كانت اندماجًا حقيقيًا بين الجانبين، سواء من خلال الزواج والمصاهرة أو الآداب والفنون والعلوم .. إلخ .

أما الموريسكيون فهم المسلمون الذين بقوا فى إسبانيا بعد سقوط آخر الولايات الإسلامية، وعندما أجبروا على اعتناق المسيحية، ظلوا على دينهم فى السر يمارسون شعائرهم وعباداتهم ويتعرضون للاضطهاد ومحاكم التفتيش والتمييز العرقى والعنصرى لعدة قرون بعد القوط.

وإذا كانت إسبانيا الأندلسية قد حظيت بدراسات عديدة ومتنوعة حافلة بالثراء المعلوماتى والنظرى، فإن الموريسكيين لم يُلتفت إليهم إلا أخيراً، وللحقيقة فإن هذا الالتفات جاء من جانب المؤرخين الإسبان، ومن بينهم خوليوكارد باروخا الذى ترجم له جمال عبد

الرحمن كتاب مسلمو مملكة غرناطة بعد عام ١٤٩٢م، وصدر فى سلسلة المشروع القومى للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة بمصر.

ولاية أو مملكة غرناطة سقطت شأن أغلب الممالك الإسلامية فى الأندلس أساسًا بسبب التناحر الداخلى والحروب المتوالية بين هذه الممالك وبعضها البعض. فمثلاً، وفى حالة غرناطة كان الملك أبو الحسن قد وقع فى غرام أسيرة جميلة، وكره زوجته وأبناءه، وتجمع حوله قسم من النبلاء والجنود، بينما الملكة الأم و ابنها أبو عبد الله يحيط بهم أنصارهم أيضًا، وما لبثت الحرب أن اندلعت بينهما، وهو الأمر الذى استفاد منه جيدًا الملك فيرناندو الكاثوليكى الواقف بجيشه قريبًا جدًا!

وأخيرًا سقطت غرناطة حيث استسلمت فى نوفمبر ١٤٩١، ووقِّعت بين الملك الصغير أبى عبد الله والمنتصرين اتفاقية حول مصير الملك وممتلكاته. وحسبما يشير باروخا فإن نصوص الاتفاقية ذاتها لا غبار عليها، حيث لم تكن تتضمن تغيير تراث المهزومين أو عاداتهم أو قضاتهم، كما أن ممتلكاتهم وفقًا للمعاهدة مصونة، إلا أن هذه الاتفاقية لم تنفذ وسرعان ما انتهكها الإسبان.

فى البداية نال الوجهاء والرؤساء والنبلاء نصيبهم من «البيوت والمتاع والرعايا»، وفتحت مقاطعات بكاملها لرجال الملك وللكنائس والأديرة، وهو ما عبر عنه باروخا بالقول: «تحمل الشعب المسلم المسكين وطأة حكم سادة جدد يرغبون فى الثراء ولا يثنيهم عن ذلك وازع أخلاقى أو دينى كان المسلم بمثابة عبد وكان وضعه بالنسبة للنبيل أو السيد كوضع الهندى الأحمر بالنسبة للغزاة الأوائل».

لذلك فر الكثيرون من مهانة العبودية وتخلصوا من ممتلكاتهم بأبخس الأثمان وهاجروا إلى مدن وقرى فى غرب وشمال أفريقيا، ثم حدث التطور الأكبر بعد ذلك عام ١٤٩٨ حين قسمت المدينة إلى شطرين: واحد للمسيحيين والثانى للمسلمين، وفى الوقت نفسه بدأ تطبيق سياسة تنصير المسلمين، ليس فقط بسبب الوازع الدينى، بل أساسًا لتحقيق هدف سياسى.

واستمر ذلك الوضع بل وتفاقم حتى عام ١٥٢٦ حين صدر قرار بإلغاء شعائر الإسلام فى مملكتى أراجون وقالنسيا، إلا أن بعض المسئولين ذوى الأصول المسلمة قدموا للملك

مذكرة حول سوء المعاملة التى يتعرض لها الموريسكيون، وشكل الملك لجنة لبحث الوضع وصدرت عنها قرارات وقوانين قننت الظلم والاضطهاد القائم فعلاً حيث حظر على الموريسكيين استعمال اللغة العربية والملابس والحمامات، إلى جانب حظر إقامة الاحتفالات وإغلاق أبواب بيوت الموريسكيين، وألاَّ يخضبوا أرجلهم وأيديهم بالحناء (وألاَّ تخضب النساء رؤوسهن بالحناء)، وكذلك تنص القوانين على ضرورة ذهابهم للكنيسة لسماع الوعظ... إلا أن تطبيق هذه القوانين تطلب التأجيل بعض الوقت لحاجة الملك كارلوس الأول إلى أموال طائلة تساعده فى حروبه، وعرض الموريسكيون عليه ٨٠ ألف أوقية من الذهب، فأمر بالإبقاء على الوضع الراهن!

وعلى الرغم من كل ذلك، فإن إحصاءات عام ١٥٦٨ تشير إلى أن عدد الموريسكيين قد بلغ نحو ٣٠٠ ألف غرناطى تعرضوا للتعميد قسرًا بينما يخفون ممارستهم للشعائر الإسلامية، واضطروا مثلاً للادعاء بأنهم يولدون مختونين، حتى لا يتركوا أولادهم بلا ختان، بل إنهم عندما كانوا يتزوجون، يذهبون إلى الكنيسة والعروس ترتدى ملابس مسيحية، وعندما تعود إلى بيتها كانت تخلع تلك الملابس وترتدى ملابس إسلامية، ويقام احتفال الزواج على الطريقة الموريسكية وتقدم أكلات موريسكية، أما الفقهاء فكانوا يمارسون عملهم سرًا.

وعندما انتهت الحاجة لأموال أغنياء الموريسكيين، بدأ على الفور تطبيق صارم للقوانين التى كانت لجنة الملك كارلوس الأول قد أصدرتها. فعلى سبيل المثال جرى حظر التحدث والقراءة والكتابة باللغة العربية خلال ثلاث سنوات، وألغيت كافة العقود التى كانت تحرر بالعربية، وأن تقدم الكتب العربية إلى رئيس محكمة غرناطة، ويُعاد لأصحابها ما يوافق عليه رئيس المحكمة، بينما يتم التخلص من البقية، وكذلك أن يرتدى الموريسكيون ملابس قشتالية، وأن تسير الموريسكيات فى الشارع ووجوهن مكشوفة، وألاَّ يستحموا فى الحمامات وتهدم الحمامات الموجودة وألاَّ يوقروا يوم الجمعة!

كتب باروخا تلك الكلمات البالغة التأثير: «كانت هناك رغبة فى القضاء بشكلٍ تام على نمط اجتماعى بأكمله، على ثقافة بأكملها. كانت الرغبة فى ذلك واضحة، ولم يكن هناك

شىء يقف أمامها إلا الحرب»، وهكذا اندلعت ثورة الموريسكيين، وفى سبتمبر ١٥٦٨ تم تنصيب إيرناندو دى بالور ملكًا باعتباره ينحدر من نسل خلفاء قرطبة وسمى ابن أمية!

كانت الثورة انفجارًا لوضع لم يعد محتملاً، فقد كان الاضطهاد والتمييز والإهانة والظلم قد بلغوا نقطة الانفجار، وعندما اندلعت الثورة، بدت وكأنها الرد العملى الوحيد على ما كان يجرى، فقد تم قتل كثير من القساوسة، وأحرقت الكنائس ونهبت بل وشرع الثوار فى تحويل الأسرى النصارى إلى مسلمين.

إلا أن الثورة لم تستمر طويلاً، فقد انطلقت الحملات العسكرية التى أرسلها الملك، وهى حملات كانت أكثر وحشية من كل الحملات السابقة وحسبما وصف المؤلف، فإن نصف عدد قوات إحدى الحملات كانوا «أكبر لصوص فى العالم» ويضيف «كانوا يسرقون حتى القطط والحلل وأحواض العجين والمغازل وطاسات الشواء» من بيوت الموريسكيين، ورسخ هذا الوضع قرار الملك فليبى الثانى الصادر فى أكتوبر عام ١٥٦٩ الذى يسمح لأى جندى مسيحى بالاستيلاء على الأثاث والنقود والجواهر والماشية دون أن يدفع الخمس.

وهكذا تنوعت الغنائم من المحاصيل القابلة للتخزين مثل الحبوب والزبيب والتين، ومن الماشية والحرير والذهب واللؤلؤ، أما عدد الرجال والنساء والأطفال الموريسكيين الذين أسرهم الجنود المسيحيون فكان هائلاً، وقد بيع بعضهم نقدًا كعبيد ومات بعضهم الآخر فى الأسر، والبعض الثالث مات فى المذابح التى أقامها الجنود المسيحيون.

وفى نهاية الأمر صدر أكثر القرارت وحشية وهو طرد المسلمين من مملكة غرناطة وترحيلهم إلى قرطبة وإشبيلية وفى كل قرية كانوا يودعون داخل إحدى الكنائس، أو داخل مبنى كبير، ثم يتم إخراجهم وتوجيههم فى مجموعات. وفى القرى التى يصلون إليها كان يتم تسجيلهم فور وصولهم مع ذكر بيانات صفاتهم الجسدية، وكذلك تسجيل مواليدهم ووفياتهم، وخروجهم ودخولهم، وأن يتم منحهم تصاريح مؤقتة حتى يستمروا فى ممارسة أعمالهم وتجارتهم، إلى جانب حظر ألا يعيشوا فى أحياء مستقلة.

وهنا أود أن يتذكر القارئ أن الموريسكيين هم أولاً إسبان مختلطون بالعرب وجذورهم ووجودهم وحياتهم داخل إسبانيا، وثانيًا هم من تم تنصيرهم قسرًا وإن كانوا فى الظاهر

يعتبرون مسيحيين، لذلك فإن التنكيل بهم على هذا النحو وتوزيعهم فرادى متناثرين بعيداً عن أرضهم مع منعهم من التنقل كان أمراً وحشياً أى أنهم اقتلعوا اقتلاعاً من أرضهم، وفى الأماكن التى أجبروا على الانتقال إليها لم يسمح لهم بحيازة محال أو العمل كخبازين أو تجار فى المواد الغذائية تحديداً ويعملون فى الزراعة فقط.

من جانب آخر يؤكد المؤلف أن هناك قسماً لا يستهان به من الموريسكيين فر هارباً إلى تطوان وفاس والرباط واستقر هناك، كما جرى خلل فظيع فى التركيب السكانى. فمثلاً فى منطقة البشرات التى انطلقت منها شرارة الثورة تم توطين مسيحيين بدلاً منهم، ومن بين ٤٨ ألف موريسكى لم يبق أحد مطلقاً!

ومع ذلك فإن أحد الرحالة الإنجليز الذى زار غرناطة عام ١٧٢٦ يذكر أنه تمت محاكمة ٣٦٠ أسرة من غرناطة بتهمة ممارسة الشعائر الإسلامية سراً من جانب محاكم التفتيش. وفى بداية القرن التاسع عشر ورغم كل ما سبق ذكره من إعادة التوطين كانت هناك أسر فى البشرات – معقل الثورة الأول– معروف أن أصلها موريسكى.

وفى مايو ١٧٢٨ عوقب ٤٦ شخصاً لممارستهم الشعائر الإسلامية بعقوبات متنوعة، لكن اللافت للنظر أن من بينهم ١١ رجلاً من العاملين فى صناعة الحرير وتجارته وموظفين عموميين من ذوى المكانة فى المجتمع، وطبقًا لمحاضر المحاكمة فإن هؤلاء المتهمين ولدوا فى غرناطة بين عامى ١٥٦٨ و ١٧٠٠، أى أنهم استمرار لأجيال عديدة سابقة منذ سقوط غرناطة عام ١٤٩٢. واللافت للنظر أيضًا أن من بينهم نساءً. هناك مثلاً سبع أخوات من عائلة واحدة، وأربع أخوات من عائلة أخرى. أما أعمالهن فكان بعضهن ربَّات بيوت، والبعض الآخر خياطات وصباغات وبائعات مواد عطارة أو خردوات ..

وأخيراً يجب الإشارة إلى أن شهادة المؤلف الذى عكف على مصادر مسكوت عنها عادة لأسباب غير خافية، شهادة لباحث ومؤرخ إسبانى كبير لا يهمه سوى الحقيقة، لذلك لا يكتفى بالتأسى على ما لحق بمواطنيه الموريسكيين لمجرد أن أصولهم إسلامية من تنكيل واضطهاد، بل أيضًا يؤكد على أنهم تعرضوا لحرب إبادة على النحو الذى تعرض له الهنود الحمر عندما وصلت الجيوش الملكية الإسبانية أرض أمريكا فى الفترة نفسها تقريباً!!

الخروج إلى الأبد

فى ١٨ نوفمبر عام ١٤٩١م تم توقيع اتفاقية غرناطة ليخرج العرب المسلمون من الأندلس إلى الأبد بعد قرابة ثمانية قرون من الامتزاج والتعايش والاختلاط بين الثقافتين العربية والإسبانية. وعلى مدى ١٢٣ عامًا بعد الخروج وسقوط دولة الإسلام وتسليم البلاد إلى الملك فيرناندو الكاثوليكى، جرت عمليات تنصير إجبارى للمسلمين، وكافح الأخيرون من أجل الحفاظ على دينهم، وبالتالى هويتهم، وعانى الموريسكيون وهم المسلمون الإسبان الأهوال فى هذا السياق، فقد كانوا نتاج عملية طويلة استمرت عدة قرون من الاختلاط والامتزاج العرقى والثقافى والاجتماعى دخل خلالها كثير من الإسبان فى الإسلام، وبعد سقوط دولة الإسلام فى الأندلس نزح العرب فى واحدٍ من أكثر الاحداث إهانة وهوانًا على سفن عبرت بهم الشاطئ بعد هزيمتهم المروعة، بينما بقى الموريسكيون فهم إسبان حتى لو كانوا مسلمين، وأين يذهبون ؟!

ومنذ سنوات قليلة ترجم كتاب «الموريسكيون الأندلسيون» للمؤرخة والباحثة الإسبانية مرثيديس غارثيا أرينال فى سلسلة المشروع القومى للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة فى مصر. وأخيرًا صدر فى ذات السلسلة وللمؤلفة نفسها- ترجمة خالد عباس لكتاب «محاكم التفتيش والموريسكيون»..

فى كتابها الأول اعتمدت الباحثة (تعمل أستاذة بالمجلس الأعلى للبحث العلمى بإسبانيا ورئيسة قسم الدراسات العربية له لعدة دورات، ومن أبرز المتخصصين فى مجال الدراسات الموريسكية) على نقل صفحات ومقتطفات من مواد تاريخية ومعاهدات ووقائع مختلفة بنصها من مصادرها والتعليق عليها لتقديم صورة شاملة وعريضة لواحد من أكثر الأحداث مأساوية فى تاريخ العصور الوسطى.

بينما فى كتابها الأخير «محاكم التفتيش والموريسكيون» تناولت أيضًا ما جرى للموريسكيين أنفسهم بعد أن تعرضوا للقمع الوحشى من جانب محاكم التفتيش، ولابد أولاً قبل أن نقلب فى صفحات الكتاب، أن أشير إلى أن المؤلفة إسبانية ومتخصصة فى حقل الدراسات الموريسكية، لذلك لا يمكن اتهامها بالانحياز، وعملها العلمى الممتاز لا يخضع إلا للعلم وللوثائق الثابتة التى عكفت على دراستها لمحاضر محاكم التفتيش التى ماتزال محفوظة حتى الآن، وقد بلغ عددها نحو ٥٠٠ محضر فى نطاق سلطة محكمة «كونيكا» التابعة لرهبانية «سانتياجو».

على أى حال، يمكن تصور حجم الاضطهاد الذى وقع على الموريسكيين بعد سقوط الأندلس، كما يمكن أيضًا تصور محاولات تنصيرهم من جانب الكنيسة الكاثوليكية المعروفة بتعصبها المقيت فى ذلك الوقت، كما يمكن أيضًا تصور تدنى وضعهم الاجتماعى واضطرارهم للاشتغال بالأعمال الوضيعة، فأغلبهم – حسب الوثيقة التى أوردتها المؤلفة – يعملون «حفارة وحصادين وبستانيين وناقلين لبضائع سواء على الأقدام أو على البغال، وحدادين وذوى مهن وحرف أخرى، وهم مستعدون لأكل أى نوع من الطعام مهمًا كان سيئًا، وينفقون قليلاً، وعندما لا يكون هناك خمر نقدمه إليهم فإننا بذلك نسدى إليهم معروفًا»، وتضيف مرثيديس غارثيا ارينال معلقة على الوثيقة أن هؤلاء الموريسكيين «شكلوا طبقة اجتماعية أحط درجة من الفلاحين ومن الطبقة الريفية الكادحة، ولا يوجد بين الوثائق ما يعزز وجود أو إمكانية وجود طبقة متوسطة ولا حتى أرستقراطية أو جماعة قيادية داخل نفس الأقلية الموريسكية. فى الواقع هم عبارة عن جماعة بدون قيادة، ومجردة من كل إمكانيات التنمية أو الارتقاء الاجتماعى».

أما وثائق ومحاضر محكمة التفتيش فى دار المحفوظات الأسقفية فى كونيكا فتشير إلى أنه بين عامى ١٥٧٥ و ١٥٨٣م حقق مع ١٦ موريسكيا بينهم ٦ نساء، حكم عليهم جميعا بمصادرة ممتلكاتهم، وعلى ثلاثة منهم بالإعدام، مع الأخذ فى الاعتبار أن خزانة محفوظات محاكم التفتيش قد تم تخريبها عام ١٨٠٨، وبالتالى فإن العدد يمكن أن يكون أضعاف العدد المذكور، حيث فقدت أغلب الوثائق، إلا أنه يمكن الاستدلال على ما جرى من خلال هذه النماذج الباقية من المحاضر.

من جانب آخر، فإن السياسة التى اتبعتها السلطة الملكية هى تشتيت وتوزيع الموريسكيين لمنع تمركزهم فى مناطق محددة، مع ذلك فإن الوثائق المشار إليها تكشف عن أنه تمت المحافظة على بنية الحياة الدينية فى جنبات البيوت الإسلامية السرية، والتى لعبت المرأة فيها دورًا مهمًا بوصفها محافظة على العادات والتقاليد والشعائر وكناقلة للتعاليم. فمثلاً من بين ٩٥ متهمًا فى منطقة «اركوسى» وردت أسماء ٤٠ امرأة، ومن بين ٩٣ متهمًا فى منطقة «ديثا» هناك أسماء ٥٣ امرأة، ومن بين ١٢ متهمًا فى «سكامبو دى لكريتبانا» هناك ٨ نساء ..

وهكذا لعبت النساء دورًا مهمًا حوَّل الإسلام إلى نظام محمى ومحفوظ فى قلوب العائلات الموريسكية التى عاقبتها محاكم التفتيش، وفى الوقت نفسه تكشف محاضر تلك المحاكم عن أن هذه العائلات كانت تتزاوج فيما بينها، وهو الأمر الذى أسهم فى الحفاظ عليها وعدم اختراقها.

وبسبب الاضطهاد المستمر ومعاملة الموريسكيين المهينة ، اضطروا للخضوع علنيًا لسلطة الكنيسة ومحاكم التفتيش وتنصروا، بينما ظلوا فى أعماقهم مسلمين. لذلك تعرفهم المحكمة فى محاضرها مثلاً باعتبارهم «مسيحيين جدد من أصل مسلم» أو «مسيحى جديد موريسكى».

وتبدأ محكمة التفتيش عادة، من خلال بلاغ يتقدم به شخص ما لأسباب مختلفة ومجرد اتهام أحد الاشخاص لعائلة موريسكية يعنى أن الاصدقاء والجيران فضلاً عن العائلة سيتعرضون للاتهام نفسه.

وفى أعقاب البلاغ يجرى بحث القضية، والأمر بالقبض على المتهم، وتلقائيًا، يتم الحجز على جميع الممتلكات والأصول لسداد تكلفة الإقامة الطويلة للمتهم فى السجن، إلى جانب المصروفات الخاصة بمحكمة التفتيش!!

وبمجرد القبض على المتهم يحبس فى سجن سرى، ولا يسمح له بالاتصال بأى شخص من خارج المحكمة. وبعد ثلاثة أيام من وجوده بالسجن تعقد له ثلاث جلسات أو حلقات تحذير يتم فيها تحذير المتهم حتى يعترف بالحقيقة، خلالها تكون المحكمة قد استقصت عن نسب وقرابة المتهم، وعما إذا كانت قد قامت بالتحقيق مع أحد من أفراد عائلته، كما يدعى المتهم – وعائلته – لترتيل الصلوات المسيحية، لتتبين المحكمة معه هل هم مسيحيون فعلاً أم يدعون ذلك!

وبعد حلقات التحذير الثلاث تصاغ الدعوى ضد المتهم ويطلب ممثل الادعاء وضعه تحت طائلة التعذيب وعلى الرغم من أن المتهم غالبًا ما يكون مستعدًا للندم والاعتذار، فإن المحاكمة تستغرق عادة نحو سنتين أو ثلاث يقضيها فى السجن بطبيعة الحال. وتتنوع العقوبات بين الإعدام أو السجن أو التجديف فى السفن الملكية أو النفى لمدد متفاوتة ومصادرة الممتلكات وعدم الأهلية لتولى الوظائف أو الحصول على ألقاب رفيعة أو ارتداء ملابس فاخرة وحلى هم وأبناؤهم حتى الجيل الثالث (على سبيل المثال، وبناء على ما ورد فى رسالة بابوية صدرت فى روما عام ١٥٦٧م إذن بإلقاء جميع الموريسكيين فى السفن الملكية – والعمل بدون مقابل ثلاث سنوات).

وتورد المؤلفة مثلاً الحكم الذى صدر ضد بياتريث دى باديا، عشيقة المتهم أنطونيو دى باديا بسبب دخولها السجن ليلة الجمعة وهى تحمل قميصًا نظيفًا للمتهم، وبعد القبض عليها، صدر الحكم «بأن تخرج من السجن ويشهر بها بوضعها على حمار وهى عارية من الوسط إلى أعلى ويجوبون بها الشوارع العامة، وبينما يتم جلدها مائة سوط يعلن المنادى عن جريمتها».

ثم يقبض عليها مرة ثانية بعد عدة أشهر بتهمة الإلحاد والزندقة، وتعترف أنها قضت سنوات عديدة فى خدمة «ماريا دى ساسترى» وكانت تراها تمارس عبادات إسلامية –

مثل صيام رمضان- حتى ظهور الرؤية والاغتسال وارتداء قميص نظيف أيام الجمع والصلاة وهى واقفة على لوح من الخشب أو ووجهها نحو مشرق الشمس وتخفض وترفع جسدها وتشير بيديها وتلقى بكفيها إلى الخلف من فوق كتفها وكانت تتمتم بكلام بلسانها».

وأبدت المتهمة ندمها وأعلنت توبتها على الملأ، وقبلت محكمة التفتيش التوبة وأمرتها بأن تعترف فى أعياد الفصح الثلاثة فى كل عام وأن تسمع القداس فى كل أيام الأعياد وقداس الأعياد فى الكنيسة، وأن تصلى الصلاة الربانية خمس مرات فى اليوم، وأن تصلى صلاة الإيمان المسيحى.

ومع ذلك قبض عليها مرة ثانية بعد عدة سنوات بسبب بلاغ اتهمها بأكل اللحم يوم الأربعاء الميلاد ووضعها لميت من جنسها وسلالتها قميصاً وكفناً نظيفين كما جرت عادة الموريسكيين فى ذلك المكان، وبلاغ آخر بأنها شوهدت هى وابنتها تصومان رمضان وتتوضآن. حاولت بياتريث الإنكار فقالت مثلاً إنها لم تأكل لحماً يوم أربعاء الميلاد وكل ما فى الأمر أنها «طبخته للمورسيكى الذى كانت تعيش معه كعاشقة وأن لديها تصريحاً بذلك»، أما القميص الذى ألبسته له عندما توفى فهى لا تنكره، لأن قميص المتوفى كان متسخاً فطلب أهله الفقراء منها قميصاً آخر، لكن الحكم كان مفرط القسوة فهى «ملحدة وزنديقة ومساعدة على الشر ومتسترة على الملحدين وكذابة ومتظاهرة فى اعترافها بذنبها ومصرة على خطئها وساقطة فى الإلحاد للمرة الثانية».

ولذلك طردت من الكنيسة وصودرت جميع ممتلكاتها وأعدمت حرقًا مع اعتبار أبنائها فاقدى الأهلية ولا أحقية لهم فى الحصول على «مناصب شريفة ولا منافع ولا وظائف سواء كانت كنسية أو دنيوية، ولا وظائف عامة أخرى ولا مناصب شرفية وليس بوسعهم لبس الذهب والفضة والأحجار الكريمة والمرجان والحرير والصوف والأقمشة الناعمة ولا يركبون الخيل ولا يحملون السلاح حتى الجيل الثالث».

تكشف وثائق ومحاضر محاكم التفتيش عن الكثير فى حقيقة الأمر بخلاف الاضطهاد والأحكام الجائرة التى تصل إلى حد القتل حرقًا. فهى تكشف مثلاً عن الشعائر الإسلامية

عند الموريسكيين، وعن المواجهة بين المسيحيين القدامى والموريسكيين. وتشير المؤلفة فى هذا السياق إلى أن الموريسكيين تعرضوا لعملية تذويب مقصودة وحصار وعزل أدى إلى أن ينسوا دينهم ويفقدوا ملامحهم الثقافية رغمًا عنهم بعد أن تم تفريقهم وتشتيتهم فى مجتمع مسيحى معادٍ يمثلون فيه الطبقات الدنيا، لذلك لم يكن غريبًا أن يصفهم بعض المتخصصين من الباحثين والمؤرخين بأن وضعهم يشبه وضع الزنوج فى جنوب الولايات المتحدة، أو الهنود فى أمريكا الشمالية.

الكتاب إذن يكشف عن صفحات سوداء يشعر القارئ خلالها بالتقزز من اعتداءات محاكم التفتيش الإسبانية وانتهاكاتها الفظة للموريسكيين التعساء إلى حد القتل حرقًا، كما يكشف – وربما هذا هو الأهم – عن أننا تركنا الموريسكيين خلفنا منذ أكثر من خمسة قرون وتم محوهم تمامًا من الوجود، فهل نفعل – نحن العرب – الشىء نفسه مع الفلسطينيين الآن ونتركهم ليتم محوهم أيضًا من الوجود؟!

ماذا قال ابن خلدون لتيمور لنك ؟!

عرف ابن خلدون بتاريخه – «العبر» – كما عرف بوصفه مؤسس علم الاجتماع والعمران البشرى قبل أن يعرفه الغربيون – وعلى رأسهم العالم الفرنسى دور كهايم الذى نصَّبه الغربيون مؤسسًا لهذا العلم – بعدة قرون.

و «ديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر» مشتملاً على المقدمة الشهيرة وبمجلداته العديدة لم يحظ بتلك الشهرة فى الشرق والغرب اعتباطًا، بل هو واحد من الأعمال الخالدة فى تاريخ الإنسانية، لأنه استخرج من التاريخ قوانين عامة لصعود وازدهار ثم أفول وانهيار الحضارات والأمم قبل أن يتنبه المفكرون والعلماء فى الغرب والشرق على السواء لأن التاريخ ووقائعه يعلمنا، ويمكننا من خلال تأمله أن نكتشف قوانين عامة لوجودنا البشرى.

وإذا كان «العبر» شهيرًا إلى هذا الحد فإن هناك كتابًا آخر لابن خلدون لا يقل أهمية – فيما أتصور – عن «العبر» ولم يطبع إلا مرةً واحدة منذ أكثر من نصف قرن، حتى أعادت طباعته سلسلة الذخائر التى تصدرها الهيئة العامة لقصور الثقافة فى مصر، ويتضمن السيرة الذاتية لابن خلدون بعنوان «التعريف بن خلدون ورحلته غربًا وشرقًا» فى

تحقيق بالغ الإحكام والانضباط لعالم راحل من المغرب تخصص فى ابن خلدون تقريباً، لذلك جاءت حواشيه وتعليقاته بمثابة كشفٍ للنص وتنوير وإضافة له.

من جانب آخر، تكشف بعض النسخ المخطوطة للكتاب أن ابن خلدون أضاف سيرته الذاتية لكتابه الشهير «العبر» وألحقه به فى نسخة واحدة، لذلك يكتسب أهمية متزايدة، لأنه لا ينير حياة ابن خلدون فقط بل ينير كتابه الشهير أيضاً، ويلقى الضوء على لحظة خاصة جداً من الهوان العربى والإسلامى.

وكعادة مؤرخى عصره عندما يتحدثون عن الأنساب، يعود بتاريخ البيت الذى ينتمى إليه عدة قرون إلى الوراء، فهو من حضرموت من عرب اليمن، ويمضى مع نسبه حتى دخول جدّه الأندلس فى رهط من الحضارمة، كما يؤكد قربهم من الحكام والقادة واشتراكهم فى عدد من الانتفاضات المحدودة، حتى إن أحد السلاطين استدعى جده محمد ابن خلدون وأراده على الحجابة فاعتذر، وعندما رحل الجد، اختار والده أن يبتعد عن طريق السيف والخدمة، فكان أول من عدل من الأسرة عن هذا الطريق إلى طريق العلم والأدب والفقه، غير أنه مات ومعه أم ابن خلدون فى إحدى مرات هياج وباء الطاعون الذى اجتاح البحر المتوسط.. وهكذا فقد ابن خلدون أمه وأباه فى وقت مبكر.

ولد عبد الرحمن ابن خلدون عام ٧٣٢ هـ - ١٣٣٢م بتونس فى لحظة خاصة جداً من الهوان العربى والإسلامى، عشية انهيار الحكم العربى للأندلس، وفى الوقت نفسه كان الشمال الأفريقى يحكمه عدد كبير من السلاطين الذين لا يكفون عن الاقتتال فيما بينهم، بينما كان المشرق يعيش اللحظة ذاتها من الضعف والتفكك، حيث كانت الخلافة العباسية قد تم العصف بها، والمماليك يحكمون مصر والشام ويتعرضون لخطر التتار والمغول بين الحين والآخر.

وانصرف عبد الرحمن للمُضى فى طريق والده، وهو طريق العلم والفقه وفى هذا الصدد يذكر بكثير من التقدير والاعتراف بالجميل شيوخه ومعلميه بوصفهم فرائد عصرهم، كتب عبد الرحمن:

«لم أزل منذ نشأت وناهزت قلباً على تحصيل العلم، حريصاً على اقتناء الفضائل،

متنقلاً بين دروس العلم وحلقاته، إلى أن كان الطاعون الجارف، وذهب بالأعيان والصدور، وجميع المشيخة، وهلك أبواى رحمهمًا الله، ولزمت مجلس شيخنا أبى عبد الله الآبلى، وعكفت على القراءة عليه ثلاث سنين، إلى أن شدوت بعض الشىء، واستدعاه السلطان أبو عنان فارتحل إليه، واستدعانى المستبد على الدولة بتونس إلى كتابة العلاقة عن سلطانه أبى إسحق».

كان آنذاك فى العشرين من عمره حين بدأ رحلته مع الوظائف الديوانية فى بلاط الحكام والأمراء، وهى رحلة استمرت خمسة وعشرين عامًا، تجَّول خلالها فى كل أقطار المغرب والأندلس. ففى عام ٧٥٥ هـ ترك تونس إلى فاس وعمل فى ديوان السلطان أبى عنان وبسبب وشاية وغيرة المحيطين ألقى القبض عليه عام ٧٥٨ وظل معتقلاً حتى موت السلطان.

وهكذا سيظل ابن خلدون ينتقل من خدمة حاكم إلى آخر، ومن بلاط سلطان إلى آخر، وفى كل مرة يوغر الواشون صدر من يعمل فى خدمتهم، فيهرب أو يستأذن أو يستعمل الحيلة، وما يلبث أن يعاود الكرّة. لكنه بين الحين والآخر يبدى امتعاضه من السنين التى تمضى عليه دون أن يجد وقتًا لاستئناف العلم والتفقه الذى كان منقطعًا إليه، بل ويتوجع شاعرًا بأنه على وشك أن يصدأ، حتى إنه نسى شعره الذى سبق له أن كتبه، وعندما يعيد نسخ بعض قصائده الواردة فى سيرته الذاتية يتوقف فجأة معتذرًا لقارئه بأنه نسى باقى هذه القصيدة أو تلك!.

وفى عام ٧٦٤، وبسبب وشاية ما، غادر المغرب إلى الأندلس معتمدًا على صلة سابقة للوزير أبى عبد الله ابن الخطيب تطورت إلى صداقة ومحبة، وأرسل زوجته وأبناءه إلى قسنطينة ومضى وحيدًا إلى بلاط السلطان ابن الأحمر .. ولم يلبث طويلاً ومثل كل مرة:

«لم يلبث الأعداء وأهل السعايات أن خيلوا الوزير ابن الخطيب من ملابستى للسلطان واستمالته على، وحركوا له جواد الغيرة فتنكر، وشممت منه رائحة الانقباض مع استبداده بالدولة وتحكمه بأحوالها، وجاءتنى كتب السلطان أبى عبد الله صاحب «بجاية»، بأنه استولى عليها فى رمضان سنة خمس وستين، واستدعانى إليه، فاستأذنت السلطان ابن الأحمر فى الارتحال إليه، وعميت عليه شأن ابن الخطيب إبقاءً لمودته».

تنقل ابن خلدون إذن بين عدد كبير من الأمراء والسلاطين، مسلطًا أضواءه على تلك اللحظة من الهوان، فالاقتتال والحروب المتوالية بين الحكام والأمراء ليست إلا تنازعًا على الاحتلال والاستئثار بهذا البلد أو ذاك، والطوائف المحيطة بهذا الأمير أو ذاك لا هدف لها إلا الدسيسة الرخيصة، والكل مشغول عن الأخطار التى تحيط بالأندلس المقطع الأوصال المحاط بممالك الفرنجة الأقوياء المستعدين لالتهام الحكم العربى للأندلس.

على أى حال بعد أن أقام فترة فى المغرب الأقصى، عاد مرة ثانية للأندلس، وما لبث أن توجه مرة أخرى إلى تونس، وفى كل هذه السنوات يتحسر على نفسه بعد أن انقطع عن القراءة والكتابة فى الأدب والفقه، ولا يدرى القارئ إذا كان ما يذكره ابن خلدون هو رغبته بالفعل، أم أن وجوده قريبًا من الأمراء والسلاطين يتيح له رغد العيش وبريق السلطة ومجدها، على الرغم من تعرضه للسجن والاعتقال، بل إن صديقه الوزير ابن الخطيب المستبد بأمر الأندلس ما لبث بدوره أن تعرض – أيضًا بسبب وشاية – للاعتقال ثم قتل.

ولذلك لم يشرع فى الكتابة إلا حين عدل تمامًا عن الطموح لخدمة السلاطين والأمراء، بعد أن ظفر بعفو سلطان تونس ، واعتزل فى قلعة بنى سلامة فى الصحراء، وكما كتب «فأقمت بها أربعة أعوام متخليًا عن الشواغل كلها، وشرعت فى تأليف هذا الكتاب «العبر» وأنا مقيم بها، وأكملت المقدمة منه على ذلك النحو الغريب الذى اهتديت إليه فى تلك الخلوة، فسالت فيها شآبيب الكلام والمعانى على الفكر، حتى انقشعت زبدتها وتألفت نتائجها».

وبعد أن أنهى أهم عمل فى حياته، تظاهر باعتزامه الحج واستأذن السلطان مغادرًا تونس عام ٧٨٤ هـ – ١٣٨٢م، وهو الفراق الأخير بينه وبين وطنه ومسقط رأسه تونس، فلم تطأ قدماه أرض تونس مطلقًا، وأقام بقية سنوات عمره فى مصر، حيث ولى مناصب القضاء عدة مرات، ولأنه – كما يقول عن نفسه – التزم بأحكام الله، كثر الشغب – حسب تعبيره – عليه من كل جانب، وفى عام ٧٨٦ هـ تعرض لواحدة من أكثر كوارثه الشخصية تأثيرًا عليه، حين فقد زوجته وبناته الخمس ومعهن ثروة ضخمة، حيث كان ابن خلدون قد أرسل لهن ليلحقنه إلى مصر التى قرر الاستقرار بها، وتعرضت السفينة التى كن قد رك

ابنها من تونس فى طريقها إلى مصر لعاصفة بحرية فغرقت وكان من بين من لقى حتفه داخلها زوجته وبناته الخمس دفعة واحدة!!

وظلت العلاقة بينه وبين مناصب القضاء فى كرٍّ و فر، فهو يتولى المناصب فتكثر الوشايات ضده، ويعزله السلطان، ثم يعود مرة أخرى إلا أنه كان قد عاد نهائيًا للدراسة والتدريس. وفى عام ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠م جاءت نذر التتار بقيادة تيمور لنك، فهم مقبلون على غزو الشام ومن ثم مصر، فما كان من السلطان الناصر فرج إلا أن قاد جيشه واصطحب معه عدداً من الفقهاء والقضاة - كما جرت العادة فى ذلك العصر- وهرع إلى الشام. لكن الأخبار وصلت السلطان وهو فى دمشق أن هناك مؤامرة تدبَّر ضده فى القاهرة لخلعه، فعاد أدراجه مسرعًا مع جيشه وترك القضاة والفقهاء، وما لبث تيمور لنك أن أقبل بجيشه وحاصروا المدينة.

حسبما يذكر ابن خلدون، أنه كان من بين من أرسلوا للتفاوض مع تيمور لنك لتسليم المدينة إليه، وهو الوحيد من بين معاصريه الذى قدم وصفًا كاملاً للقاء الغازى، كما ذكر نص المفاوضات التى دارت بينهما من خلال مترجم .. والواضح أن تيمور لنك كان مسروراً من اللقاء، بل وقبل هدايا ابن خلدون وأمر بالعشاء وتناوله مع ابن خلدون، وسأله عن المغرب وطلب منه أن يكتب له ما تيسر عن أحوال المغرب، وهو ما لم يتأخر عنه ابن خلدون حيث عكف على كتابة اثنتى عشرة كراسة حول تاريخ المغرب وملوكه وأمرائه وأقاليمه ومدنه.

والحقيقة أننى توقفت طويلاً أمام هذا اللقاء والمفاوضات التى دارت بين سلطان التتار وقائد الجيش الغازى تيمور لنك، وبين ابن خلدون. بالطبع كانت المدينة محاصرة، وكان مؤكداً أن تيمور سيجتاحها ويستبيحها استسلمت أو لم تستسلم خصوصًا بعد فرار الناصر فرج سلطان مصر والشام الذى هرع ليحمى حكمه من مؤامرة، إذن لجوء المحاصرين فى القلعة للمفاوضة لم يكن استسلاماً أو جبناً، ومفاوضات ابن خلدون مع الغازى لم تكن خيانة ففى كل الأحوال ينتسب تيمور للإسلام شأنه شأن أمم هذه المنطقة من آسيا فى ذلك الوقت، وكان العصر بكامله عصر الانتساب للدين لا للقومية..

غير أن تباسط ابن خلدون الشديد وإبداء سعادته وسروره بلقاء الغازى هو الأمر اللافت، بل إنه قال له حين التقاه: لقد انتظرتك أربعين عامًا!!

ثم إقدامه على تأليف هذه الكراسات الاثنتى عشرة والتى تطوع هو بعرضها على تيمور لنك، وتناول الطعام والحلوى وتكرار هذه اللقاءات طوال فترة الحصار وبعدها مما لا يمكن قبوله.

على أى حال .. تلك هى الخطوط العريضة لسيرة العالم الفذ ابن خلدون، وهى فى الوقت نفسه سيرة ذاتية للهوان العربى والإسلامى!

الأمير أسامة ابن منقذ .. محارب فى التسعين

فى عام ١٠٩٥م ألقى بابا روما وحبر المسيحيين الأعظم أوربانوس خطابه الشهير ونادى فيه بالتعبئة الشاملة من أجل شن الحرب لانتزاع كنيسة القيامة فى القدس من العرب الأشرار، واستجاب لندائه على الفور مائة وخمسون ألف رجل حملوا سلاحهم متوجهين إلى فلسطين المقدسة ..

ومنذ هذه اللحظة، دخل العرب مرحلة جديدة فى تاريخهم عرفت بالحروب الصليبية.

وفى الوقت نفسه وفى ذات العام ولد فارس عربى وشاعر كبير هو الأمير أسامة ابن منقذ أحد أقدم من كتب السيرة الذاتية، وأشهر من عاصر الحروب الصليبية من مبدئها وحتى شارفت على نهايتها عام ١١٨٨، أى أن فارسنا تجاوز التسعين، وتعد سيرته من أهم المصادر التى يعتمد عليها المؤرخون فى دراسة وفهم الحروب الصليبية، ليس فقط لأن كاتبها كان أحد صناع الحدث وشهوده والمساهمين فيه، بل أيضًا لأنه قدمها من وجهة نظر شخصية تعنى بالتفاصيل الدقيقة والحياة اليومية التى لا تنال عادة اهتمام المؤرخين، وقبل كل ذلك وبعده هى سيرة شاعر، همومه تختلف وتتجاوز هموم الجندى العادى، فضلاً عن قدرته على التعبير عن تلك الهموم.

سيرة الأمير أسامة ابن منقذ «الاعتبار» استمرت عدة قرون محفوظة ومجهولة فى مكتبة الإسكوريال الشهيرة فى إسبانيا، حتى اكتشفها المستشرق الفرنسى هيرتويج دربنورج، ثم ترجمت بعد ذلك إلى الفرنسية والروسية والإنجليزية، وظلت مجهولة لدى أصحابها الحقيقيين – العرب بطبيعة الحال – حتى قام الأستاذ اللابنانى الأصل والأمريكى الجنسية «فيليب حتى» بتحقيق جديد منذ عدة سنوات ونشر «الاعتبار» وأسدى خدمة جليلة لابنى قومه.

أما الشاعر والفارس العربى أسامة ابن منقذ، فهو ابن عائلة عريقة عاشت فى حصن «سيجر» الذى يبعد نحو خمسة عشر ميلاً غرب مدينة «حماة» السورية.

فى هذا المكان وفى قلعة هذا الحصن ولد أسامة ابن منقذ لأب كان أميراً على تلك المنطقة، ولأنه زهد فى السياسة والحكم، تنازل عن الإمارة لأخيه عز الدين ابن عساكر.

يحكى أسامة عن أبيه بعد أن ترك الحكم أنه كان:

«يركض نهاره ولا يتصيد إلا على حصان، ونحن معه أربعة أولاد نتعب ونطلق، وهو لا يضعف ولا يكل ولا يتعب، ويطارد اليمام فى أرض حصن الجسرة، فصرع منها يوماً خمسة أو ستة على فرس له دهماء، وكنا إذا وصلنا إلى موضع الصيد ينزل عن الفرس ويجلس على صخرة يقرأ القرآن ونحن نتصيد حوله، ولم يكن له شغل سوى الحرب وجهاد الإفرنج ونسخ كتاب الله». ويضيف «كان الوالد كثير المباشرة للحرب، وفى بدنه جراح هائلة ومات على فراشه».

أما أمه فعندما حوصرت القلعة من الفرنج ذات يوم، وقفت توزع السلاح على الرجال، بينما أخذت ابنتها الكبرى وأجلستها على شرفة تطل على الوادى ورآها إذا رأتهم قد وصلوا إلينا، وقفتها ورمتها إلى الوادى، فأراها قد ماتت ولا أراها مأسورة بين يدى الأعداء»!

من هذا البيت خرج أسامة، وعاش فى كنف عمه الذى كان يعده للإمارة خلفاً له لأنه كان لا ينجب، وشاءت الأقدار أن ينجب فجأة وعلى غير توقع، فتحول عمه عنه، وخاف على أبنائه، واضطر أسامة أمام ظلم عمه له أن يرحل!

من سيجر مسقط رأسه وبدايات شبابه رحل إلى الموصل والتحق بخدمة عماد الدين زنكى أمير الموصل، وبعد شهور قليلة ضرب زلزال ضخم سيجر وقضى على أسرته بكاملها فيما عدا شقيقه وأمه فقط!

وفى عام ٥٣٩ هـ – وكان قد تزوج– توجه إلى القاهرة مع أهله آملاً أن يتمكن من خدمة بلاده والقيام بدور فى صد الغزاة الإفرنج الذين حملوا الصليب – والصليب منهم برىء – بينما إمارات الشام متفرقة تخوض فيما بينها صراعات وحروبا صغيرة، مما مكن الصليبيين من تأسيس إمارات صليبية فى قلب الإمارات العربية، أما الخلافة العباسية فكانت تلفظ أنفاسها الأخيرة، والدولة الفاطمية تتفكك بعد أن انتزع الترك السلاجقة قواعدها فى الشام.

ولم يكن أمام عماد الدين زنكى أمير الموصل إلا أن يسعى لتوحيد البلاد الممتدة من الموصل إلى مصر، وفى هذا السياق وصل أسامة ابن منقذ إلى القاهرة، والتقى فور وصوله بالخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله، مبعوثًا من أمير الموصل لبحث توحيد الجهاد. كتب أسامة فى سيرته الذاتية «الاعتبار»:

«جرت أسباب أوجبت سيرى إلى مصر، فأخذنى الحافظ لدين الله ساعة وصولى، فخلع على بين يديه، ورفع لى تخت ثياب ومائة دينار، وخولنى دخول الحمام، وأنزلنى دارًا من دور الأفضل ابن أمير الجيوش، وهى فى غاية الحسن وفيها بسطها وفرشها ومرتبة كبيرة، وآلتها من النحاس، كل ذلك لا يستعاد منه شىء، وأقمت بها مدة إقامة فى إكرام واحترام وإنعام متواصل».

كانت مصر تعيش مرحلة دقيقة، فالخلافة الفاطمية فى أضعف لحظاتها، والحروب والفتن بين العسكر تعصف بها، والخليفة خائف ومرتعش من العسكر وصغار الأمراء، مما أدى إلى أن يلزم أسامة الحذر والابتعاد عن تلك الصراعات. ومع ذلك فإن أحد الوزراء ثار وقتل السلطان، فحاقت الشبهات حول أسامة لأن الوزارة آلت بعد تلك العاصفة إلى أحد أصدقائه وهو أبو الفضل عباس ابن يحيى، فثار أنصار الخليفة المقتول ضد أسامة.

كتب أسامة فى سيرته:

«القتال فى الشوارع والأزقة، خيالتهم تقاتلنا فى الطريق، ورجالهم يرموننا بالنشاب والحجر من فوق السطوحات والنساء والصبيان يرموننا بالحجارة من الطاقات».

وبعد أن هدأت الأمور استطاع أن يواصل مهتمه التى كان قد وفد إلى القاهرة أصلا لإنجازها، ونجح أن يحمل رسالة من ابن سلار وزير الخليفة الفاطمى إلى نور الدين زنكى، ليتولى حرب الإفرنج فى طبرية ويشغل الإفرنج عنها، لتتمكن القوات المصرية من الهجوم عليهم فى غزة، وكانت إجابة نور الدين:

«أهل دمشق أعداء، والإفرنج أعداء، ما آمن منهما إذا دخلت بينهما».

ولم يجد أسامة ابن منقذ من طريق أمامه إلا أن ينفذ بنفسه الخطة، وجمع حوله ما استطاع من فرسان وجند، واستمر أربعة أشهر فى عسقلان يناوش الفرنجة حتى قتل منهم نحو مائة فارس، إلا أن وزير مصر العادل استدعاه ليتسلم مدينة أسوان باعتبارها أحد الثغور الهامة التى يتعين الحفاظ عليها والدفاع عنها.

حارب أسامة فى جيوش عربية عديدة وترك أشعارًا لا حصر لها ويعد من بين أهم شعراء تلك الفترة، بينما تقدم لنا سيرته الذاتية «الاعتبار» صورة للآخر الذى قطع عشرات الآلاف من الأميال من أصقاع أوروبا ليهاجمنا فى عقر دارنا، وينجح بسبب التفكك والتناحر العربيين والحروب الصغيرة بين الإمارات المتنازعة، فى إقامة مستوطنات فى قلب فلسطين والشام بوجه عام.

من جانب آخر، لا يتورع أسامة عن وصف الإفرنج بأنهم «بهائم، فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير». كذلك يلاحظ أسامة أن درجة من التفاعل الحضارى قامت فى أوقات السلم، عندما كان الفريقان يتوصلان إلى اتفاق لحماية التجار والمسافرين، ومن تجليات ذلك التفاعل تخلى بعض الإفرنج عن لباسهم الأوروبى وارتداؤهم الملابس العربية، كما فضل قادتهم الإقامة فى بيوت شرقية الطراز، بل وقامت علاقات زواج بين رجال ونساء من الشرق والغرب على السواء، ونشأ جيل من أبنائهم أطلق عليهم تعبير (بولان)، ومن تجلياته أيضًا سفر أسامة بنفسه إلى أنطاكية ليشاهد ويلمس عن قرب حياتهم ومصدر قوتهم وضعفهم. ولفت نظره مثلاً نظام الفروسية عندهم فكتب:

«والإفرنج خذلهم الله، ما فيهم فضيلة من فضائل الناس سوى الشجاعة ولا عندهم تقدمة ولا منزلة عالية إلا للفرسان، ولا عندهم ناس إلا الفرسان، فهم أصحاب الرأى والمشورة وهم أصحاب القضاء والحكم».

كما يحكى حكاية أخرى ذات دلالة لا تخفى على القارئ:

«صار لوالدى عدة من الجوارى من سبى الإفرنج، وهم لعنهم الله جنس ملعون، لا يألفون لغير جنسهم، واختار والدى منهن جارية مليحة شابة، وقال لقهرمانة داره أدخلى هذه الحمام وأصلحى كسوتها وأعديها للسفر، وسنريها للأمير الشاب صاحب قلعة جعبر على نهر الفرات وكتب إليه: غنمنا من الإفرنج غنيمة قد نفذت لك سهمًا منها، فوافقته وأعجبته واتخذها لنفسه وولدت له ولدًا أسماه (بدران) كبر ومات والده، وتولى بدران الإمارة والريمة وأمه الآمرة الناهية، ورغم ذلك تدلت بحبل وهربت من القلعة ومضت إلى بلدة للإفرنج، وتزوجت بإفرنجي إسكافى، وتخلت عن ابنها وقلعته».

وهكذا يعنى صاحبنا أسامة بالتفاصيل التى تبدو فى نظر مؤرخى عصره تافهة، بينما الحقيقة أنها تكشف عن كثير من المسكوت عنه. فعلى سبيل المثال يكشف أسامة عن تقدم العرب فى الطب وتخلف الإفرنج. فعندما ظهرت فى ساق أحد فرسانهم دملة، طلب طبيبهم فارسًا قويًا وفأسًا ليقوم الفارس بقطع الساق ذات الدملة، لولا أن طبيبًا عربيًا عالجه بلبيخة فتحت الدملة وصح المريض. وعندما أصيبت امرأة بالحمى بسبب طعنها برمح أمر الطبيب الإفرنجى بحلق شعر المرأة لأن شيطانًا دخل فى رأسها، وما لبث أن أخذ الموسى وشق فى رأسها صليبًا، وسلخ وسطه حتى ظهر عظم الرأس وحكه بالملح فماتت فى وقتها»..

كذلك يولى أسامة عناية للمرأة عندهم وما تتمتع به من حرية حيث كتب:

«ليس عندهم شىء من النخوة والغيرة يمشى الرجل مع امرأته ويلقاه آخر يأخذ المرأة ويعتزل بها ويتحدث معها، والزوج واقف ناحية ينتظر فراغها من الحديث، فإذا طولت خلاها مع المتحدث ومضى!».

ينتقل أسامة ابن منقذ من الحرب بآلاتها وخططها وملابس الفرسان والجند

وأسلحتهم، إلى الحياة اليومية عند الإفرنج بنسائهم وأطفالهم وعاداتهم وأسلوبهم فى العيش ومأكلهم ومشربهم، إلى الطب والعمارة والفنون فى سيرته الضخمة، ولا ينسى أن يشبب فى سطورها بمسقط رأسه والحصن والقلعة التى شهدت طفولته وصباه، خصوصاً بعد أن ضربها زلزال وحولها إلى أطلال بائسة!

كذلك يقدم لوحة نادرة لمصر فى ذلك الوقت، وكيف قادها ضعف الخلافة الفاطمية إلى الهوان والاحتلال، إلى جانب بانوراما هائلة للتشرذم العربى بين أمراء يحاربون بعضهم بعضاً، تاركين فلسطين ببيت مقدسها ينهبها الصليبيون ويؤسسون فى قلبها ممالكهم الصغيرة بعد أن تملكوا ثغورها وأمنوا الطريق إليها من أصقاع أوروبا ..

أما العلاقة بين الشرق والغرب فمن النادر أن يجد القارئ كتاباً يقدم هذه التفاصيل التى سجلها معاصر وشاهد وفارس فى الوقت نفسه، فقد شاهد فارسنا سقوط دول وإمارات إسلامية تحت سنابك خيل الفرنجة، ثم عاصر بدايات دورهم وقرب نهايتهم على يد صلاح الدين الأيوبى الذى تمت على يديه وحدة العرب، ثم تصديهم للغزوة الصليبية وإلحاق الهزيمة بها.

ومن حسن طالع أسامة أن العمر امتد به وهو شيخ تجاوز التسعين ليشهد استرجاع صلاح الدين الأيوبى لبيت المقدس، وفى العام التالى أسلم الروح ورحل مساء ٢٣ رمضان عام ٥٨٤ هـ ودفن فى جبل قاسيون فى دمشق، وبقى كتابه «الاعتبار» شهادة نادرة عن عصر كامل، أما أشعاره فهى تؤكد أنه كان قامة شامخة بين شعراء عصره، مثلما كان فارساً مقداماً جسوراً بين فرسان ومقاتلى عصره!

الحاج عبد الله فيلبى يرسم صورة على هواه!

لعب الحاج عبد الله فيلبى أو هارى سبنت جون فيلبى دوراً بالغ الأهمية فى تقرير مصير منطقة الجزيرة العربية قبل وأثناء وبعد الحرب العالمية الأولى ..

قد لا يتذكر الكثيرون الدور السياسى الذى لعبه الحاج فيلبى ممثل التاج البريطانى الذى كانت الشمس لا تغرب عن ممتلكاته، والمسؤول عن ملف الشرق الأوسط فى الخارجية البريطانية على مدى عدة عقود.

كتابه الذى صدرت ترجمة له فى سلسلة كتاب الهلال وعنوانه «هارون الرشيد» ترجمة د. صبرى محمد حسن يؤكد أننا لسنا أمام مجرد مستشرق عادى شأنه شأن العشرات وربما المئات من المستشرقين الذين اهتموا بتاريخنا العربى وتراثنا وقضايانا سواء اتسموا بالنزاهة والحيدة العلمية، أو افتقروا إليها واتخذوا من الاستشراق مهنة للعب دور سياسى لحكومات بل وأجهزة مخابرات الغرب، على مدى القرنين التاسع عشر والعشرين.

وسجل الحاج عبد الله فيلبى حافل، منذ كان فى الثانية والثلاثين من عمره عام ١٩١٧ وأوفدته الخارجية البريطانية التى كان يعمل بها فى مهمة خاصة للجزيرة العربية على رأس بعثة نجد التى تشكلت للاشتراك فى المناقشات المهمة مع حاكم نجد والأحساء –

آنذاك – عبد العزيز آل سعود لبحث إمكانية تجريد حملة عسكرية على حائل التى كانت حليفة لتركيا أثناء الحرب العالمية الثانية..

وهكذا .. ومنذ اللحظة الأولى قدر للحاج عبد الله فيلبى أن ينغمس بشدة فى دهاليز السياسة ودروبها السرية كممثل لمصالح بلاده بطبيعة الحال، وفى منطقة كانت تقوم على بحر من الذهب الأسود فضلاً عن موقعها الإستراتيجى والفراغ السياسى الذى كانت تعانى منه الصحراء العربية..

لكن هذا الاهتمام لم يمنعه – بل ربما دفعه – لمزيد من البحث والعمل الفكرى والتأليف، فقد قضى بضع سنوات فى استكشاف صحراء الجزيرة العربية وكتب عدداً كبيراً من أهم الكتب التى كانت أشبه بفتح لشبه الجزيرة، لندرة ما وضع عنها بسبب صعوبة اختراقها والتجول فيها حيث تشكل الصحراء مانعًا طبيعيًا يستحيل تجاوزه.

وتوالت أسفاره ورحلاته وكتبه العديدة ثم أسلم وأطلق على نفسه اسم عبد الله فيلبى، بل وكتب كتابًا عنوانه «الحاج فيلبى» وفى العام الماضى فقط – كما يشير المترجم فى تقديمه – عرضت صالة سوثبى للمزادات فى لندن ١٨ رسالة بالغة الأهمية لم يسبق نشرها وحددت ثمنًا لها يتراوح بين ٨٠٠٠٠٠ و ١٠٠٠٠٠ جنيه إسترلينى.

ووصف المترجم هذه الرسائل بأنها «كلها تقريبًا معنونة إلى السير بيرسى كوكس المفوض المدنى فى بلاد الرافدين فى ذلك الوقت، كما تتعلق بالمهمة التاريخية التى قام بها فيلبى إلى الجزيرة العربية فى أواخر الحرب العالمية الأولى، وأضاف أن الرسائل «تحكى بالتفصيل عن أول رحلة يقوم بها رجل من الغرب إلى جنوب نجد، وعن قبيلة الدواسر الموجودة فى تلك المنطقة».

السطور السابقة ضرورية قبل تناول كتاب «هارون الرشيد» فنحن أمام مؤلف عمل بالسياسة فى خدمة الإمبراطورية البريطانية، وعقد صلات وصداقات وطيدة مع الحكام وكبار رجال الدولة، ثم أسلم وأطلق على نفسه لقب الحاج ليكتمل فى إهابه المعنيان الرمزى الدينى والسياسى، وبالتالى يصبح أكثر إقناعًا، على نحو يذكرنا بالدور الذى لعبه لورانس العرب ممثل المخابرات البريطانية فى المنطقة فى وقت مقارب للزمن الذى شهد الحاج فيلبى..

بطبيعة الحال فيلبى ليس مجرد مستشرق أكاديمى، بل يكاد يكون كتابه عن هارون الرشيد بحثًا فى النفسية العربية وطريقة التفكير والمنهج والعلاقات الدقيقة بين مؤسسات الحكم العربية إبان العصر العباسى وطوائف المجتمع وطبيعة الصلات بين العرب وغيرهم من الأمم التى تم فتح أراضيها.. وكلها – كما يرى القارئ – أمور تتعلق بفهم العرب فهمًا دقيقًا وغير تقليدى حتى يمكن التعامل معهم لتحقيق مصالح الإمبراطورية التى كانت تحكم العالم فى ذاك الوقت.

ويأتى كتاب «هارون الرشيد» الذى صدرت طبعته الإنجليزية عام ١٩٣٣ فى سياق عدد من المؤلفات التى كتبها فيلبى، فقبله بعام واحد نشر «الربع الخالى»، وقبله بتسع سنوات «قلب الجزيرة العربية» وهى أعمال كما تدل مجرد عناوينها على طبيعة اهتمامات فيلبى التى تضع مصالح الإمبراطورية نصب عينيها..

لا يكتفى الحاج عبد الله فيلبى بإهداء كتابه إلى ابنته «دورا باتريشيا كاردو فيلبى المولودة فى اليوم السابع من شهر نوفمبر من العام ١٩٢١ فى مدينة بغداد فى منطقة كلية النظامية العظيمة، بالقرب من المنطقة التى استسلم فيها آخر الخلفاء العباسيين للغازى المغولى هولاكو خان فى السابع والعشرين من عام ١٢٥٨م» وهى إشارة ذات مغزى واضح لذكرى اجتياح المجد العربى والهزيمة المنكرة التى لحقت بالحضارة العربية والإسلامية، والتى كانت فاصلاً رمزيًا بين مجد الإمبراطورية العربية، وبين التشرذم والأفول فيما بعد.. ثم يعيد رسم الأماكن والمدن التى زالت ومواقع المعارك وتفاصيل عصر هارون الرشيد وأسلافه وحقيقة علاقته بالانقلاب الضخم الذى جرى على يديه لأسرة البرامكة وتحطيم الأخيرة تمامًا وإخراجها من المسرح السياسى آنذاك.

لذلك كتب فيلبى فى تصديره:

«إن كتابة هذا المقال هيَّأت لى فرصة استعادة تفاصيل صورة، ظلت بمثابة خلفية لحياتى الخاصة طوال ربع قرن من الزمان، الأمر الذى حولها إلى شىء مألوف تمامًا لا يستدعى الانتباه أو يشده. يضاف إلى ذلك أن مسألة تجديد متعة تعرف العلامات القديمة البارزة فى عملية التفسير لقيمة الآخر فى تاريخ العرب، يوحى بأن صفحات هذا الكتاب

ربما أوحت هى أيضًا إلى بعض العقول بالقيام بالمزيد من الدراسات المتعمقة والمتأنية، التى يمكن أن تسفر عن ذلك الذى لا يزال الأدب الإنجليزى يفتقر إليه – أو إن شئت فقل:: «كتابًا قيمًا عن أشهر خلفاء بغداد» أما المكان الذى انتهى فيه من كتابه فهو مكة.. فقد تجول فيلبى فى مختلف أرجاء الأرض العربية وعرف موضع قدميه وخبر رمال الصحراء تمامًا كما خبر الحكام والقبائل، وغاص فى بطون المراجع وكتب الحوليات العربية فى العصور الوسطى.

يرسم فيلبى أو بمعنى أدق يعيد بناء مراحل تشييد مدينة بغداد منذ اتخذها المنصور عاصمة له، ويصل بسرعة إلى الظروف التى نما ونشأ فى ظلها حفيده هارون الرشيد. ففى المكان نفسه الذى ولد فيه الأخير، أنجب يحيى ابن برمك ابنه (فضل)، وسوف تلعب الأسرة الأجنبية (أسرة البرامكة) فيما بعد دورًا مهمًا فى حكم الإمبراطورية العربية المترامية الأطراف والتى كانت قد وصلت فى ذلك الوقت إلى فرنسا.

وإذا كان معروفًا أن أهم ما ميز عصر هارون الرشيد هو ازدهار العلوم والفنون ووصول حركة الترجمة إلى ذرى لم تتحقق لا قبل هارون أو حتى بعده، فإن المؤلف – الحاج فيلبى – الذى تابع على نحو مفصل ثلاثة وعشرين عامًا من حكم هارون الرشيد، لم يول رعاية الأخير للعلوم والفنون والشعر والموسيقى والترجمة عنايته، بل أكاد أقول إنه تعمد ذلك وربما قلل من حجم وتأثير هذا الجانب، وركز كتابه حول مؤامرات ودسائس البلاط العباسى، لم يترك شاردة أو واردة إلا وتناولها، أم الخليفة – هارون الرشيد– وشقيقاته وأشقاؤه وخدمه وقصوره والدور الذى لعبته شقيقته العباسة، وعشرات التفاصيل حول أسرة البرامكة بل والسياف مسرور الشهير – (كل هذا دون أن يلقى إنجاز هارون الرشيد الضخم والذى طالما لهجت الألسنة بذكره ما يستحقه من عناية الحاج فيلبى).

إن الدور الذى لعبته حركة الترجمة فى عصر هارون الرشيد – دعك من إنجاز شعر العصر العباسى ونثره الذى كان فتحًا جديدًا – لم يلفت نظر الحاج فيلبى ومر عليها مرورًا عابرًا، مع أنه لولا ترجمة الأصول اليونانية القديمة منذ أرسطو ومن تلاه إلى العربية لما

حفظت هذه الكنوز للإنسانية، لأن الأصول كما هو معروف فقدت وضاعت مع تدهور وانحلال الحضارة اليونانية ولم يبق سوى الأعمال التى تم ترجمتها بالفعل إلى العربية..

وفيما بعد حين انتبه الأوروبيون لأصول حضارتهم، كانت قد اندثرت تمامًا، فاتجهوا إلى ما حفظه عصر هارون من ذاكرتهم، بل وذاكرة الإنسانية من الضياع، وقاموا بإعادة الترجمة مرة أخرى من العربية إلى لغاتهم، فضلاً عن الشروح والتعليقات والحواشى التى وضعها العلماء والمترجمون العرب.

ليست أسطورة إذن – كما هو ثابت – أن هارون الرشيد كان يمنح المترجم وزن الكتاب الذى ترجمه ذهبًا، مما شجع حركة الترجمة ووصل بها إلى الذرى، وأنقذ تراث الإنسانية.

كل هذا لم يلفت نظر الحاج فيلبى!!

ولو كان الحاج فيلبى قد ذكر ما ذكره عن دسائس البلاط ومؤامراته ومحظيات الخليفة وبذخ القصور، ثم ذكر أيضًا إنجاز هذا العصر فيما يتعلق بحركة الترجمة وازدهار الفنون – الموسيقى والغناء والشعر والنثر.. لو فعل هذا لكان محايداً شأنه شأن المؤرخين الثقات..

بقى أن أشير إلى مقدمة د. صبرى محمد حسن مترجم الكتاب، فعلى الرغم من أن مقدمته استغرقت ست عشرة صفحة، فإنه أغفل هذا الأمر تمامًا، بل وكتب:

«وهكذا نجد المؤلف يحاول طوال هذه الرحلة الذهنية الممتعة فى سيرة ذلك الخليفة العباسى، أن يكون محايداً يعرض كل ما توصل إليه وما استقاه من المصادر الثقات المختلفة ليضعه أمام القارئ، على أمل أن يحكم هو بنفسه، ومن المواقع التى يدلى فيها فيلبى برأيه نراه يحاول دعم ما يقول بأسانيد قوية».

وإن كان قد أشار إشارة سريعة فى آخر سطور مقدمته إلى أن على القراء أن يعملوا فيما يقرأونه من سطور الكتاب مبضع الجراح لتبيان الغث من الثمين .. وهو أمر يحمد له بطبيعة الحال، فإنه كان عليه أن يبدأ بنفسه على الأقل فى المقدمة التى كتبها أو حتى فى الحواشى!!

ماذا فعل الأب إلياس فى أمريكا؟

هللنا ونهلل لكل حرف كتبه عنا مستشرق، واحتفلنا ونحتفل بصورتنا لدى الغرب: كيف يروننا.. هل يحبوننا أم يكرهوننا؟!

وغابت تمامًا صورتهم لدينا ..

لذلك يبدو المشروع الذى بدأته «دار السويدى» للنشر فى أبو ظبى ويشرف عليه الشاعر السورى نورى الجراح تحت اسم «ارتياد الآفاق» فى وقته، فهو يقدم صورة الغرب فى عيون الشرق.

ويشير محمد خليفة السويدى فى تقديمه إلى أنه «إذا كان أدب الرحلة الغربى قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عبر رسم صورة دنيا لهم، بواسطة مخيلة جائعة إلى السحرى والإيروسى والعجائبى، فإن أدب الرحلة العربى إلى الغرب والعالم، كما سيتضح من نصوص هذه السلسلة ركز أساسًا على تتبع ملامح النهضة العلمية وتطور العمران ومظاهر العصرنة ممثلة فى نمط العيش والابناء والاجتماع والحقوق».

طموح السلسلة – كما يبدو – يدعو للتفاؤل فهى لا تسد نقصًا فادحًا فى المعرفة فحسب، بل وتكشف عن كنوز مطمورة أيضًا من المخطوطات والأعمال شبه المفقودة لمؤلفين مجهولين منذ السندباد الذى قاده جوعه ونهمه للمعرفه لمعانقة الخطر..

أما رحلة رجل الدين العراقى إلياس الموصلى إلى أمريكا والتى استمرت ستة وعشرين عامًا فى النصف الثانى من القرن السابع عشر – أى بين ١٦٦٨ و ١٦٨٣ فيحكيها نورى الجراح الذى حررها على النحو التالى .. اكتشفها أولاً وبالمصادفة منذر العكيلى المشرف الفنى على الموسوعة الشعرية فى المجمع الثقافى فى أبو ظبى منشورة فى مجلة «المورد» العراقية، وتبين الجراح بعد قراءة النص أنه سبق نشره فى دورية «المشرق» التى كان يحررها الأب أنطون رباط قبل أكثر من سبعين عامًا، وكان الأخير قد اكتشفها وهى مجرد مخطوط بدوره عام ١٩٠٥ – بالمصادفة أيضًا – فى مكتبة مطرانية السريان بحلب.

وبعد عشرات أخرى من السنين يكشف المستشرق الروسى الأشهر كراتشوفسكى أن هناك نسخًا أخرى من رحلة الأب إلياس الموصلى فى بغداد والقاهرة ولندن..

سلسلة المصادفات الغريبة والمتواصلة سمحت لنا أخيرًا – كقراء – أن نستعيد واحدة من أقدم النصوص عن الغرب وأخفها دمًا وأكثرها غموضًا بسبب صاحبها الذى قام برحلة مريبة رفض طوال روايته لها أن يهمس – مجرد الهمس – بمكنون مهمته ومن الذى أرسله، وتركنا نعتقد بسهولة أنه قضى قرابة ثلاثين عامًا من أجل أن يكحِّل عيونه برؤية أمريكا!

ومما يزيد من غموض الأب إلياس أنه لا توجد أى معلومات حوله سواء عن حياته أو ظروف رحيله سوى ما ذكره كراتشوفسكى أنه من المحتمل أن يكون قد مات ودفن فى روما بسبب وجود كتاب للصلاة بالعربية مطبوع فى روما عام ١٦٦٢ يتضمن إشارة إلى أن الأب إلياس «أنفق على طباعته»، كما يتضمن الألقاب التى خلعها عليه البابا إنوسنت الثانى عشر وكذلك ملك إسبانيا فهو «بروتونو تاريو رسولى» وحامل صليب مار بطرس، وكونت بالاتينو، وكاهن كنيسة ملك إسبانيا، إلى جانب منصبه الشرفى الذى منحته له الملكة كمشرف على كنيسة بغداد الكاثوليكية.

غير أن كراتشوفسكى يلفت النظر إلى أمر مهم، سأعود إليه بعد قليل، وهو أن الأب إلياس ينتمى لعائلة «قدمت للحياة الروحية عددًا من البطاركة النساطرة» وارتبطت هذه العائلة بالفاتيكان على نحو وثيق..

وإذا كان الأب إلياس ظل حريصاً على مدى صفحات رحلته على إخفاء مهمته الغامضة والتى استغرقت قرابة عشرين عاماً، فإننى أرجح أن مهمته كانت ذات طبيعة استخباراتية تتعلق بمصالح الكرسى الرسولى فى الفاتيكان وربما مصالح البيت المالك فى إسبانيا..

فليس معقولاً أن يتمتع بهذه المكانة العالية فى أربع عواصم كبرى هى روما وباريس ومدريد ولشبونة دون سبب، كما أن البابا ذاته استقبله بعد عودته من الرحلة أما لويس الرابع عشر ملك فرنسا وأم كارلوس الثانى ملك البرتغال وملكة إسبانيا فقد استقبلوه قبيل بدء رحلته وكتبت ملكة إسبانيا «الى كافة الحكام والبطاركة التابعين لها العاملين فى المستعمرات الأمريكية لتسهيل مهمته والاهتمام به بصورة استثنائية، فكان مصرحاً له أن يمضى حيثما امتد تراب القارة وخفقت عليه الأعلام الإسبنيولية من دون أن يخضع متاعه وحقائبه لأى تفتيش، على حد تعبير نورى الجراح الذى حرر رحلة الأب إلياس.

من جانب آخر لن يجد القارئ أى إشارة للأعوام التى سبق له أن أمضاها فى وطنه العراق، وعند تسجيله لتفاصيل رحلته لا يشير أيضاً إلى أى علاقة بين مشاهداته فى البلاد الغريبة العجيبة وبين خبراته السابقة فى مسقط رأسه، ولا يستند إلى مرجعيته السابقة إلا فى أضيق الحدود، كأن يذكر أنه أقام قداساً باللسان الشرقى مثلاً!!

أما سرده المتأنى الدقيق فيبدو فيه بالغ السذاجة محايداً غير منفعل لا يأبه بأحد، يقرض ويقترض، يبيع ويشترى، يتلقى الهدايا، والمكرمات، يُستقبل بأقصى درجات الحفاوة ويحيط به ممثلو الملكة والمبشرون ومسئولو محاكم التفتيش.. كل هذا دون أن تبدر منه أدنى إشارة إلى مهمته الحقيقية الغامضة.

امتدت رحلة الأب إلياس من بغداد إلى القدس ومنها إلى الابندقية ثم روما حيث التقى البابا قبل أن يتجول فى عدد من مدن فرنسا ويقيم بعض الوقت فى باريس.. وهنا تبدأ شكوك القارئ فى طبيعة مهمته وسبب مغادرته بغداد.

تتضاعف الشكوك أكثر بسبب لقاءاته المتعددة بعدد من كبار رجال الدولة والأكليروس، فهو يحمل رسالة من البابا إلى ملكة إسبانيا، ومن جانبها تحمِّله الملكة رسائل لوزيريها فى نابولى وصقلية ليصرف مبالغ من المال. ثم ينتقل إلى لشبونة داخل بلاط البرتغال، ويعود

إلى مدريد ليقيم بعض الوقت فى قصر أحد الأمراء.. وهنا تتأكد الشكوك تمامًا!

رواية الأب إلياس تنطوى على استهانة بالغة بذكاء من يقرأ الرحلة، حيث يشير إلى مصادفة كوميدية تمامًا مفادها أنه تعرف فى قصر الأمير الإسبانى على مربية الملك، والمربية استخرجت له تصريحًا لإقامة قداس الملك فى كنيسته ويعجب به الملك.. بسبب هذا الإعجاب غير المبرر أمرت الملكة مربية الملك أن يسأل الأب إلياس أن يطلب ما يشاء!!

طاف إلياس على أصدقائه ومعارفه يستشيرهم فى أفضل طلب يتوجه به إلى الملكة فهى فرصة عمره وتكاد تشبه «خاتم سليمان»، وأجمع أصدقاؤه على هذا الطلب الغريب:

أن يحصل من الملكة على تصريح يجيز له العبور إلى «بلاد هند الغرب» أى أمريكا الجنوبية التى كانت أغلب أراضيها خاضعة للتاج الإسبانى من جانب، والسلطة الدينية لبابا الفاتيكان ومحاكم التفتيش من جانب آخر.

الى هذا الحد وصلت استهانة الأب إلياس الموصلى بذكائنا وبقدراتنا العقلية!!

وهكذا.. أظن أن الأرجح أن الرجل رحل وأمضى كل هذه السنوات فى مهمة ذات طابع استخباراتى حرص على عدم الإفصاح عنها.

أما الرحلة ذاتها فقد بدأت على متن السفينة الملكية من قادش، أبحرت إلى أمريكا كل ثلاث سنوات لتحضر خزينة الملك التى تضم نصيبه من ثروات المستعمرات، ومرت السفينة فى طريقها بجزر الكنارى ثم كاراكاس ومنها إلى فنزويلا وبنما وبيرو وجواتيمالا وكولومبيا وشيلى وبوليفيا، وتجوّل فى قراها ونزل ضيفًا على حكامها وتناول الطعام معهم وباع واشترى وزار مناجم الفضة والذهب على مدى ثمانى سنوات.

وفى طريق عودته زار المكسيك وأمريكا الوسطى وتوقف فى كوبا.

اللافت للنظر أن الهوامش التى وضعها الأب رباط مكتشف المخطوطة عام ١٩٠٥ يؤكد دقة وصواب الأماكن والمناطق التى ذكرها إلياس فى رحلته مما يزيد من الشكوك السابقة حول طبيعة المهمة الغامضة..

وأخيرًا.. أجدنى مختلفًا مع صديقى نورى الجراح الذى رأى أن نص الأب إلياس كتب بلغة ركيكة تجمع بين العامية والفصحى، بينما أرى أن لغته «فنية» تجمع بين السهولة

والرشاقة، بل وتخلو تماماً من الحواشى والترهل والتوشية التى ميزت كتابات عصره على نحو لافت..

كتابة دقيقة نحيفة مضبوطة قد تجنح إلى العامية بوصفها لغة فنية وتستمد جمالها من استبعادها للزائد وتخلصها من التشبيهات والاستعارات والكنايات والمترادفات، لذلك فهى لغة فنية حقًا..

أما مهمة الأب إلياس فلن يتوصل أحد إلى سرها مطلقًا!!

الكونت روسيتى يفاوض آخر المماليك

«مسكينة مصر! كم عانت وكم تعانى، وكم سينالها من معاناة بسبب المنافسة بين فرنسا وإنجلترا الأولى عرضت دعمها على البكوات (المماليك) لتزداد شوكتهم، وهؤلاء (البكوات) كانت لديهم ثقة أكثر فى الثانية إنجلترا، ولما لم يقبلوا العرض الفرنسى كانت فرنسا تريد أن تخفى على الإنجليز قيام المفتش الفرنسى بتحريض عثمان بك والألبان ضد الألفى بك، القادم من لندن، وبالتالى قد يقوم الألبان بشن حرب إبادة على البكوات المماليك المتواجدين فى القاهرة، غير أنها فشلت فى ذلك، فالبكوات إذا لم يستطيعوا دخول القاهرة، فسوف ينسحبون إلى مصر العليا فى أثناء فيضان النيل، وعند انخفاض منسوبه سينزلون من جديد، ولن تنتهى المجاعة، ولن تتوقف الضرائب، وستصبح الخزانة العامة فارغة من جديد».

آسف لهذا المجتزأ الطويل نسبيًا من آخر رسالة بعث بها قنصل عام الإمبراطورية النمساوية فى مصر للبارون راثكيال الوزير المفوض والرسول البابوى للنمسا لدى الباب العالى، ضمن مجموعة من الرسائل بعث بها القنصل إليه والى خليفته ستورمر على مدى الشهور الحاسمة التى مرّت على مصر خلال الفترة من يوليو ١٨٠١ إلى يوليو ١٨٠٤ لكن

هذا المجتزأ دالّ بشدة على المدى الذى كنا قد وصلنا إليه. الرسائل صدرت أخيراً عن دار الكتب والوثائق القومية بمصر، تحت عنوان «مصر فى عصر الفوضى .. يوليو ١٨٠١ – يوليو ١٨٠٤» إعداد أنجلو ساماركو وترجمها عن الإيطالية ولاء عفيفى وهيثم كمال وهدى عبد العاطى بإشراف د. حسين محمود، بينما تولى المراجعة التاريخية والتحقيق د. جمال زكريا قاسم. الفترة التى تغطيها رسائل القناصل ووكلاء الدول الكبرى، تعد من أكثر الفترات فوضى واضطرابا وقلاقل على مصر، بل وتكاد تشبه إلى هذا الحد أو ذاك «الفوضى الخلاقة» التى تحدثت عنها الآنسة كوندوليزا رايس وزيرة الخارجية وأشهر صقور المحافظين الجدد، فى أعقاب الغزو الأمريكى البريطانى للعراق عام ٢٠٠٣.

وكما هو معروف، فإن الصراع بين القوتين العظميين آنذاك – بريطانيا وفرنسا – على اقتسام العالم قد أسفر عن قيام فرنسا بغزو مصر واحتلالها عام ١٧٩٨ على يد نابليون بونابرت لقطع الطريق بين إنجلترا ومستعمراتها فى آسيا وخصوصاً الهند درة التاج البريطانى، لذلك لم يستمر الاحتلال سوى ثلاث سنوات فحسب، وقامت القوات الإنجليزية بمساعدة قوات السلطان العثمانى فى مهاجمة الجيش الفرنسى فى مصر وألحقت به الهزيمة. وتم إجلاؤه عن مصر عام ١٨٠١.

وفى أعقاب ذلك شهدت البلاد ثلاث سنوات متواصلة من الفوضى، فإلى جانب قوات الأسطول البريطانى، الرابضة فى المياه الإقليمية، كانت هناك القوات التى أرسلها السلطان العثمانى، وقوات المماليك، ووكلاء وقناصل الدول ذات المصالح التجارية والاقتصادية الكبرى الأوروبية مثل ممالك إيطاليا والإمبراطورية النمساوية وممالك روسيا والسويد.. إلخ.

كانت كل هذه القوى تعمل فى مصر بأقصى ما يمكنها من قوة من أجل الفوز بجزء من الكعكة قبل أن تستقر الأمور، فالأوضاع السائدة فى مصر قبل الحملة الفرنسية، لم يكن ممكنا لها أن تعود بعد إجلائها، والقوى المؤثرة التى كانت تحكم البلاد، تغيرت أيضاً حيث انقسم المماليك بين جناح كان موالياً للفرنسيين وجناح آخر موالٍ للإنجليز وثالث موالٍ للسلطان العثمانى، كما كانت الدول والممالك الأوروبية تلعب أدواراً مختلفة ومتنوعة، أما

الوثائق التى ترجمت فى هذا الكتاب فتتمتع بأهمية خاصة، وكاد البحث العلمى والتاريخى أن يفقدها. وإذا كان محمد على باشا قد أنشأ الدفتر خانة عام ١٨٢٨ لجمع وتنظيم وثائق الدولة ومكاتباتها، فإن أبناءه وأحفاده لم يفكروا فى تيسير الاطلاع عليها، وظلت حبيسة، تفتقد للترتيب والتنظيم، حتى تولى الملك فؤاد وأمر بتشكيل لجنة عام ١٩٢٥ يرأسها حسن باشا نشأت لجمع وثائق عصر محمد على من اللغات العثمانية والفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية وتصنيفها وترجمتها، بعد أن تم نقلها من دار المحفوظات بالقلعة إلى قصر عابدين.

وفى عام ١٩٣٢ قام الملك فؤاد بتكليف عدد من المؤرخين الأجانب بكتابة تاريخ محمد على وخلفائه. وحتى عام ١٩٤٣ كان ١٦٥٨٩ سجلاً و ٣١٧٦ ملفًا قد نقلوا من دار المحفوظات بالقلعة إلى قصر عابدين لتسهيل مهمة هؤلاء المؤرخين.

ومن بين هذا الكم الضخم من الوثائق النادرة مجموعة من الوثائق التى استنسخها المؤرخ الإيطالى أنجلو ساماركو – أحد المؤرخين الذين كلفهم الملك فؤاد – من أرشيفات نابولى وفلورنسا وتورينو وفينسيا ويزيد من أهمية تلك الوثائق الفائقة أن صاحب معظمها كان قنصلاً عامًا لعدد من الحكومات الأوروبية وإذا كانت القاهرة هى المقر الرئيسى للممثليات الأوروبية آنذاك، فإن لكل ممثل نائبًا فى الإسكندرية، وتجرى مخاطبة وزير خارجية البلد المعنى عبر القنصل، ويلفت النظر أن القنصل أو السفير لم يكن شرطًا أن يحمل جنسية البلد التى يمثلها، والأكثر من هذا أنه كان ممكنًا أن يمثل عدة بلاد فى وقت واحد.

وحسبما يؤكد المؤرخ الإيطالى ساماركو الذى كلفه الملك فؤاد بتجميع وتنظيم هذه الوثائق، فإن كاتب معظمها الكونت كارلو دى روسيت «الذى كان على مدار نصف قرن، منذ نهاية القرن الثامن عشر إلى وقت بداية القرن التاسع عشر، هو الأوروبى الذى يعرف مصر جيدًا، ويتمتع بسلطات كبيرة فيها» ويضيف: «ونلاحظ أيضًا فى كتاباته فضلاً عن الذكاء والبديهة، نقاء الخطوط وصفاءها، وتوازن النقوش، ودقة العناصر الرئيسية والمجموعات المميزة».

بلغ عدد هذه الوثائق ٦٣ وثيقة أغلبها تقارير ورسائل صريحة وواضحة قدمها صاحبها لوزير خارجية الدولة التى يمثلها، ليس فقط من أجل الحصول على توجيهاته وتعليماته بشأن القرارات المتعين عليه اتخاذها حيال القضايا والمشكلات التى يواجهها، بل أيضًا لينقل للوزير الدقائق والتفاصيل الخاصة بالصراعات بين ممثلى الدول وبين القوى الداخلية، ولا ننسى أن هذه القوى كانت تعانى من انقسامات وحروب داخلية طاحنة، وخصوصًا قوات البكوات المماليك والقوات التابعة اسميًا للسلطان العثمانى.

وهنا أود أن أؤكد أن الوثائق المشار إليها كتبت قبل أن ينتهى الصراع بين القوى الأوروبية المختلفة وتخلص مصر لمحمد على واليًا تابعًا للسلطان العثمانى، وهى مرحلة عانت مصر خلالها من فراغ السلطة ومن المؤامرات والضغوط من جانب كل الأطراف، الأمر الذى يحيل ذهن القارئ على الفور إلى ما يجرى فى العراق الآن بعد الاحتلال الأمريكى.

أما صاحب هذه الوثائق الكونت دى روسيتى فقد تم اختياره عام ١٧٨٤ قنصلاً عامًا للنمسا وتوسكانا اللذين كان لهما تمثيل مشترك، وعندما أصبحت جمهورية فينسيا تابعة للنمسا عام ١٧٩٧ أصبح ممثلاً لفينسيا، كما استعانت به روسيا نظرًا لخبرته واختارته قنصلاً لها، كما كلفته إنجلترا فى فترة من الفترات بأن يكون مندوبها المقيم بمصر. لذلك، وبسبب طول الفترة التى قضاها فى السلك الدبلوماسى كان له تأثير على المماليك، بل ووثق فيه الأخيرون إلى حد استخدامه فى مباحثاتهم مع الدول الأوروبية، وقبل ذلك استعان به بونابرت أثناء احتلاله، فضلاً عن استعانة محمد على به أيضًا أثناء فترة صعوده الشاقة.

وحتى ندرك حجم الفوضى التى عاشتها مصر خلال أربع سنوات متواصلة بعد رحيل القوات الفرنسية، يشير ساماركو فى تقديمه للوثائق إلى أن الباب العالى قبل أن يستعيد مصر كان قد قرر أن يقضى نهائيًا على نظام البكوات المماليك الذين كانوا أصحاب القوة الفعلية قبل الغزو الفرنسى، بينما أعلن المماليك تمردهم على السلطان لاستعادة نفوذهم كاملاً وكذلك امتيازاتهم، أما الإنجليز فقد بلغ عدد جنود الحملة التى أرسلوها ١٦ ألف

جندى، وبلغ عدد الجنود الذين أرسلهم الباب العالى ٦٢ ألف جندى و يتولى قيادة الفيلق الأرناؤوطى لها محمد على الذى كان قد تم ترقيته إلى رتبة الجنرال لتوّه بسبب شجاعته الفائقة كما بلغ عدد الجنود التابعين للبكوات المماليك أكثر من ٤ آلاف جندى.

وإذا أضفنا إلى ذلك دمار البلاد وخراب ماليتها بعد جلاء قوات الحملة الفرنسية التى احتلت مصر لثلاث سنوات كاملة، فيمكننا، أن نتصور حجم الفوضى؛ فمرتبات القوات تتأخر وتمرد تلك القوات يزداد ويصل فى مرات عديدة إلى حد اقتحام القلعة مقر الوالى العثمانى، وأحيانًا قتله.

وفى الوقت نفسه، تكشف رسائل وتقارير الكونت روسيتى عن أمر كثيرًا ما يغفله المؤرخون، وهو وجود مجلس يكاد يكون برلمانًا يضم صفوة المجتمع مثل مشايخ الأزهر ونقيب الأشراف عمر مكرم، وكان من شأنه تعيين الوالى على مصر بدليل أنه عين طاهر باشا نائبًا للوالى حتى يصدر له فرمان خاص بالولاية من الباب العالى. وفى وثيقة مؤرخة فى ٦ مايو ١٨٠٣ كتب روسيتى عن أحد هذه الاجتماعات فى تقريره:

«أخذ الكلمة عمر أفندى (وهو عمر مكرم نقيب الأشراف) منددًا بالضرائب الجديدة، والالتزامات الضريبية الباهظة التى ترهق الفقراء والمساكين وبناء على كلمته تقرر رفع الضرائب الجديدة عن كاهل الشعب، وحظى الحاضرون بوعد من طاهر باشا ورجائى أفندى الدفتر دار بهذا، وانتهى الأمر بأن تولى مهام منصبه».

أما محمد على فإن دوره ظل غامضًا ويبدو هامشيًا طوال تلك الفترة، فقد كان يدرس الأوضاع بهدوء ومكر، ويعقد صلات وعلاقات طيبة مع الجميع بمن فى ذلك العلماء وشيوخ الأزهر، وصعد نجمه من مجرد قائد للأرناؤوط إلى أن فرضه الشعب فرضًا على الباب العالى.

وإذا كان المؤرخون المعاصرن واللاحقون – بمن فى ذلك الشيخ الجبرتى صاحب أكمل وأدق تاريخ معاصر – قد غطوا جوانب مختلفة ومتعددة تختص بالسنوات الثلاث المشار إليها، فإن الكونت روسيتى ينفرد بعدة مميزات.

فهو أولاً معاصر وأوروبى لا ينتمى للقوتين العظميين – فرنسا وإنجلترا – وثانيًا

صاحب تاريخ طويل فى التمثيل الدبلوماسى، وثالثًا نال ثقة أغلب الأطراف وكانت له حظوة واضحة لدى أغلب الأطراف، ورابعًا كان أحد أهم الخبراء بالمنطقة وتعرض للاعتقال أثناء إحدى الأزمات، وخامسًا كانت التقارير والرسائل التى أرسلها موجهة مباشرة لوزير الخارجية التابع له؛ كاشفة عن أسرار عديدة لا يعرفها سواه.

القبطان سليم باشا صاحب أول ضوء

يكاد اكتشاف هذا النص وإعادة الحياة له يكون اكتشافًا لمنابع النيل، فقد بقى الأصل العربى ضائعًا، وظل ضائعًا ومفقودًا حتى كتابة هذه السطور، وما وصل إلينا هو الترجمة العربية لنص فرنسى، كان قد ترجم عن الأصل العربى!

وظل نهر النيل العظيم (٦٦٩٥ كيلو مترًا) على مدى عدة قرون غامضًا ليس فقط لدى الرحالة والمستكشفين، بل لدى الحكام والولاة والسلاطين، وبقيت منابعه سرًا مستغلقًا .

أما أول رحلة لاكتشاف منابعه فقد ضاع تسجيلها وتدوين تفاصيلها..

وأخيرًا فقط كشفت دار السويدى الإماراتية للنشر والتوزيع عنها فى سلسلتها المتميزة «ارتياد الآفاق» التى نشرت نص الرحلة كجزء من إنجاز المهمة التى تضطلع بها، وهى نشر نحو مائة كتاب تؤسس لمكتبة عربية مستقلة، والأهم مؤلفات تكشف عن همة العربى واستعداده للمغامرة حسبما عبر المثقف الإماراتى محمد خليفة السويدى مؤسس السلسلة.

ولا شك أن سلسلة تضع نصب عينيها مثل هذه المهمة العلمية والتاريخية، سوف تلعب دورًا بالغ الأهمية فى إنقاذ الذاكرة القومية وإعادة اكتشاف وحفظ كنوز الرحالة العرب،

وهى عادة ما تكون منسية يعلوها الغبار داخل أقبية المكتبات بين عشرات المخطوطات المنسية.

ونص أول رحلة عربية لاستكشاف منابع النيل له قصة مثيرة، حيث ظهر للمرة الأولى فى المجلة الجغرافية الفرنسية فى عدد يوليو ١٩٤٢ بالفرنسية بالطبع، بينما اختفى النص العربى وضاع تماماً.

وبالمصادفة عثر الشاعر نورى الجراح على نص الرحلة ضمن كتاب «مصر فى القرن التاسع عشر» وهو مجلد ضخم فى ٨٣١ صفحة من القطع الكبير للمؤرخ الفرنسى إدوارد چون وترجمه محمد مسعود.

النص العربى مفقود إذن، لكن فرانسوا جومار أحد مستشارى والى مصر محمد على يؤكد فى مقدمة النص المنشور فى مجلة الجمعية الجغرافية الفرنسية أن النص وصله عن طريق أرتين بك المترجم وكاتم الأسرار الأول لمحمد على باشا، وهو الذى ترجم النص إلى الفرنسية، وفقد الأصل العربى.

النص المترجم عن الفرنسية هو الوحيد المتاح الآن، وهى مفارقة لا تخلو من دلالة، فقد انصرف اهتمام كاتم أسرار والى مصر ليس إلى حفظ النص العربى، بل ترجمته إلى الفرنسية فحسب!!

على أى حال، تشكل صفحات هذا النص أول رحلة عربية لاستكشاف منابع النيل فى العصر الحديث، وتؤكد بُعد نظر محمد على باشا واهتمامه الفائق بالنيل الذى يعد جزءاً أساسيًا من الأمن القومى لمصر، لأنه بدون النيل تختنق مصر، وبسط النفوذ المصرى على منابع النيل أمر دونه الموت دون أى مبالغة، خصوصاً أن مصر والسودان كانا بلداً واحداً فى ذلك الحين وحتى الخمسينيات من القرن الماضى!!

تألفت البعثة التى أرسلها محمد على من ٤٠٠ رجل بقيادة البكباشى سليم قبودان. وكان الجنود الأربعمائة موجودين أصلاً فى مدينة (سنار) الواقعة على النيل الأزرق فى السودان، حيث جرت العادة أن يتوزع الجيش الموحد بين مدن مصر والسودان على السواء. استقلت القوة خمس ذهبيات (سفن) جيء بها من مصر، وثلاث ذهبيات أخرى

كانت مرابطة فى سنار، وكل ذهبية تحمل مدفعين، إلى جانب ١٥ زورقًا تحمل مؤنًا تكفى ثمانية أشهر.

وكان أول من أشار إلى هذه الرحلة الشيخ رفاعة رافع الطهطاوى فى كتابه الشهير «مناهج الألباب المصرية فى مباهج الآداب العصرية» وصفها بأنها الأفضل بين ثلاث رحلات أرسلها محمد على باشا، وقطعت ٥٠٠ فرسخ فى النيل من الخرطوم وحتى جزيرة «چانكير» وعندها «رمال وصخور متكاثرة، فالشلالات تمنع السير عن النيل منعًا كليًا، فاقتصر القبودان المذكور (سليم) على أخذ الاستعلامات اللازمة من أهالى تلك الجهة، فاستبان من ذلك أن منابع النيل بقرب دائرة الاستواء». حسبما كتب الطهطاوى.

أما البكباشى سليم قبطان فقد سجل تفاصيل مشاهداته واكتشافاته ووقائع رحلته يومًا بيوم منذ انطلاقها من الخرطوم عام ١٨٣٩م ليستغرق ١٣٥ يومًا، خاض خلالها فى أماكن لم يكن قد وطأها غريب قط قبله، والقبائل التى صادفها فى طريقه عاشت منذ عدة قرون فى مجاهل لم يكن قد اخترق بكارتها أحد مطلقًا.

إحدى هذه القبائل، وهى قبيلة (الشلك) يصفها سليم قبطان بأن أفرادها كانوا «مجردين من الثياب ومدججين بالأسلحة، وكان كل منهم يحمل «دملجًا» من سن الفيل أو الحديد أو البرونز، وكان يحمل النساء والرجال منزوعة من فكهم الأسفل الأربعة أسنان الأمامية منها، وكان فى أقدامهم دملج من الحديد، ويجعل الشلك بطرف رماحهم جملة من ريش النعام يحلونها بها. ومن العادات الشائعة عندهم أن ينام المرضى والعزَّاب فى الرماد وفى روث الحيوانات، فتتلوث وجوههم بهاتين المادتين».

كانت خطة سليم قبطان استمالة هذه القبائل، وأغلبها يتكلمون بلغاتهم الأفريقية الخاصة، لذلك اصطحب معه مترجمًا سودانيًا وكميات لا بأس بها من الأقمشة والمصنوعات الزجاجية الملونة التى خلبت لب هؤلاء البسطاء، بل إن بعض القبائل اعتقدت أنهم رسل الآلهة، أو أنهم آلهة وركعوا أمامهم!!

ورغم بساطة ورخص الهدايا التى حملها سليم قبطان فإنها كانت مدهشة لأبناء القبائل مثل الحرير الموصلى أو المصنوعات الزجاجية الملونة. ويذكر سليم أنه لم يهاجم أيًا

من هذه القبائل إلا إذا بادرت هى بالهجوم عليه، كتب سليم مثلاً:

«فى الساعة السادسة لمحنا أربعة زوارق لقبيلة الكيك تتجه نحونا ويرشقنا راكبوها بالنبال، فأمرنا بعض العساكر بإطلاق النار، فقتل اثنان منهم وغاص الآخرون فى الماء طلبًا للفرار، على أننا لم يسعنا إلا الدهشة من جرأة هؤلاء الناس وإقدامهم على مهاجمتنا جهارًا نهارًا بما عندهم من الوسائل الضعيفة».

بينما يصف ما جرى بين بعثته وبين قبيلة أخرى على النحو التالى:

«وفى الساعة الثالثة رأينا من ناحية الشرق أيضا بعض أكواخ، فتقدم نحونا جملة من الرجال والنساء رافعين الأيدى نحو السماء كالمبتهل وقالوا عنا إننا رسل من عند الله، وكان معهم عجل، وكل ما استطعنا فهمه من صياحهم وحركاتهم أنهم يدعوننا لقبول العجل، فلما دنونا من مساكنهم طمأنهم ترجماننا قائلاً ألا يخشوا منا أذى، وأننا نطلب منهم أن يبعثوا لنا بشيخهم، فما هى إلا برهة حتى حضر الينا، فعلمنا منه أن السكان فى هذا المكان من قبيلة (الكيك) فأهديناه بعض المصنوعات الزجاجية، فلما شهد ذلك أتباعه اطمأنوا واحتشدوا حتى بلغ عددهم ٥٠٠ نفس، وكانوا عزلاً من السلاح، فأحاطوا بنا على النهر، وأمر الشيخ رجاله بإحضار ثمانى بقرات».

وهكذا مضى سليم قبطان بسفنه وزوارقه يسجل عمق النيل فى كل فرسخ، واصفًا البحيرات والأنهار الصغيرة والقبائل المقيمة على شاطئيه ونشاطهم وعاداتهم وأفراس النهر التى يصادفها على نحو بالغ الدقة، بل وأضاف إلى كتابه ملحقًا بعنوان «جداول رهنامج القبودان سليم فى البحر (أى النيل) الأبيض»، والرهنامج هو الكتاب الذى يهتدى به الملاَّحون فى البحر لمعرفة المراسى وغيرها ويضم عمق النهر فى كل مرحلة ودرجة الحرارة وعرض النهر وسرعة التيار وغيرها.

وعندما وصل إلى مكان لم يستطع منه التقدم خطوة واحدة كتب:

«حيث إنه عقب الإيغال فى الفرع الشرقى حتى الظهر لم نجد عمق الماء زائدًا عن نصف كولاج، وأيقنا لهذا السبب الذى قضى على سفننا بالوقوف وعدم الحركة تعذر التقدم إلى الأمام. وحيث إنه بعد المفاوضة مليًا فى الأمر وتقليبه على وجوهه المختلفة فى

مجلس مؤلف من قباطين القوارب، وبعد إثبات الأسئلة والأجوبة سالفة الذكر فى محضر الجلسة، تبين أنه من غير المستطاع مواصلة الرحلة فتقرر بالإجماع التراجع إلى الوراء والعودة فى اليوم التالى».

وهكذا عاد سليم قبطان باشا من رحلته المدهشة، وإذا كان لم ينجح فى مواصلة سعيه لاكتشاف منابع النيل، فإنه كان أول من حفر النفق وأفسح مكانًا لأول ضوء، قاد من جاءوا بعده، وأغلبهم من الأوروبيين، نحو اكتشاف منابع النهر العظيم.

كيف بنى محمد على جيش مصر ؟!

حظى والى مصر محمد على باشا بهالة من السحر والتألق رفعته إلى مرتبة الأسطورة. وكما هو معروف، كان محمد على مجرد ضابط من ضباط الفرقة الألبانية التى وصلت مصر لفرض الأمن والسيطرة من جانب السلطان العثمانى عشية رحيل القوات الفرنسية عائدة لبلادها بعد احتلال دام فى الفترة من ١٧٩٨ إلى ١٨٠١. وكان من الطبيعى أن يعين السلطان العثمانى قائد القوات التى أرسلها لإعادة السيطرة على مصر واليًا على البلاد، غير أن محمد على – الضابط الشاب فى الفرقة الألبانية – استطاع التسلل إلى مشايخ الأزهر – نخبة البلاد فى ذلك الحين – ووثق علاقاته بمختلف القوى والتيارات الناشطة فى وطن تم احتلاله لأكثر من ثلاث سنوات، كما وثق علاقاته وصلاته فى الوقت نفسه بقوات السلطان العثمانى، ولا شك أن محمد على كان شخصية غير عادية لأسباب متعددة.

فقد استطاع فى شهور قلائل أن يصبح واحداً من أهم الضباط، كما انعقد عليه إجماع مشايخ الأزهر ومن ثم بقية الطوائف المؤتمرة بأمر المشايخ، بل إن المصريين ثاروا على السلطان العثمانى ورفضوا تعيين الوالى الذى قرر السلطان تعيينه، وفرضوا محمد

على فرضًا على السلطان، وهو أمر كان فى ذلك الحين متجاوزًا لكل ما هو مستقر من شرائع وتقاليد وأعراف، أن الامم لم تكن تعين حكامها ولا رأى لها فى مثل هذه الأمور، فضلاً عن أن رفض قرار السلطان كان له اعتباره الدينى لأن الأخير كان أمير المؤمنين وخليفة المسلمين وليس مجرد سلطان.

والمعروف أن محمد على انطلق من مصر ليشيد ما يكاد يكون إمبراطورية، فقد «أنشأ» الجيش والأسطول وبدأ سلسلة من الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية، وبعد ما يقرب من ثلاثين سنة كانت جيوشه بقيادة ابنه إبراهيم باشا تدق أبواب القسطنطينية لولا تحالف الدول الأوروبية الذى وقف فى وجهه وفرض عليه أن يقبع داخل حدود مصر..

تلك هى الخطوط العريضة لسيرة محمد على باشا، وهى خطوط منحته سحرًا أسطوريًا بوصفه المستبد العادل وبانى مصر الحديثة ومؤسس الجيش وصاحب الإصلاحات والمسؤول عن تشكل وعى الأمة بذاتها..

غير أن باحثًا نابهًا بحق، ولا يملك القارئ أمام أسانيده وتحليله القوى المتماسك إلا أن ينحاز له، وهو د. خالد فهمى، أصدر عن دار الشروق القاهرية كتابه «كل رجال الباشا» الذى ترجمه د.شريف يونس، ويشير فى تقديمه بحق إلى أن الدراسة التى بين أيدينا تهدف إلى «إسقاط مجموعة متنوعة من الحصون التقليدية المنيعة فى تقاليد الكتابة التاريخية المصرية خصوصًا» ويضيف أنها «تحت قناع لطيف من الأسلوب السلس والنبرة الهادئة، وبغير أى انفعال زائد فى معظم صفحات الكتاب يقوض خالد فهمى – المؤلف – جدرانًا بأكملها من صرح النمط الوطنى السائد فى الكتابة التاريخية المصرية ومسلماتها وضميرها وحججها».

أما المؤلف – خالد فهمى – فهو لا يكتب بالعربية، وإن كان قد درس فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وحصل على ماچستير فى العلوم السياسية منها، ثم الدكتوراه من جامعة أوكسفورد فى التاريخ الحديث، ويشغل الآن منصب أستاذ تاريخ الشرق الأوسط المساعد بجامعة نيويورك بالولايات المتحدة.

بطبيعة الحال، لم يكن من السهل تجاوز ونقض أكثر من مائة وخمسين عامًا من الكتابة

التاريخية التى دفعت بمحمد على ليكون مؤسس مصر الحديثة بلا منازع، بل إن الجانب الاستبدادى والقمعى فى شخصيته، كان يُنظر إليه باعتباره جانبًا يمكن التجاوز عنه أمام إنجازاته التاريخية والسياسية الضخمة. لكن المؤلف تبنى خطابًا ومفهومًا مناقضًا لمجمل الخطاب السائد حول محمد على وحول الحداثة التى أسسها محمد على فى مصر. فالخطاب السائد وقع – بتعبير المؤلف – فى شرك التفكير الحداثى، واقتبس مفهومًا غربيًا للحداثة، وهو المفهوم الذى يعتبرها الامتلاك التدريجى للعقلانية ويعتبر التاريخ صيرورة عالمية لتحقيق مبدأ العقل، بعبارة أخرى حاول مفكرو الحداثة أن يتحدوا المركزية الأوروبية ليس بنقد المبادئ النظرية التى قامت عليها هذه المركزية، بل بتخيل هوية محلية مصرية مركزية تقوم على نفس المبادئ النظرية، مع اختلاف مهم، وهو اعتبار هذه الهوية مستقلة عن الغرب ومعارضة له.

لذلك يذهب خالد فهمى إلى أن الخطاب السائد حاول أن يدحض مقولات المركزية الأوروبية بإعادة إنتاج هذه المقولات، وبدلاً من ذلك يرى أن البداية تكمن فى نقد مفهومنا الشائع عن الحداثة وتعرية زيف تعريفها الذاتى لنفسها «على أنها تاريخ الغرب، وأن اللاغرب ما هو إلا آخر مغاير ومناف للغرب فى افتقاده للعقل وفى تعثر تاريخه وعدم قدرته على تحقيق مبدأ العقل».

من جانب آخر يعترف المؤلف – كما يليق بمفكر من طراز رفيع – بأن كثيرًا من الأفكار التى اعتمد عليها كتابه فى نقده للحداثة «مستقاة» من بعض أعمال الفيلسوف الفرنسى الذائع الصيت ميشيل فوكو، خصوصًا فيما يتعلق بمظاهر التحول فى الأنظمة العقابية وأنماط التعذيب فى فرنسا منذ أوائل القرن السابع عشر وأوائل الثامن عشر. وتكمن العلاقة بين أفكار فوكو وجيش الباشا – محمد على – فى أن المؤلف سعى فى دراسته لنقد مفهوم الحداثة كما يتجلى فى أحد أهم المؤسسات الحديثة وهو الجيش النظامى الحديث، الذى يعد وسيلة مثالية لاختبار صحة مقولات فوكو عن السلطة.

لماذا ؟

يجيب المؤلف: لأن الجيش الحديث شأنه شأن السجن الحديث مكان تظهر فيه آليات

السلطة بشكل واضح وصريح ويتجلى خطابها على نحو واضح فجسد الجندى شأنه شأن جسد المجرم خاضع على الدوام لنظام صارم من الانضباط والمراقبة، لذلك يسعى خالد فهمى لدراسة الممارسات المختلفة بدءًا من التجنيد وحتى المعارك الحية.

وفى هذا السياق يعبر المؤلف عن استفادته أيضًا من كتابات «مجموعة دراسات التابع» وهى أعمال مجموعة من الباحثين: أغلبهم من الهنود نشطوا منذ أواخر الثمانينات فى إعادة كتابة تاريخ شبه القارة الهندية ممن تأثروا بأفكار إدوارد سعيد وچاك دريدا وفوكو وجرامشى وتكمن استفادته فى توجيه الانتباه لدراسة تاريخ الجنود لا الضباط والقادة، أى تاريخ التابعين المقهورين الوقود الحقيقى للمعارك، بينما احتفظ التاريخ بالنياشين وميداليات النصر ورايات الفتح للقادة والضباط.

وعلى الرغم من ندرة المصادر – وربما انعدامها – فلم يعتد الجنود ولا المقهورون ولا التابعون عمومًا على كتابة تاريخهم ولم يخلفوا أثرًا مقروءًا، مما دعا المؤلف لقراءة وتحليل عشرات المصادر العربية والتركية وأرشيف دار الوثائق القومية بالقاهرة والدوريات والسجلات وأوامر الجهادية (الجيش) لتعويض نقص المصادر وإعادة بناء التاريخ وتسجيله من جديد من وجهة نظر الجنود وليس من وجهة نظر الحكام.

«كل رجال الباشا» كتاب لا يتناول الحداثة والسلطة فقط، بل هو عن الحداثة التى يجب أن ننتقدها لا أن نلهث وراءها، وعن السلطة ووسائلها فى الضبط والقمع وهو أيضًا كتاب عن القومية باعتبارها «مجتمعًا سياسيًا متخيلاً، ويحاول أن يشرح كيف يمكن أن تكون الجيوش الحديثة وسيلة لإنشاء تخيل الأمة» على حد تعبير المؤلف، وهو من ناحية ثالثة كتاب عن التاريخ الاجتماعى لا الحربى لجيش محمد على لأن اهتمامه انصبّ على تاريخ الجنود وتفاصيل حياتهم اليومية، وأخيرًا ينصرف جانب من اهتمام المؤلف لمصر كولاية مهمة وغنية من ولايات الدولة العثمانية ومحاولات حاكمها تأسيس حكم أسرى فى ولايته.

وهكذا تتابعت فصول الكتاب السبعة دون ارتباط بالتتابع التاريخى، فالأخير ليس أحد أهداف الكتاب، فضلاً عن عدم الالتزام بتقديم سيرة ذاتية للباشا ورجاله وضباطه والنخبة ذات الأصول التركية المرتبطة به. فوسط الفوضى وركام المصادر التى لا تحفل إلا بسير

القادة وأعمالهم، ووسط التاريخ الرسمى الذى سجله الموظفون والكتبة فى الدواوين، اتجه خالد فهمى لصياغة سيناريو آخر مناقض لحياة الجنود المهمشين والذين وقع عليهم عبء المعارك والموت – ليس فى سبيل الوطن – بل الموت فى سبيل الباشا وفتوحاته.

فعلى سبيل المثال، وعلى عكس ما هو شائع حول أسباب تجنيد الفلاحين، يتناول المؤلف هذه القضية مؤكداً أن التجنيد يكاد يكون قد تم فرضه فرضاً على الباشا والمعروف أن الولايات العثمانية المختلفة كان يتم السيطرة على الأمن فيها وحدودها من خلال فرق عسكرية مرتزقة تابعة للسلطان العثماني، ولم يكن مسموحاً لأهالى البلاد بالانخراط فى صفوف الجيش، ولم يكن التجنيد الإجبارى مطروحاً على الإطلاق.

يؤكد الخطاب الرسمى وسيل الكتابات التاريخية الماضية على أن محمد على بإنشائه للجيش وقراره بتجنيد الفلاحين قد دفع مصر خطوة واسعة نحو وعيها بذاتها وهويتها المستقلة، فالجيش الوطنى هو البداية الحقيقية لانخراط الفلاحين فى الانتماء لأمة يدافعون عنها ويستشهدون فى سبيلها.

وعندما يعيد خالد فهمى قراءة المضابط والسجلات وأوامر الجهادية، منقباً فى المسكوت عنه، يكتشف أن محمد على باشا ظل حتى آخر لحظة خالى الذهن تماماً من فكرة تجنيد الفلاحين، واتجه فى البداية الاتجاه الطبيعى وهو زيادة الجيش من خلال المزيد من تجنيد المرتزقة الألبان الذين ينتمى إليهم فى الأساس، لكن الفرقة الألبانية الموجودة بالفعل تكاثرت تمرداتها الصغيرة. من ناحية كان أفراد الفرقة مايزالون يعتبرونه مجرد واحد منهم وليس حاكماً على البلاد، ومن ناحية أخرى تآمروا عليه واكتشف الباشا عدة مؤامرات هددت حياته، وكان منظمو ومنفذو هذه المؤامرات هم ضباط الفرقة الألبانية المذكورة.

لذلك، وعند أول فرصة لاحت له، قام بالتخلص منهم، عندما طلب السلطان العثمانى مساعدته فى القضاء على التمرد الوهابى فى شبه الجزيرة العربية أرسلهم إلى الفيافى العربية القاحلة، وعلى مدى سبع سنوات هى سنوات الحرب مع الوهابيين، تخلص الباشا من أغلب الألبان.

توسع الباشا فيما بعد فى الجنوب متجهًا للسودان، ولم يفكر حينئذ فى تجنيد الفلاحين لسبب رئيسى وهو أنهم القوة المنتجة للمصدر الأساسى لدخله وهو زراعة الأرض، فاتجه لإرسال حملات عسكرية للسودان لتجنيد السودانيين.. نجحت الحملات فى أول الأمر، لكن ابنه إسماعيل باشا الذى قاد إحدى الحملات كان عديم الكفاءة العسكرية عنيدًا لا يتمتع بشخصية قيادية، وانتهت حملته بمأساة تراچيدية، فلفرط قسوته وتهوره قام السودانيون بحرقه حيًا؟

ومع ذلك جمعت قوات الباشا آلافًا من العبيد من السودان لهذا الغرض تحديدًا: أى لتجنيدهم فى مصر وتشكيل جيش محمد على للدفاع عنه وتأمين حكمه ونظامه، وحتى هذه اللحظة لم يكن محمد على قد لجأ مطلقًا للفلاحين المصريين.. أما عبيد السودان فقد تساقطوا أثناء رحلتهم إلى القاهرة ومات أغلبهم قبل وصولهم بسبب بعد المسافة وكوارث الطريق، فضلاً عن تفشى الأمراض فيهم، حتى إن الباشا أمر باستئجار عدد من الأطباء الأمريكيين ليعالجوهم من الأوبئة التى تفشت بينهم!!

غير أن المصائب لا تأتى فرادى كما يقولون، فلم يتكيف الجنود الأتراك والألبان الذين أرسلوا للسودان مع الجو هناك وفتكت بهم الأمراض وفى مقدمتها الدوسنتاريا..

ويكشف المؤلف عن خطاب أرسله الباشا فى فبراير ١٨٢٢ إلى أحمد باشا مدير مديرية جرجا يقول فيه:

«من الواضح أننا نرسل قواتنا بقيادة أبنائنا إلى السودان ليجلبوا لنا السود لنستخدمهم فى مسألة حملة الحجاز وخدمات أخرى مماثلة .. إلا أنه لما كان الأتراك من جنسنا ويجب أن يظلوا قريبين منا طوال الوقت، ولا يرسلوا إلى هذه المناطق البعيدة، أصبح من الضرورى جمع عدد من الجنود من الصعيد. ولذلك وجدنا أنه من المناسب أن تجند حوالى أربعة آلاف رجل من هذه المديريات».

وهكذا اضطر الباشا لتجنيد الفلاحين، وبناء الجيش (الوطنى) اضطرارًا، أى أنه لم ينطلق من وجهة نظر متكاملة فيما يتعلق ببناء مصر الحديثة، وهو ما تبناه عدد كبير من المؤرخين على مدى ١٥٠ عامًا من الكتابة التاريخية.. أما أحلامه التى (باعها) لنا المؤرخون

حول فتح فلسطين وسوريا وبناء إمبراطورية مترامية الأطراف تضم السودان ومصر والجزيرة العربية والشام فلم تكن سوى صراع يدور داخل الحدود الفكرية والأيديولوجية للسلطة العثمانية، بل هى صراع «أسرى» داخل نفس القبيلة!

وفى النهاية ينبغى الإشارة للإنجاز الأكبر من إنجازات المؤلف، والمتمثل فى السعى المتواصل عبر كل فصول كتابه من أجل نفض الركام الهائل عن المصادر والأوامر والسجلات والمضابط للوصول إلى حياة الجنود وعذاباتهم ومشاكلهم وما تعرضوا له من قسوة مفرطة منذ القبض عليهم فى الحقول، ثم تجنيدهم وتغيير ملابسهم وعاداتهم وفرض حياة هم يرفضونها أصلاً، حتى إن الآلاف كانوا يقومون ببتر أصابعهم أو فقء إحدى أعينهم حتى لا يجندوا!

وهكذا .. فى كل فصل من فصول الكتاب يبدأ المؤلف من حياة الجنود المهمشين الذين غفل عنهم المؤرخون وسجلوا انتصارات القادة ونياشينهم، بينما ظل الجنود متوارين يقدمون تضحياتهم فى صمت.

تغريبة الشيخ الطنطاوى فى روسيا!

فى قرية فولكوفو القريبة من بطرسبرج فى روسيا، وفى مقبرة التتر، مازال هناك حتى هذه اللحظة نصب تذكارى مكتوب عليه جملتان بالعربية والروسية.

بالروسية كتب:

«أستاذ جامعة بطرسبرج ستاتسكى سوفيتنيك [وهى رتبة مدنية كانت فى روسيا القيصرية] الشيخ محمد عياد الطنطاوى توفى فى ٢٧ أكتوبر سنة ١٨٦١ عن خمسين سنة».

وبالعربية كتب:

«هذا مرقد الشيخ العالم محمد عياد الطنطاوى الذى كان مدرس العربية فى المدرسة الكبيرة الإمبراطورية ببطرسبورج المحروسة، وتوفى شهر جمادى الثانى سنة ١٢٧٨ من الهجرة عن خمسين سنة».

فما هى حكاية الشيخ طنطاوى الذى قدر له أن يموت فى أرض غريبة وتبقى رفاته بعيدة عن الوطن مثلما بقيت مصنفاته وتعليقاته وإنتاجه الأدبى والفكرى مجهولة وفى أرض غريبة أيضًا؟

الإجابة نجدها فى كتاب «حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى» للمستشرق الروسى أغناطيوس كراتشوفسكى وترجمته كلثوم عودة، صدر فى سلسلة ذاكرة الكتابة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر.

وقد عكف المستشرق الروسى على دراسة تفاصيل حياة وأعمال الشيخ طنطاوى بوصفه العربى ببطرسبرج العريقة كما يتتبع اهتمام أهله به فى وطنه بعد أن ظل مجهولاً، منذ أن تذكره العالم المصرى أحمد تيمور وكتب عنه مقالاً فى مجلة المجمع العلمى العربى فى دمشق.

ويشير كراتشوفسكى إلى أنه نظراً للتغيرات التى طرأت على حياة الشيخ، كانت المصادر التى تتناول تاريخ حياته مبعثرة فى بلاد مختلفة ويتعذر جمعها، لذلك من المهم الإشارة إلى الجهد الهائل الذى بذله كراتشوفسكى وعكوفه على مصادر مختلفة ومتنوعة ليرسم هذه الصورة المتكاملة للعربى الوحيد الذى شغل منصب أستاذ كرسى العربية فى بطرسبرج.

لنبدأ من البداية. الشيخ الطنطاوى من مواليد عام ١٨١٥ فى إحدى قرى الدلتا القريبة من طنطا حيث ضريح القطب الصوفى الشهير وأحد الأربعة الكبار «السيد البدوى». حفظ القرآن وحضر بعض دروس الفقه والنحو، وعندما بلغ الثالثة عشرة من عمره رحل إلى الأزهر.

قبل هذا ببضع سنوات كان محمد على قد صعد إلى أريكة حكم مصر وبدأ فى عمليات التحديث المتولية فأنشأ عدداً كبيراً من المدارس التابعة للجيش وأرسل البعثات للخارج، وظهر الاحتياج للترجمة، بل وظهرت مهنة جديدة بسبب ندرة من يعرفون اللغات الأجنبية، وحتى من يعرفونها لا يجيدون الترجمة، لذلك برز الاحتياج لتحرير هذه الترجمات، وكان بوسع الشيخ الطنطاوى أن يمارس هذه المهنة بعد تخرجه فى الأزهر، إلا أنه كان لا يجوز الجمع بين التحرير والتدريس فى الأزهر فاختار التدريس، وفى الوقت نفسه تعرف على العلماء الأوروبيين الشباب الذين تضاعفت أعدادهم بسبب مشروعات محمد على وقام بالتدريس لهم ومن بينهم بعض المستشرقين.

وسرعان ما اشتهر اسم الشيخ الطنطاوى بين الجالية الأوروبية وكان من بين تلاميذه من المستشرقين روسيان هما: «موخين» و «فرين» وكانا يخدمان فى القنصلية العامة الروسية. ومن خلالهما تمت دعوته للتدريس فى روسيا بإذن من القيصر عام ١٨٤٠.

وهكذا فى سن الثلاثين رحل الشيخ إلى أقصى شمال المعمورة فى تجربة تعد الأولى من نوعها وظلت فريدة عشرات السنين، فلم يحدث أن غادر أحد مشايخ الأزهر وطنه ليغترب ويلقى بنفسه فى بلاد تبعد كل هذه المسافات الشاسعة، وبين من لا يتكلمون العربية فضلاً عن اختلاف العادات والتقاليد والثقافة.

على أى حال كان السفر إلى روسيا حدثًا أكثر أهمية فى حياة الطنطاوى مما يمكن تخيله الآن، فهو لم يكن قد سافر طيلة حياته إلا بين قريته فى الدلتا والقاهرة، وبعد أن تعلم الروسية، غادر الإسكندرية على متن سفينة ركبها للمرة الأولى فى حياته، وبعد ثلاثة أشهر ونصف الشهر وصل إلى (بطرسبرج).

وفى أوائل أغسطس عام ١٨٤٠ بدأ الطنطاوى فى إلقاء محاضراته فى جامعة بطرسبرج. وبمناسبة وصوله إلى روسيا كتب أحد المستشرقين مقالة فى إحدى المجلات الروسية المتخصصة قال فيها:

«من هذا الرجل الجميل فى لباس شرقى، وعمامة بيضاء، وله لحية سوداء كجناح الغراب، وعينان تشعان بإشعاع غريب، على وجهه سمة الذكاء، وقد لفحت الشمس بشرته، وليست بالطبع شمس بلادنا الشمالية الباردة. لقد رأيته مرتين يسير بخطوات وئيدة على بلاط شارع «نفسكى» إنه ضيف جديد من ضفة النيل هو الشيخ الفاضل محمد عياد الطنطاوى».

ومما يثير الحيرة أن الطنطاوى تحمل غربته على مدى عشرين عامًا تالية لم يقطعها إلاَّ بزيارة واحدة إلى مصر عام ١٨٤٤. وفى صيف عام ١٨٤٣ قام برحلة إلى البلطيق وفنلندا، كما تعلم الفرنسية إلى جانب الروسية بالطبع، ونال رتبة الأستاذية لكرسى الآداب الشرقية عام ١٨٥٥ فكان العربى الوحيد على مدى عمر الجامعة العريقة.

أما تدريسه للعربية فكان يجمع بين الطرق النظرية والعلمية، إذ يدرس قواعد اللغة

ويشرح أمثال لقمان ومقامات الحريرى، كما يدرس الترجمة من الروسية إلى العربية وقراءة المخطوطات والمحادثة وتاريخ العرب.

من جانب آخر وبسبب اجتهاده منح عدة ألقاب وأوسمة من بينها الشكر القيصرى عام ١٨٥٠ على جهوده فى تعليم القوقازيين فى جامعة بطرسبرج. وفى عام ١٨٥٢ حاز ميدالية من ملك فيرتمبرج، وفى نفس العام أهدى إليه ولى عهد القيصر خاتمًا مرصعًا بالجواهر شكرًا على جهوده الخاصة فى زخرفة الغرفة التركية فى مصر «تشارسكى سيلو».

وفى سبتمبر ١٨٥٥ أصيب الشيخ الطنطاوى بشلل فى ساقيه والمعلومات حول مرضه الذى استمر نحو خمس سنوات محدودة، وليس معروفًا ما إذا كان قد سافر خارج روسيا للعلاج، إلا أنه كان يمر بفترات نقاهة حتى تقاعد نهائيًا فى ٣١ يناير ١٨٦١ وحصل على معاش قدره ١٤٢٩ روبلاً، غير أنه نُفى فى ٢٩ أكتوبر من ١٨٦١، وكان متزوجًا من مصرية تعيش معه هناك اسمها «أم حسن»، غير أنها ماتت قبله بعد أن أنجبت له ابنه أحمد.

والأخير حصل على الجنسية الروسية، وباع مخطوطات أبيه لمكتبه الجامعة،!وفى النهاية وردت معلومات تشير إلى أن ابنته هيلانه غدت مسيحية، حيث كتب كراتشوفسكى:

وقدم الوصى سولڤيوم فى ٣ أبريل ١٨٨٦ طلبًا إلى إدارة الجامعة بأن أعطوه وثيقة عن طنطاوى الابن ليقدمها لمجلس الأشراف لإدخال حفيدة طنطاوى هيلانة فى طبقة الأشراف وبذلك يمكن تربيتها فى دار الأيتام. وهكذا نرى أن حفيدة طنطاوى غدت مسيحية وبهذه الوثيقة القصيرة تضيع آثار أسرة أصلها من بلاد الأهرام فى روسى ..

أما إنتاجه الفكرى واللغوى أثناء إقامته فى روسيا فيتميز بالغزارة، والغريب أن تراثه بكامله مازال مجهولاً لدينا نحن العرب، ويصف كراتشوفسكى تراثه فى العقائد ونرى أنه كان خمسة كتب ما بين شروح وتعليقات مثل غنية المريد فى علم التوحيد، حاشية على رسالة الباجورى، حاشية على التحفة السنية والعقائد السنية. وله فى النحو والصرف خمسة كتب أيضًا، وفى البلاغة ثمانية كتب، فضلاً عن كتابيه: منتهى الآراب فى الجبر والميراث والحساب، ومشتهى الألباب على منتهى الآداب.

وهذه المصنفات موجودة بالفعل فى مكتبة الجامعة فى بطرسبورج ومحفوظة هناك ولم تجد بعد من يحققها وينشرها.

أما مؤلفاته المعروفة بعناوينها فقط وفقدت أصولها فهى تعليق على حاشية المقولات للعطار ومجموعة أشعاره ورسائله وتاريخ حياته، وبعض أعماله مجرد مسودات مبعثرة فى مخطوطات مكتبة الجامعة.

تلك هى الخطوط العامة لتغريبة الشيخ الطنطاوى أول من غادر وطنه ليعمل أستاذًا، والعربى الوحيد الذى شغل كرسى الآداب الشرقية فى جامعة بطرسبرج. ومات غريبًا، وحتى مخطوطاته لم تصل الينا بعد، ومازالت قابعة فى أروقة وردهات مكتبة بطرسبرج تنتظر من ينفض الغبار عنها!

حكاية الطبيب السورى سليمان العيص وتابعه بركات!

فى إحدى أمسيات يونيو ١٨٦٢، بدأت رحلة الطبيب السورى سليمان العيص وبرفقته مساعده بركات من مدينة «معان» إلى مدينة «الجوف» بالسعودية حاليًا، والتى كانت فى ذلك الوقت مجرد صحراء تسكنها قبائل البدو وبضع مدن وحواضر متناثرة هنا وهناك، وبعد أن كانت حملة والى مصر الذائع الصيت محمد على باشا ضد الحركة الوهابية قد خلقت واقعًا جديداً.

الطبيب السورى قضى عامًا كاملاً فى الصحراء وانتقل من الجوف إلى حائل ومنها إلى بريدة، ثم الرياض العاصمة حيث قضى نحو ٥٠ يومًا طبيبًا مقربًا من البلاط الملكى، ومنها إلى الأحساء ثم البحرين وقطر، ثم عبر إلى بلاد فارس وعاد إلى سواحل عمان حيث زار الشارقة وخورها وميناءها ورأس الخيمة والفجيرة ومسقط، ثم بندر عباس والبصرة وبغداد، ثم عاد إلى سوريا ومنها إلى بريطانيا..

لماذا ذهب سليمان العيص إلى بريطانيا؟

الحقيقة أن سليمان العيص لم يكن سوى وليم جيفور بالجريف الرحالة الإنجليزى المغامر، الذى تنكر فى زى طبيب سورى مسيحى، ودخل الأراضى السعودية ثم تجول فى

حواضر وموانى الخليج العربى بهذه الصفة دون أن يكتشفه أحد بسبب إجادته للعربية فضلاً عن إجادته للفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية القديمة..

كانت حصيلة رحلة بالجريف فى النهاية مجلدين إجمالى صفحاتهما ألف ومائتا صفحة من القطع الكبير. وترجم صبرى محمد حسن المجلد الأول والذى يضم تفاصيل رحلة شبه الجزيرة العربية، قبيل توجه الرحالة المتنكر إلى الخليج العربى، وذلك فى أكثر من خمسمائة صفحة من القطع الكبير وصدر المجلد فى سلسلة المشروع القومى للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة فى مصر بعنوان وسط الجزيرة العربية وشرقها»..

ولعل القارئ لحظ حرصى على أن أورد عدد صفحات المجلدين، لأن الرحالة المتنكر لم يفلت شيئًا سواء فى الجغرافيا أو التاريخ أو البشر أو الدعوة الوهابية أو الدين أو الحكام والمحكومين، وتناول البدو والحضر والبيوت والخيام والقصور وأنواع الطعام والشراب والملابس والأدوات وأنواع الجمال والجياد، بل لم يترك بالجريف حتى شكل الحصون والقلاع وكيفية إغلاقها وفتحها وعدد المدافع سواء المعطلة أو العاملة بالفعل، وكذلك العادات والتقاليد ورمل الصحراء وصنوف التمر..

لم يترك بالجريف شيئًا مطلقًا عبر أكثر من ٥٠٠ صفحة. فى الجزء الأول، فى البداية لم أفهم سبب غرامه بل وجنونه بالتفاصيل الدقيقة وانخراطه عبر صفحات وصفحات فى تناول تفاصيل الدعوة الوهابية وتأثيرها والمطوعين والأمراء واستغراقه فى وصف شكل الحواضر وكيفية الوصول إليها واستحكاماتها الدفاعية ..

عدت أقرأ مقدمة المترجم مرة أخرى فلم أجد إلا التقريظ والإعجاب، لكن مقدمة المؤلف كشفت لى جانبًا من الحقيقة؛ وسوف أنقل الفقرة التى أنارت لى كل شىء كما هى:

وردت على لسان بالجريف: «والقارئ ربما يود أن يعرف الهدف المخصص للرحلة والظروف الحاكمة لها. لقد كان يحدونى أمل كبير فى الإسهام فى شىء من أجل الصالح الاجتماعى لهذه المناطق الشاسعة. كان يحدونى أمل تحريك مياه الحياة الشرقية الراكدة حتى تلحق بأنهار التقدم الأوروبى الجارية وتتصل بها، وربما لدىَّ أيضًا دافع لتعرف ذلك الذى كنت أجهله حتى ذلك الحين، وكذلك الرغبة فى الاستكشاف التى تملأ قلوب الإنجليز..

كانت تلك هى الدوافع الأساسية، ويمكن لى بوصفى المؤلف أن أضيف إلى ذلك، أننى كنت منضمًا إلى الجمعية اليسوعية، تلك الجمعية التى اشتهرت فى حوليات التاريخ بأعمالها التى تستهدف حب البشر والناس».

ويضيف ما أدعو القارئ للانتباه له:

«ويجب أيضًا أن أعترف بصفتى المؤلف، بخالص شكرى لإمبراطور فرنسا الحالى، على كرمه فى توفير المخصصات النقدية اللازمة لهذه الرحلة».

إن الطبيب السورى سليمان العيص أو الرحالة الإنجليزى الذى كان يتحدث العربية كأهلها، بالجريف لم يكن سوى جاسوس إذن .. نعم جاسوس .. وأغلب الظن أيضًا أنه كان يعمل لصالح فرنسا التى وفرت له المخصصات المالية بواسطة إمبراطور فرنسا ذاته.

لا أعتقد أننى مخطئ فى ظنى أو متقمص لإحساس من يشكون فى وجود مؤامرة تكمن دائمًا وراء التفاصيل ..

فعلى الرغم من أنه لم يصرح مطلقًا بأنه يعمل لحساب أى جهة، فإن علامات الاستفهام والشكوك تحيط به من كل جانب. فلماذا – مثلاً – يقدم رجل إنجليزى على التنكر بهذا الشكل ويعرض نفسه لكل هذه المخاطر على مدى عام كامل، حتى مع الأخذ فى الاعتبار أنه لو لم يتنكر لما سمح له بالاقتراب والاختلاط والنفاذ والتسلل إلى هذا الحد..

كما يشير بالجريف إلى ذلك الميل الاستشراقى فى «تحريك مياه الحياة الشرقية الراكدة حتى تلحق بأنهار التقدم الأوروبى الجارية وتتصل بها».

فالمستشرقون يرون – كما يعرف القارئ – أن الشرق متخلف بسبب عدم لحاقه بالغرب الأوروبى المتقدم، ويعتبرون أن تقدم الغرب مقولة لا يأتيها الباطل أو هى حقيقة غير قابلة للنقاش، مثلما أن الشرق متخلف كمقولة يقينية، إلا أن تخلف الشرق يعود لسبب وحيد، وهو عدم لحاق الأخير بالغرب.

وإذا أضفنا إلى هذا وذاك تعليقاته وآراءه ومناظراته الدينية المتغطرسة تجاه الإسلام والعادات والتقاليد العربية، وإحساسه الدائم بالتفوق الأوربى، ثم شكره الخاص لإمبراطور فرنسا الذى أمده بالمال ليقوم برحلته، فإن هذا يدفع القارئ إلى الاعتقاد بأنه كان فى

مهمة استخباراتية والواقع أن الطبيب سليمان العيص قام بالمهمة خير قيام، ونقل إلى الجهات التى استخدمته تقريراً شاملاً جامعًا مانعًا عن أحوال شبه الجزيرة العربية مستعينًا ليس فقط بإتقانه اللامحدود للعربية حتى إن أحداً لم يشك فى لكنته، بل أيضًا بسبب اطلاعه على المعلقات وكتابات المؤرخين والسير الشعبية العربية وأشعار المتنبى وبن الفارض والمعرى بل وتفاسير القرآن لكبار المفسرين أمثال الزمخشرى والبيضاوى وإسهامات المتصوفة وخصوصًا أعمال الشيخ الأكبر محيى الدين ابن عربى، وفوق كل هذا وذاك رجع بالجريف لمخطوطات مجهولة المؤلف استعارها من معارفه فى سوريا ومصر.

هذا بالطبع إلى جانب أعمال أقرانه من الرحالة الأوروبيين الذين غامروا بزيارة بلاد العرب، وإن كان لم يصل أحد منهم إلى حد التنكر وخداع الآلاف، لكنه يشير بغطرسة يتميز بها دائمًا أنه لم يقرأ سوى القليل جداً منها، وبعد عودته قرأها لمقارنتها بمشاهداته وملاحظاته!!

وعلى الرغم من كل ما سبق فإن المعلومات التى أوردها بالجريف والملاحظات والمشاهدات التى دونها وحتى التعليقات على صلافة وغطرسة أغلبها مهمة للغاية وتتميز بالذكاء الحاد والدقة. فهو يتتبع الأنساب العربية والقبائل والبطون والأفخاذ محدداً على نحو تفصيلى عادات وتقاليد كل منها ومميزاتها ومثالبها.. ومع ذلك نجده ينحاز انحيازًا عنصريًا إلى أبناء ملته ويذكر أن الديانة المسيحية كانت هى الأكثر انتشاراً وتأثيراً فى كل الجزيرة العربية وخصوصًا المناطق الداخلية، وأن تأثيراتها امتدت إلى ما بعد ظهور الإسلام، ثم عادت للظهور والتأثير بعد حروب الردة.

على أى حال، حمل سليمان العيص خمسين صندوقًا صغيراً على أخراجه وامتطى بعيره برفقة مساعده بركات – من أهالى زحلة – إلى أعماق الجزيرة العربية بغترته وعقاله وقمبازه السورى وأحزمته ومناديله. وتحتوى صناديقه الصغيرة على «ما يكفى لشفاء أو قتل نصف مرضى الجزيرة العربية» على حد قوله!!

يفرط بالجريف فى غطرسته تجاه البدو فهم همج متوحشون نهابون وكذابون وجهلة، والبدوى كما يراه «فى أفضل الأحوال ما هو إلا طفل ناقص التعليم والتربية، ظلت سماته

الفطرية الطيبة بلا تطوير أو مقيدة».

كما يعزو طبيعة العرب التى يراها «انتقامية» إلى الحصة الكبيرة من «غذائهم التى يستمدونها من لحم الإبل وحليب النياق والتى من المفروض أن تنقل إلى أولئك الذين يتناولون كميات كبيرة منها، الصفات الأخلاقية أو غير الأخلاقية للحيوان المأخوذة عنه»!!

من جانب آخر، يكشف بالجريف عن مهمته الاستخباراتية دون أن يصرح بذلك، حين يقدم تقريراً شاملاً مكثفًا عن بدايات الدعوة الوهابية وحروب القبائل المختلفة لتوحيدها على أساس وهابى، ويسهب فى تفاصيل المعارك وأسماء الأمراء والقادة قبل وبعد حروب السلطنة العثمانية ضدها، وهى الحملة التى قادها إبراهيم باشا ابن محمد على والى مصر فى ذلك الوقت.. نحن أمام تقرير سياسى بارد النبرة ومحايد قدر الإمكان يعدد المدافع ويذكر تاريخ صناعتها وطرازها والمكان الذى نصبت فيه، كما يصف أسوار المدن واستحكامات قلاعها وحصونها وأعداد المدافعين عنها..

يتناول الطبيب المزيف بيوت الأثرياء مثلما يتناول خيام الفقراء، كما يتحدث عن العبيد وعلاقتهم بالسادة، وآداب تناول القهوة والضيافة، والمغامرات التى قام بها من أجل أن تنطلى حيلته على البدو «المساكين السذج» خصوصًا أولئك المرضى الذى استسلموا له بوصفه طبيبًا. حتى أشجار الفاكهة والتمر ونباتات الجبال ومواسمها والمحاصيل الزراعية المختلفة وطرق ريها.

من معان إلى الجوف، ومنها إلى النفود وجبل شومر، ثم حائل وبريدة ومنها إلى الرياض التى قضى بها نحو ٥٠ يومًا كما سبقت الإشارة إلى ذلك.

غير أن هناك تناقضًا أساسيًا لم يحفل بإخفائه بالجريف وهو علاقته بالحكام، والطريقة التى يروى بها بعض علاقاته تكاد تدعونا لاحتمال أنه كان يقوم بمهمة محددة أو مباحثات بينه وبين هؤلاء الحكام، فليس معقولاً أن أجهزة الاستخبارات المضادة وأجهزة أمن حكام الجزيرة كانوا من الغفلة إلى هذا الحد الذى يمنعهم من اكتشاف أن زائرهم الطبيب المزيف ليس أكثر من جاسوس يرتدى ملابس عرب سوريا!!

وأخيراً أود أن أشير إلى التعليقات والحواشى المتعلقة بأكاذيب وافتراءات بالجريف

على الإسلام والتى تولاها د. حلمى عبد المنعم وكيل كلية الدعوة الإسلامية بالأزهر، حيث قام بقراءة المخطوط وأعد الهوامش الخاصة بالرد على القضايا الشرعية. وإذا كان د. عبد المنعم قد قام بواجبه خير قيام فإنه من المذهل مثلاً أن يشير فى الهامش الوارد فى ص (٤٩٢) إلى أن «منع الصلاة عند شروق الشمس وعند غروبها هو تشريع إسلامى صريح لأنها تشرق وتغرب بين قرنى شيطان وليس مقولة شعبية كما يدعى المؤلف»!! ولا تعليق لدىَّ غير أن د. حلمى عبد المنعم الذى قرأ المخطوط ليعلق على القضايا الشرعية لم يلفت نظره هذه الكميات الضخمة من الأخطاء الإملائية والنحوية التى لا تكاد تخلو منها صفحة واحدة ولم يصححها أو حتى يلفت نظر المترجم لها!

الشيخ حسين المرصفى يتحدث فى نص مجهول

«فى العام ١٨٨١، والثورة العرابية على الأبواب، جلس شيخ أزهرى ضرير فى مكان بالقاهرة يدعى (حارة عبد الباقى) بدرب الجماميز وراح يملى على واحد من تلامذته بمدرسة دار العلوم الخديوية، نصًا صدر فى أكتوبر من العام نفسه، وبعد شهر من قيام أحمد عرابى بصف قواته أمام مقر الخديوى توفيق لإجباره على قبول المطالب الوطنية».

بهذه السطور يبدأ د. محمد حافظ دياب تقديمه للنص شبه المجهول الذى كتبه الشيخ حسين المرصفى وأصدرته أخيراً سلسلة ذاكرة الكتابة عن الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر. النص هو «رسالة الكلم الثمان» الذى تم إقصاؤه وتغييبه وتهميشه منذ عام ١٨٨١ وحتى عام ١٩٨٤ – أى أكثر من مائة عام – حين ظهرت طبعة له نشرها مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصر.

المثير للدهشة أن معاصرى الشيخ المرصفى واللاحقين عليه تجاهلوه، فأغفله جورجى زيدان فى كتابه «تراجم مشاهير الشرق» وكذلك حسن السندوبى فى كتابه «أعيان البيان» وأحمد تيمور فى «تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر» وأحمد أمين فى «زعماء الإصلاح فى العصر الحديث»..

والأكثر إثارة للدهشة أن الغرب التفت إليه، وتعرض كتابه لتعليقات وشروح المستشرقين مثل ألكسندر شولش وبروكلمان ودولانو وبيير كاكيا، وفى العصر الحديث خصه المستشرق الأمريكى تيموثى ميشيل فى كتابه «استعمار مصر» بفصل كامل بل واعتبره امتداداً لابن خلدون.

وقبل أن أتناول «رسالة الكلم الثمان» سوف أعرض لسيرة حياته خصوصاً أنه قدر له أن يعاصر أحداث الثورة العرابية، وإن كان كتابه قد صدر عشية اندلاعها.

ولد الشيخ المرصفى بالقرب من الجامع الأزهر بالقاهرة لأب كان من كبار علماء الأزهر، وأصيب فى الثالثة بمرض فى عينيه فقد بصره على أثره، فألحقه أبوه بالأزهر على عادة ذلك الزمان، وحصل الشيخ حسين المرصفى على إجازة التدريس من الأزهر عام ١٨٧٠.

وكان من الممكن أن تستمر حياته على هذا النحو مدرسًا بالمدارس الابتدائية، شأن عشرات المدرسين، لكن الانتقالة الأساسية فى حياته جاءت عندما تم اختياره لتدريس العلوم الأدبية بدار العلوم الخديوية التى كانت قد افتتحت عام ١٨٧٢.

وبين ١٨٧٢ و ١٨٧٥، ألقى على تلامذته محاضراته فى العلوم الأدبية التى كانت فتحًا جديداً ومنهجًا مغايرًا لكل من سبقوه، حين اعتبر العلوم العربية مثل النحو والبديع والعروض وسيلة لفهم الأدب ونصوصه، وليست غاية فى حد ذاتها كما كان قد استقر ورسخ لدى مشايخ الأزهر والمشتغلين بالأدب.

والطريف أن تلاميذه يحكون عنه أنه كان يركب حماره يومياً من منزله إلى دار العلوم وحده دون رفيق، والحمار يعرف طريقه ويوصله يومياً، ثم يعود إلى البيت، إذا اعترضه معترض يرفسه أو يعضه ويمضى فى طريقه!! وعندما تأسست مدرسة «العميان والخرس» للابنين والابنات عام ١٨٧٥ انتدب للعمل بها إلى جانب عمله فى دار العلوم كما صدر له فى تلك الفترة كتاب يضم سلسلة محاضراته السابق الإشارة إليها بعنوان «الوسيلة الأدبية للعلوم العربية».

وفى مدرسة العميان والخرس تعلم الشيخ الفرنسية على يدى زميله مسيو أوربان، بل

وقرأ بها وترجم عنها. لكن اندلاع أحداث الثورة العرابية أدى إلى تغيير عنيف واضطراب فى كل الأمور، على الرغم من أنه شاع عن الشيخ أنه كان حريصاً على الابتعاد عن الثورة ومشاكلها بسبب ما يعانيه من كف البصر. لكنه اضطر للرد على تلميذه الشيخ حمزة فتح الله – وهو من أصل تونسى، ومدرس بمدرسة الألسن – حين نشر فى جريدة البرهان صحيفة الخديو ما اعتبره الشيخ المرصفى إهانه للشعب المصرى. فقد اتهم الشيخ حمزة المصريين بالغفلة عن الحقوق والجرأة على العقوق.. وأن الملوك ظل الله فى أرضه، لا يجوز الخروج عن طاعتهم، ولا البغى عليهم، ولا تخفر ذمتهم، ولا تنكث بيعتهم، ولا ينقضى عهدهم فى حال من الأحوال». وكان رد المرصفى على تلميذه أنه تجاوز الحدود وأن «للضيف حدوداً عليه ألاَّ يتخطاها» مشيراً إلى أصله التونسى، فرد عليه حمزة بأنه خائن أثيم للخديو ودعا إلى تطهير دار العلوم من أمثاله..

وما لبث الشيخ حسين أن مات فى يناير ١٨٩٠ وبقيت أعماله مجهولة لأكثر من مائة عام كما سبق أن أشرت.

أما المشهد الثقافى الذى كتب فى ظله رسالته المهمة «الكلم الثمان» فكان كما يشير د. محمد حافظ دياب فى تقديمه على شفا الانتقال من عالم الإمبراطورية العثمانية، إلى عالم الدولة الوطنية القومية. وفى هذا السياق يمكن فهم ازدواج المرجعية التعليمية التى تبدت فى تلازم نمطين للتحصيل: الأول تقليدى يتضمن المعارف الدينية ويرتبط بالأزهر، والثانى شق طريقه عبر ضرورات التحديث التى تمخض عنها تشغيل جهاز الدولة وإدارة مؤسساتها.

هاتان العقليتان، ولكل منهما دعاتها، جرى بينهما نوع من الارتباك وطرحت إشكالية الأصالة والحداثة والالتباس بينهما، وفى الوقت الذى تعددت فيه المسالك التى دخل عبرها تيار الثقافة الأوروبية مصر مثل الخبراء الأوروبيين والطلبة المبعوثين والمؤلفات الأجنبية والمؤسسات التى أنشئت على النمط الغربى الحديث مثل دار الآثار العربية ١٨٦٩ وأول مدرسة للابنات بعد مدرسة الولادة عام ١٨٧٣ أو مدرسة الرى والعمارة ١٦٦٨، ومجلس شورى النواب ١٨٦٦ ودار الأوبرا ١٨٦٩ .. إلخ.

فى الوقت نفسه كانت الثقافة التقليدية ما تزال أيضًا موجودة بقوة من خلال مؤسسات المجتمع القديم ونظامه التعليمى.

غير أن أهم عامل أثر بقوة فى المشهد الثقافى، هو بدايات اليقظة الوطنية الحقيقية ممثلة فى الأفكار الجديدة التى كان قد شارك فى طرحها جمال الدين الأفغانى وتلاميذه أثناء بحثه عن أسباب انحطاط المجتمعات الإسلامية وتخلفها عن نظيراتها، وكذلك أفكار الشيخ محمد عبده ورفاعة الطهطاوى، وغيرهما، وهو ما أسفر جميعه عن ذلك الوضع الذى سبق اندلاع الثورة العرابية، حيث كان الاحتقان ومظاهره المتعددة فى صفوف الجيش والفلاحين والموظفين يتزايد فى ظل التدخل الأوروبى السافر..

والحقيقة أن كتاب الشيخ المرصفى هو ابن مخلص للمرحلة وتعقيداتها، وبينما كان التراث التقليدى يعاد إنتاجه داخل الأزهر، سنجد المرصفى يتصدى للأزمة السياسية المطروحة بقوة من خلال مناقشته لثمانى كلمات وجد أنها بدأت تجرى على الألسن، ويتلفظ بها الكثيرون دون أن يحدد أحد معناها الحقيقى، كما وجد الشيخ أن الكلمات الثمانى تتصدر المنظومة السياسية فى عصره.

أما الكلمات فهى على التوالى: الأمة، الوطن، الحكومة، العدل، الظلم، السياسة، الحرية.. وأخيرًا التربية.

يلفت النظر أن الشيخ يوجه رسالته منذ سطورها الأولى للجيل الجديد، مخاطبًا «أذكياء الشبان من أهل هذه الأزمنة التى ابتدأتها الألطاف الحاضرة» على حد تعبيره.

ويلفت النظر أيضًا أن تعريفه للأمة تجاوز بوضوح عن إطار الدين، واستبدل به وحدة اللغة، فى الوقت الذى كان إطار الدين هو المرجعية الكبرى، اللغة لديه إذن أفضل أساس لوحدة الأمة. ويلفت النظر أيضًا أنه يقصر تعريفه على أبنائها، دون غيرهم من المستعمرين.. ويضيف «على الأمة أن تكون أرضهم بالنسبة إليهم كالدار بالنسبة للشخص، كما أن غيرته وحميته وحرصه على مادة حياته لا تستجيز أن يدخل أحد داره إلا على سبيل الخدمة والائتناس، كذلك الأمة يجب ألا يدخل أحد أرضها إلا على تلك السبيل. ولكل من الخادم والضيف والساكن حدود معروفة غير مجهولة منها أن أحدًا منهم

لا يتصرف فى الدار إلا عن إذن صاحبها ورضاه».

على هذا النحو يمضى الشيخ المرصفى فى تعريفه لـ «الكلم الثمان» فالوطن هو تلك القطعة من الأرض التى تعمرها الأمة. وتتبدى تقدميته وفكره المتنور حين يناقش أى وطن يقصده، يحدد الشيخ بلا أى التباس التحولات التى أصابت الطبقة المالكة والغنية، فلا همَّ لها إلا اكتناز الذهب والفضة وتكديس أسباب الرفاهية (بما فى ذلك العطور المستوردة ودهان الشعر!!)، وفى الوقت نفسه يشير الشيخ إلى انكسار خواطر الطبقة الأخيرة والوسطى، وضيق صدورهم بثقل التكاليف، وحرمانهم من المنافع، حتى يرى الواحد منهم انصراف النهار، وذهابه إلى القاعة المحماة بالحطب ، الفنية الكبرى النعمة العظمى».

أما الحكومة فهى «قوة تحصل من اجتماع طائفة من الأمة لإمضاء مقتضيات الطبيعة على وجه يقرب من رضاء الكافة» والطائفة التى يشير إليها مقسمة إلى أربع فئات: العسكر لحماية الوطن، القضاة للفصل فى الخصومات، والجباة لجمع الضرائب، وأخيراً الكتبة لتحرير الوثائق.

وإذا كان الشيخ قد خصص فصلاً لكل من الوطن والحكومة، فإنه يجمع الكلمات الثلاث التالية فى فصل واحد: العدل، الظلم، السياسة.

وفى كلمات قليلة جداً، غير أنها دالة فى الوقت نفسه، يحدد أن العدل هو طريق الحكومة «لإمضاء مقتضيات الطبيعة» مشيراً إلى أنه ليس من العدالة «إذا قام بعض الناس وحظر بعض الضيبات عن غير جملته، وأفرط فى الرفه والتفهم، حتى كأن الدنيا خلقت له وحده، وأن الناس مخلوقون لخدمته» ويضيف شارحًا ما يقصده بوضوح «فالعمال فى الزراعة مستعملين.. لا أقول استعمال البهائم، بل استعمالاً آخر لا يدركه الوصف ولا يحيط به التصور» بل إنه يصيب القارئ بالفزع حين يلطمنا بالصورة التالية: «والطامة الكبرى أن الابنت تبيت أول ليلة فى صورة العروس عند العمدة، يتمتع بها ويفترعها ثم تزف ثانى ليلة لصاحبها».

وتبدأ صفحات رسالة الشيخ المرصفى فى التناقص، بعد أن كان قد خصص فصولاً كاملة للكلمات الأولى، فكلمة الحرية مثلاً لم يكتب عنها إلا ثلاث صفحات فقط ويعرفها

بأنها «شرف وانقياد وإباء، فإذا لم يكن واحد من تلك الأشياء، بأن كان الإنسان جاهلاً، دخل تحت أسر التعليم ومنع من الأفعال حتى يعرف ما له فعله، وما ليس له فعله، حذرًا من وقوع الإفساد، وإبطال معنى الاجتماع التعاونى، الذى مكننا من ضرورات الحياة الإنسانية أو كان خسيسًا يعرف ما له ويتجاوزه إلى ما ليس له» فحكمه «حكم البهيمة العجماء». وأخيرًا فإن معنى التربية – وهو المدرس والمربى – «تبيلغ الشىء حال كماله تدريجيًا» على أساس أن «سعادة الأمة وراحة الحكومة مرتبطان بالتربية منذ الصغر».

تلك هى الكلم الثمان التى عنى بها الشيخ، واختارها باعتبارها دلالة على عصر كامل يمور بمخاض الثورة العرابية الوليدة، وعلى الرغم من أن وضعه الشخصى ككفيف حال بينه وبين التصريح والوضوح، ودفع به فى بعض الأحيان إلى التلميح والإشارة البعيدة.

چون نينيه .. فلاح مصرى من سويسرا!

يستحق چون نينيه أن يكون مواطنًا عالميًا بامتياز، فقد انحاز فى وقت مبكر جدًا للمقهورين والمستضعفين والفقراء، فى وقت كانت القارة التى ينتمى إليها تمارس أقسى أنواع التوحش والاحتلال العسكرى بل والاتجار فى الرقيق ضد الشعوب المسالمة التى كانت ترزح تحت حكام ليسوا ضعفاء ولصوص فقط، بل وخونة أيضًا!

وظل الدور الذى لعبه نينيه غائبًا وكادت تطمره الأيام والسنين، حتى رفع عنه الغبار د. أنور لوقا أستاذ الأدب الفرنسى بجامعة القاهرة والمهاجر إلى سويسرا منذ عدة عقود، فقد اكتشف كتابًا يضم أهم مجموعة من الرسائل والتقارير الصحفية التى أرسلها چون نينيه من مصر بين عامى ١٨٧٩ و ١٨٨٢م إلى عدة صحف فرنسية وسويسرية وإنجليزية، ويحمل الكتاب الذى ترجمه فتحى العشرى ونشرته أخيراً سلسلة المشروع القومى للترجمة عن المجلس الأعلى للثقافة فى مصر اسم «رسائل من مصر» وقدم له بدراسة وافية د. أنور لوقا.

أما چون نينيه فهو مواطن من چنيف، يمتلك بلا شك عقلية صانعى الساعات وثقتهم العمياء بتفوقهم، فبفضل أصابعه الماهرة «يقوم بتحويل الدقة إلى عمل أخلاقى بحت» على حد تعبير د. أنور لوقا. عمل فى شركة لتجارة القطن، وشق طريقه إلى الولايات المتحدة

عام ١٨٤٣ حيث شارك فى إحدى المزارع الكبيرة فى موسمين متتاليين فى زراعة القطن المعروف بالسى أيلاند، وهو القطن طويل التيلة ذو الملمس الحريرى، واكتسب خبرة ومعرفة دقيقة بكل ما يتعلق بزراعة ورعاية القطن منذ اللحظة التى يتم فيها وضع البذور فى الأرض وحتى حلج الزهرة البيضاء وتحويلها إلى قطن.

ثم شد الرحال إلى مصر، واستقبله الباشا محمد على والى مصر مرتين، وعهد إليه بزراعه ألفى فدان قطنًا من نوع السى أيلاند، وفى الوقت نفسه عينه ناظرًا لمخزون الحكومة فى المنصورة التى كانت مركزًا يتم فيه جمع قطن الدلتا، والأهم أنه عايش بنفسه الظلم الواقع على الفلاحين بعد أن عمل معهم بيديه وتبين إلى أى مدى يعانى الفلاحون ويتعرضون للسخرة والكرباج!

وعلى مدى تسع سنوات بين عامى ١٨٤٣ وحتى عام ١٨٥٤ حصل على حق الانتفاع بإحدى مناطق الشرقية وقام بزراعتها لحسابه الخاص.

وإذا كان نينيه قد بقى فى مصر حتى عام ١٨٨٢، فإن معنى ذلك أنه أقام ٤٣ عامًا، عاصر خلالها خمسة ولاة، وكان شاهدًا على النهب الاستعمارى الذى تعرضت له مصر، وتدفق مئات بل آلاف المغامرين الأوروبيين والنصابين والذين يبيعون «الهواء» للخديو!

كما ترك الأخير الحبل على الغارب لهؤلاء النصابين يعيثون فسادًا فى الريف، يقرضون الفلاحين بفائدة وصلت إلى ٦٠ بالمائة، والنتيجة بالطبع عجز الفلاحين عن السداد فتسقط الأرض لقمة سائغة فى أفواه ذئاب أوروبا.

ولما كان نينيه نائبًا لقنصل بلچيكا، فقد أتاح له منصبه الدراية بالخفايا وكواليس التدخل الأوروبى الذى بدأ بتقديم قروض محدودة للخديو، وأمام جشع حكام مصر وسفههم وتعلقهم بالمظاهر والأبهة الفارغة تضاعفت القروض بفوائد رهيبة. فمثلاً كان الخديو إسماعيل يسعى لأن تكون مصر «قطعة من أوروبا» على حد تعبيره، واستدان أموالاً ضخمة بفوائد مضاعفة على الرغم من الموارد الهائلة التى كان القطن يوفرها، وقناة السويس التى حفرها الفلاحون بالسخرة، وفرت أيضا موارد جديدة من خلال الرسوم التى كانت السفن تدفعها لعبور القناة.

وخلال بضع سنين انهالت القروض على مصر كالشلال، فعلى سبيل المثال حصل الخديو إسماعيل –حسبما أورد چون نينيه – على قرض من أحد بيوت المال الأوروبية قيمته الاسمية ٣٢ مليون جنيه إسترلينى عام ١٨٧٣، سرعان ما تضاعف بسبب الفائدة حتى بلغ ٦٨ مليونًا!

لذلك كان من الطبيعى أن يعرض الخديو إسماعيل حصة مصر فى قناة السويس للبيع وتكالبت المجموعات المالية الأوروبية لتغرق الخديو بالقروض، ونشأت مجموعات مالية خصيصًا لإقراض مصر، فالبقرة الحلوب ذات الموارد الهائلة لم يكن هناك من يحميها من الذئاب والمغامرين والأفاقين الأوروبيين.

كانت النتيجة معروفة سلفًا، فقد عجزت موارد البلاد عن السداد، وشكلت رقابة مالية أوروبية على الخزانة المصرية، ثم أرسى نظام سيادة ثنائية عين بموجبها مراقبن عامين الأول إنجليزى يختص بالدخل، والثانى فرنسى يشرف على المصروفات، كما أمست السكك الحديدية وميناء الإسكندرية تحت الإدارة الأجنبية لمصادرة دخل هذين المرفقين الحيويين لحساب الدائنين الأوروبيين.

يصف نينيه فى أحد التقارير الصحفية التى وجهها لمواطنيه الأوروبيين من مصر الأحوال على النحو التالى:

«أنتم يا من قمتم بالثورة الحمراء فى فرنسا وإنجلترا وفى كل مكان لمجرد فكرة الضريبة الظالمة وغير المرضية.. هل لديكم فكرة عن الطريقة المصرية فى سن القوانين والتقسيم ورفع الضريبة التى لا يعلم دافعوها متى حلت أو باسم من أو نصابها؟ فالخديو يطلب ويأمر وكفى، لينطلق الكرباج ويشق الهواء محدثًا صفيره. الدفع أو الضرب حتى تسيل الدماء ليجىء بعد ذلك السجن وتوقيع الحجز على «ما يوجد» – بدون أية إجراءات – من ماشية وكل شىء وتباع البقرة الوحيدة بثمن بخس والجاموسة والماشية البائسة التى يقوم بشرائها المضاربون الجشعون ويبكى الأطفال وتئن العائلات ..».

ومع ذلك فإن نينيه استشرف المستقبل بالرغم من تلك الصورة القائمة والصادمة فى الوقت نفسه. تمثل المستقبل فى شباب المفكرين الذين شبوا على أعمال وترجمات رفاعة

الطهطاوى من الأطباء والمهندسين والمدرسين ممن شكلوا طبقة مستنيرة، واستطاعوا أن يصدروا صحفًا ويشكلوا جمعيات علمية كانت إطارًا للتطور الثقافى والاجتماعى، كذلك التف حول الخديو إسماعيل مجلس نواب تشكل عام ١٨٦٦ ضم ٧٥ عضوًا، وافق إسماعيل على تشكيله على أن يكون مجلسًا استعراضيًا يبرهن من خلاله لأوروبا أنه أمير شرقى ديمقراطى!!، لكن المجلس على ضآلة تفويضه كمجلس شورى خطا الخطوة الأولى على طريق الحياة النيابية، ثم تحرر تمامًا من عجزه بعد أزمة ١٨٧٦ ليوفر التأييد للحركة القومية الوليدة.

ربما كان الأهم أن نينيه استشرف تلك القوة الجديدة التى خرجت من بين صفوف الفلاحين وهى الجيش. وكان الخديو سعيد باشا قد فتح – فى غفلة منه – الباب واسعًا لأبناء الفلاحين للوصول إلى الرتب العالية وعندما أوقف الخديو إسماعيل – الذى تولى بعد سعيد – تلك الترقيات، قام هؤلاء الضباط بتكوين جمعية سرية لعبت دورًا أساسيًا بعد ذلك فى الانتفاضة التى قادها أحمد عرابى، ونينيه نفسه كان منضمًا لخلايا الجمعيات السرية منذ عهد سعيد، بل واستمع لجمال الدين الأفغانى وهو يخطب فى الثائرين، وبعد إلقاء القبض على نينيه عام ١٨٨٢ بعد هزيمة عرابى، التقى بالشيخ محمد عبده فى السجن.

إلى هذا الحد كان نينيه منخرطًا فى الحياة السياسية والكفاح الوطنى فى مصر وهو الأوروبى السويسرى، فقد كان مواطنًا عالميًا بامتياز، وأينما ساد الظلم والعبودية والنهب الاستعمارى كان الرجل يجد نفسه وسط الفلاحين فى الحقول، وفى المنتديات بين شباب الحركة الوطنية، الساعية نحو الاستقلال، كما كشف أضخم عملية نصب دولية من جانب بيوت المال والابنوك الأوروبية عبر إغراق الخديو إسماعيل بالقروض ذات الفوائد العالية، والأجور المذهلة التى كان يحصل عليها الموظفون الأوروبيون فى دواوين الحكومة المصرية دون أن يمارسوا أى عمل مقابل تلك الأجور، فى بلد يرزح تحت ديون رهن الخديو إسماعيل مرافقها وأرضها وكل ذرة تراب فيها وفاءً لتلك الديون، حتى فرضت أوروبا تعيين وزيرين أوروبيين فى الحكومة المصرية.

أما أحمد عرابى مثلاً، فكان نينيه قد ارتبط به مبكرًا فى مسقط رأسه فى محافظة الشرقية. لذلك كان قريبًا منه طوال الفترة التالية التى شهدت بدايات التمرد العسكرى حتى وقوع الانتفاضه ثم هزيمتها وأمكنه من خلال قربه وعلاقته الشخصية بقائد الانتفاضة وغيره من الضباط الوطنيين أن يرسل تقارير دقيقة للصحف ومن وجهة نظر الثائرين، فى الوقت الذى كانت صحف أوروبا تحفل بالتقارير الزائفة أو تلك التى تحمل وجهة نظر ناهبى مصر الأوروبيين.

وبعد فشل المفاوضات التى استهدفت منع الأسطول الإنجليزى من قصف الإسكندرية فى ١١من يوليو ١٨٨٢، أسرع نينيه إلى معسكر الجيش المصرى ومكث هناك ٦٦ يومًا مترجمًا لعرابى ومسئولاً عن مراسلاته مع الأوروبيين، وكان نينيه الأوروبى الوحيد على وجه الحصر الموجود فى معسكر عرابى ومن بين العاملين المباشرين فى مكتبه.

كتب نينيه مثلاً تقريراً صحفيًا دقيقًا حول موقف أوروبا من مصر قال فيه:

«تعارض الحكومة البريطانية بكل الوسائل الممكنة إنشاء برلمان مصرى، الأمر الذى تتطلع إليه الشعوب ولا تتكلف تلك الحكومة شيئًا لسحق أو إسكات الحزب الوطنى كما تتبعها بلا أدنى شك الحكومات الأخرى فى خوض الحرب الصليبية التى يقودها خفية العميل الدبلوماسى الإنجليزى فى القاهرة.. فمصر التى بزغت كوطن قد يصيب العميل البريطانى بالشلل، إذ من الأفضل أن يرزح خمسة ملايين فلاح تحت عبودية فكرية تامة بدلاً من شعب من العمال الأحرار».

وبعد إلقاء القبض عليه، قضى عدة أشهر بين جدران السجن ليخرج مطروداً من مصر التى أحبها وارتبط بها ودافع عن قضاياها العادلة .وفى سويسرا لم ينس مصر، بل بادر على الفور بإصدار كتاب عن أحمد عرابى، وواصل عمله بوصفه مواطنًا مصريًا فى سويسرا!.

حفنى ناصف عازفًا ومغنيًا ورياضيًا يجيد الغطس

لا يتذكر الكثيرون حفنى ناصف.. قد يتذكر البعض ابنه عصام الدين حفنى ناصف الذى شارك فى تأسيس أول حزب اشتراكى فى مصر فى العشرينيات أو كتبه فى التاريخ والعقائد. أما الأب فقد غاب عن الذاكرة على الرغم من كل ما أسداه لوطنه وأمته، وعلى الرغم أيضًا من عشرات الأعمال الفكرية والأدبية، والأدوار التى لعبها كمعلم وقاضٍ وموسيقى وواحد من أعلام الدعابة فى عصره وشاعر مفوّه بل ورياضى يجيد الغطس والسباحة، حتى إنه عندما كان فى زيارة لمرسيليا عقدت مباراة دولية فى السباحة، فأدرج اسمه بين المتبارين وفاز بالجائزة الثانية!!

حفنى ناصف ولد عام ١٨٥٥ وشارك فى إرساء النهضة التى بدأها محمد على وامتدت حتي بدايات الثورة العرابية، ومن قبله تتلمذ على يد جمال الدين الأفغانى، ومن مجايليه الأستاذ الإمام محمد عبده، لكن لم يدرك ثورة ١٩١٩ فقد مات قبل اندلاعها بأشهر قليلة!

كانت ولادته فى قرية «بركة الحج» بالقليوبية وكانت أكبر مركز تجمع للحجاج المصريين المتجهين إلى بيت الله وكما عبر فى إحدى رسائله واصفًا قريته:

«مسقط رأسى والأرض التى كان بها غرسى بركة الحج التى تردد إليها الوفود من كل

فج: قرية ذات أعناب ونخيل، بينها وبين مصر من مشرق الشمس ميل، وربيت فى حجر الترف والمجد والشرف، بيد أن أبى جاور مولاه قبل أن تقرى عيناه..».

التحق ناصف بالأزهر الشريف وهو فى الرابعة عشرة من عمره، وتلقى دروس جمال الدين الأفغانى وهو جالس بجوار الصبى محمد عبده، ومن حسن طالعه أن الفترة التى درس خلالها شهدت عدة إصلاحات فى الأزهر سواء فى مناهجه أو نظمه الإدارية، وكان من أهم هذه الإصلاحات تأدية الامتحان النهائى أمام لجنة تتشكل من ستة من كبار العلماء. وقضى عشر سنوات داخل أروقة الأزهر، لكنه لم يقنع بالعلوم التى يدرسها، بل تضلع فى الفقه والنحو والصرف وعلوم البلاغة، وساعدته ملكة الحفظ التى وهبها له الله على الاستعانة بشواهد من الشعر والنثر فى كتب الأقدمين.

من الأزهر انتقل إلى دار العلوم، طبقًا للقاعدة التى كان على مبارك باشا مؤسس مدرسة دار العلوم (وهى تشبه الجامعة قبل أن يفكر أحد مجرد تفكير أو حتى يعلم عن الجامعات شيئًا)، كانت القاعدة تقضى باختيار عشرة من نابغى طلاب الأزهر ليتلقوا العلم متفرغين ويحصلوا على مكافأة شهرية أيضًا، وما لبث صديقه وبن جيله الشيخ محمد عبده أن استدعاه – وهو مازال طالبًا – ليعمل معه فى تحرير مجلة الوقائع المصرية.

إلا أن سوء الطالع واجهه بمجرد تخرجه فى دار العلوم، فقد صدر قرار بتعيينه فى مدرسة الخرس والعميان ليقوم بتعليم ذوى العاهات. ولم يكن لدى ناصف مانع فى أن يسهم فى مثل هذا العمل الجليل، إلا أن عملاً كهذا بالتحديد كان كفيلاً بإبعاده تمامًا عن كل ما برع فيه وأجاده من علوم وبلاغة.

ولما كان ناصف فى طليعة من آزروا الثوره العرابية، حتى إنه هجر الدراسة وهو فى السنة النهائية وتطوع فى صفوف الطلاب وتدرب بالفعل على الرماية وضرب النار، لذلك فأغلب الظن أن ما تذكره بعض المصادر حول سبب اختيار ناصف لهذه الوظيفة بالذات – أى التدريس فى مدرسة الخرس والعميان – كان متعمداً وشكلاً من أشكال عقابه على الوقوف بجانب الثورة، خصوصًا أن درجاته النهائية كانت ترشحه للعمل فى أفضل المواقع.

ومع ذلك، أقبل الرجل على عمله مخلصًا كعادته فى كل بالأعمال التى تسند إليه، وتمكن فى غضون ثلاث سنوات من أن يجعل الخرس يكتبون ما يريدون ويفهمون ما يكتب لهم، بل واستطاع أن يعلم المكفوفين ألفية ابن مالك ومنظومة الشيخ أحمد قاسم فى علم الميقات وبلغ فى إجادته لعمله الجديد أن انتدبته المحاكم ليترجم بينها وبين الأصم أو الأبكم!.

وبعد ثلاث سنوات فوجئ بشفيق بك منصور يعرض عليه أن يتولى منصب سكرتير مكتبه، وهو منصب بالغ الأهمية فى ذلك الحين، فشفيق بك منصور كان نائبًا عموميًا، وكانت مهمة ناصف إعادة صياغة ما يكتبه منصور من قوانين وتقارير وأوامر – نقلاً عن اللغات الأجنبية – إلى اللغة العربية، لم تكن مهمة ناصف هى الترجمة فهو لم يكن يجيد لغة أجنبية إلى حد الترجمة، بل إعادة الصياغة بلغة عربية رصينة سليمة..

وكعادة حفني ناصف عندما يتولى عملاً أتقنه وأخلص له، فبعد خمس سنوات فقط، تم اختياره مدرسًا لمادة الإنشاء القضائى بمدرسة الحقوق ثم اختير أيضًا لتدريس البلاغة والمنطق وآداب المناظرة بالمدرسة نفسها.

ومن التدريس فى مدرسة الحقوق، دخل سلك القضاء من أوسع أبوابه حين شرعت الحكومة فى تعميم المحاكم الجزئية، ولم يكن عدد الطلاب الذين يتخرجون فى مدرسة الحقوق كافيًا، لذلك عقدت مسابقة اجتازها ناصف بنجاح ساحق، ودخل القضاء ليستمر فيه ٢٠ عامًا منذ عام ١٨٩٢ وحتى ١٩١٢..

ويذكر التاريخ لحفنى ناصف أنه أثناء عمله كقاضٍ تظاهر طلبة المعهد الأحمدى ضد الخديو عباس حلمى الثانى والإنجليز معًا، فأصدر حكمًا ببراءة الطلاب، لذلك لم تكن مدة خدمته فى القضاء نزهة يسيرة، بل كثيرًا ما تعرض للعسف والنقل والاضطهاد من مدينة إلى أخرى فى الصعيد والدلتا..

ومن أهم مآثره أيضًا الدور الذى لعبه فى إنشاء الجامعة المصرية، ففى ١٢ أكتوبر ١٩٠٦ عقد أول اجتماع فى منزل القاضى سعد بك زغلول حضره سبعة عشر رجلاً للبحث فى مشروع إنشاء جامعة مصرية، وكان فى طليعتهم حفنى ناصف، وما لبث أن تولى

سكرتارية اللجنة التى شكلت لمتابعة المشروع وإعداد اللائحة له، ولذلك انتخب لرياسة مجلس إدارة الجامعة، بل وكان أول عضو شرف بلجنة الجامعة.

وعندما فتحت الجامعة أبوابها للتدريس تولى ناصف تدريس مادة تاريخ الأدب العربى بكلية الآداب، وكان من بين تلاميذه طه حسين، وشكلت محاضراته ثلاثة أجزاء طبعتها كلية الآداب، ولم تطبع بقية محاضراته شأن الكثرة الغالبة من مؤلفاته.

من جانب آخر كان الرجل يتعامل مع الجامعة الوليدة باعتبارها عملاً وطنيًا، لذلك تنازل عن كل مستحقاته، بل وتبرع فوق ذلك بمبالغ رصدتها بعض المصادر وذكرت أنها بلغت ٨٧٠ جنيهًا، وهو مبلغ كان يعد ثروة ضخمة فى مطلع القرن الماضى!

وفى يوليو ١٩١٢ اختير لشغل واحد من أخطر المناصب وأجلّها شأنا وهو مفتش أول اللغة العربية بوزارة المعارف، أى المسئول عن مصائر اللغة والدين وما يتعلق بهما من خطط ومناهج، وشهد هذا المنصب فى عهده تطوراً غير مسبوق فقد نهض بهذا العبء فى وقت كان الإنجليزى دنلوب هو المسئول عن التعليم فى مصر من جانب سلطات الاحتلال، ووجه حفنى ناصف اهتمامه لتنقية اللغة العربية وتخليصها من الشوائب، وفى الوقت نفسه تطويرها ليتسنى استخدامها فى تدريس العلوم الحديثة.

لم تنته مآثر الرجل بعد...

هل يعلم القارئ مثلاً أن حفنى ناصف هو المسئول عن ضبط المصحف الشريف ورسمه بالصورة التى عليها الآن؟ هل يعلم القارئ أن ملايين المسلمين يدينون له برسم المصحف الحالى ؟ واستغرق هذا العمل منه سبع سنوات، بل إن آخر «بروفة» صححها لرسم المصحف كانت وهو على فراش الموت بل وقبل رحيله بساعات قليلة يوم ٢٥ فبراير ١٩١٩.

أما المثير للدهشة حقًا فهو أن الكثرة الغالبة من مؤلفاته لم تجمع أو تطبع، فعلى سبيل المثال ما طبع من شعره فى ديوان واحد يمثل قطرة من البحر الذى فاض فى الصحف والمجلات، فضلاً عن نثره الذى يتجاوز أضعاف شعره، ومع ذلك لم يجمع ويطبع فى كتب مثل رسائله وتقاريره ومقالاته ومقاماته وخطبه، وتحصى بعض المصادر ما نشر وتقدره بخمسة وعشرين مؤلفًا من بين عناوينها: بحث فى هوية مارية القبطية، الأدب العربى أو

حياة اللغة العربية، القطار السريع فى علم البديع، كتاب الإنشاء القضائى، رسالة فى الكهرباء، رسالة فى بديع اللغة العامية، رحلة إلى الأستانة .. وغيرها وغيرها ..

هذه العقلية المتعددة المواهب والاهتمامات والمشارب على هذا النحو النادر لم تتوقف لحظة واحدة عن الإبداع والإضافة والتطوير.

وفوق كل هذا كان ناصف ذواقة للموسيقى، حتى إنه فى فترة مبكرة من حياته كان يجرى الاستعانة به فى المحاكم للاستماع إلى شهادته فى النزاع بين شركات الأسطوانات! كما كان يجيد العزف والغناء حتى إن الشيخ سلامة حجازى لم يكن يبدأ الغناء فى حفل يحضره حفنى ناصف قبل أن يفتتح الأخير الحفل بغنائه اعترافًا من أمير الغناء العربى بصوت ناصف الصداح!

هل أكرر أن الكثرة الغالبة من كتاباته وأعماله الفكرية مازالت تائهة هنا وهناك ؟ ولعل أقل ما يمكن أن نقوم به من أجله هو مجرد جمع هذه الأعمال ونشرها .. فهل نفعل هذا من أجل ذكراه ؟!

ضابط المخابرات البريطانى الذى رسم الخريطة العربية

على الرغم من عشرات الكتب التى صدرت لتحلل وترصد تفاصيل شخصية «لورانس» الضابط الإنجليزى الذى لعب دورًا محوريًا فى الثورة العربية الكبرى التى عرفت بثورة الشريف حسين أمير الحجاز ضد الحكم التركى، على الرغم من عشرات الكتب، فإن «لورانس» مازال حتى الآن قادرًا على إثارة دهشتنا، ومازال الكثير من جوانب شخصيته ودوره وتفاصيل حياته الخاصة والدور الذى لعبه.. مازال كل هذا قادرًا على إثارة دهشتنا.

ولعل البورتريه الذى يرسمه الكاتب الإنجليزى مايكل آشر يكون أكثر المحاولات اقترابًا من لورانس، وقد صدرت ترجمة هذا الكتاب، وهى ترجمة أكثر من ممتازة ورصينة ودقيقة فى سلسلة كتب سطور القاهرية بعنوان «لورانس ملك العرب غير المتوج» قامت بها د. فاطمة نصر.

وإذا كان لورانس قد رحل عن دنيانا بعد مولد المؤلف بـ ١٨ عامًا، فإن هذا لم يمنع الأخير من تدقيق وتحقيق كل الروايات التى قيلت بلا استثناء بما فى ذلك ما كتبه لورانس فى مذكراته وكتبه، وأرشيف وزارة الحرب البريطانية، وأوراق المخابرات، وكتاب سيرته،

والمراسلات المختلفة لشخصيات العصر، بل رحل المؤلف إلى كل الأماكن التى وردت فى مذكرات لورانس سواء فى إنجلترا أو مصر أو سويسرا أو الجزيرة العربية أو الأردن، وركب نفس النياق التى سبق للورانس أن جاب على ظهرها رمال الصحراء، فى محاولة لاستعادة شبحه ولتبين مدى صدق رواياته المختلفة وتحديد التناقض بينها وبين الواقع.

من جانب آخر، وعلى الرغم من أن الكتاب يخلو من أى مقدمة تكشف لنا من هو المؤلف وأعماله الأخرى وأسباب اهتمامه بلورانس، فإن ما يستطيع القارئ أن يتلمسه من بين السطور أن المؤلف وزوجته من عشاق الصحراء وقطعا كيلو مترات عديدة على ظهور النياق فى رحلات مختلفة فى الصحراء العربية، كما اصطحب المؤلف ابنه الطفل فى بعض هذه الرحلات، لذلك لم يكن من الصعب عليه أن يقوم – بعد ثمانين عامًا – بنفس ما قام به الضابط الإنجليزى من مهام غامضة، ويبحث بنفسه ويشاهد مسرح المعارك المتوالية التى قدر لها أن تحدد مستقبل واحدة من أهم مناطق العالم أثناء وفى أعقاب الحرب العالمية الأولى.

أما لورانس ذاته فمن النادر أن تجد شخصية تجمع بين كل هذه التناقضات مثلما جمعها هذا الإنجليزى الذى عاش ٤٧ عامًا فقط، لكنه لعب دورًا فى منطقتنا مازالت آثاره قائمة حتى اليوم. فهو مازوكى وشاذ وضابط مخابرات وصديق شخصى ومستشار لفيصل ابن الشريف حسين وموثوق به من جانب رجالات العرب فى تلك الفترة، وهو باحث عن الشهرة وخائف منها، يرفض الأنواط والأوسمة ويقبل الصحافة ويحب الأضواء ويهرب منها، وقبل أن يرحل بسنوات قليلة استأجر خادمًا أقنعه بضرورة ضربه على ردفيه العاريين حتى يدميهما لتتحقق له ذروته الجنسية.

تعود هذه التناقضات لظروف طفولته وسنواته الأولى، فهو ابن ثرى إقطاعى من أيرلنده، تزوج أبوه من سليلة أسرة إقطاعية فى ريف أيرلنده، لكنها كانت مهووسة دينيًا على نحو ما، ويبدو أنها لم تكن تشارك زوجها مجونه وحبه للحياة، لذلك سرعان ما ارتبط بخادمة الأسرة الجميلة الشابة، وسرعان أيضًا ما اتخذ الرجل أخطر قرارات حياته: الهرب مع سارا الخادمة الجميلة واستقرا فى ويلز بعد أن رفضت زوجته الطلاق، وارتبط

الأب مع سارا بما يشبه الزواج العرفى.

وفى ويلز اضطرا – الرجل وزوجته – للعيش بعيداً عن الناس وتجنبا الآخرين وأنجبا ثلاثة أبناء، وحتى تثأر أم لورانس لنفسها من خطيئتها السابقة، تحولت فى تربيتها لأبنائها إلى امرأة بيوريتانية عنيفة فى طهرانيتها وتدقيقها فى المسائل الأخلاقية، ولم تتورع عن ضرب أبنائها بقسوة على أردافهم العارية بالعصا ليتمسكوا بأهداب الفضيلة، غير أن لورانس تحديداً تأثر أكثر من أخويه وظل الضرب بالعصا على ردفيه مؤثراً فيه حتى قبيل وفاته، وبينما اتجه أخوه الأكبر نحو سلك رجال الدين، كان الشقيق الأصغر وحده هو الذى قدر له أن يتزوج ويعيش مع أسرة، وفى كل الأحوال، سرعان ما فقدهما لورانس أثناء الحرب.

ويؤكد المؤلف أن علاقة لورانس بأمه هى أهم الحلقات التى أثرت فيه وطبعت شخصيته بذلك الطابع المعقد من المازوكية وحب الظهور وكرهه فى نفس الوقت والبعد عن الآخرين مع ضرورة إدهاشهم بغموضه، حتى إن «ليدل هارسا»، أحد خبراء الاستراتيجية المعاصرين للورانس شبهه بالمرأة التى ترتدى الحجاب وتكشف صدرها، أما ميوله الاستعراضية فهى استعراضية مقلوبة، أى الرغبة لا فى استعراض جماله ومهارته، بل لعرض قبحه ومعاناته وخزيه.

نعود إلى أسرة لورانس التى استقرت فى أكسفورد منذ عام ١٨٩٦ وقد سافر إليها المؤلف أثناء إعداد كتابه، بل ووقف أمام المنزل نفسه الذى عاش فيه لورانس. وإذا كان قد نشأ كما اعترف هو خجولاً من مظهره الجسدى وغرابته الانعزالية، فإن علاقته بالنساء كما كتب كانت بالغة التعقيد فهن لسن «بمصدر لذة لى، ولم أفكر أبداً مرتين أو حتى مرة واحدة فى قوام امرأة بينما تجد أجساد الرجال الساكنة أو المتحركة، خاصة فى الحالة الأولى صدى فى نفسى مباشرة وبصفة عامة».

كان لورانس مغرماً ومنذ يفاعته الأولى برحلات على الدراجة هنا وهناك ووصل فى بعضها إلى فرنسا، وحصل على عدة منح لدراسة التاريخ والآثار وأغرم بشكل خاص بمعمار القلاع الصليبية.

فى الوقت نفسه كان حفنة من شباب الضباط الأتراك قد استولوا على السلطة فى الإمبراطورية العثمانية التى كانت تعانى من شيخوختها وحكمها المطلق، ومن بين مظاهر هذا الحكم المطلق أن الشريف حسين ابن على أحد الأعضاء الأكبر سنًا فى الأسرة الهاشمية التى تنتمى إلى الحجاز كان منفيًا فى إسطنبول ويعيش تحت رقابة مشددة بعد أن كان السلطان عبد الحميد قد أمر باغتيال عمه الذى تم طعنه حتى الموت فى أحد شوارع جدة عام ١٨٨٠، كما اعتقل شقيقه فى زنزانة على مدى ٢٠ عامًا، على الرغم من أن الهاشميين كانوا من بين أكثر العائلات المبجلة بين المسلمين، وكان من الممكن تتبع نسبهم عبر ٣٧ جيلاً إلى الرسول (ص)، وعرفوا بوصفهم الرعاة التقليديين لمكة والمدينة.

لذلك قامت لجنة الاتحاد والترقى فور استيلائها على السلطة بتنحية أمير الحجاز السابق الذى عينه السلطان عبد الحميد وولت مكانه الأمير حسين بعد الإفراج عنه. وهكذا رست السفينة «طنطا» فى ديسمبر عام ١٩٠٨ فى ميناء جدة وعلى متنها الأمير حسين وأبناؤه الأربعة: على وعبد الله وفيصل، وأخيرًا زيد الذى ولد فى إسطنبول من زوجة الأمير الشركسية عادلة هانم. كان الأمراء الصغار قد تلقوا تعليمًا جيدًا شأنهم شأن نبلاء الإمبراطورية، رفيعى الثقافة يتحدثون التركية بطلاقة أكثر من العربية ويعرفون الإنجليزية والفرنسية، وعلى الفور استقبله شيوخ القبائل والتجار وأصحاب المراتب الرفيعة والقضاة وقدموا له فروض الولاء لتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ الجزيرة العربية.

أما لورانس، فقد كان من بين المنح التى حصل عليها للدراسة بمساعدة رجل يدعى هوجارث مهتما بالحيثيين وآثارهم، بعد أن قضى بعض الوقت مجندًا مبتدئًا بالفيلق المنشأ حديثًا بأكسفورد لتدريب الضباط، من بين هذه المنح واحدة لدراسة القلاع الصليبية فى سوريا ووصل بالفعل إلى بيروت فى صيف عام ١٩٠٩ وعلى مدى أسبوعين سار لورانس على قدميه بطول ساحل صيدا، وتقرب من الفلاحين الذين كثيرًا ما دعوه للدخول وللطعام والشراب، ومارس هو لغته العربية التى كان قد تعلمها حديثا ثم تجول فى عدة مدن فى سوريا ولابنان والعراق وتفقد عددًا من القلاع، بل وعاد ببعض الأختام الحيثية. وكما قال لورانس نفسه إنه زار ٣٦ قلعة وسافر على قدميه طوال الوقت وعاش كعربى وسط العرب

أما مايكل آشر- مؤلف الكتاب، فبعد تسعين عامًا قام بنفس رحلة لورانس لتدقيق ما ورد فى مذكراته واكتشف عددًا من الأكاذيب الصغيرة غير المهمة فى روايات لورانس عن رحلاته غير أنها تضفى أنواعًا جديدة من الغموض حول شخصية لورانس.

وفى عام ١٩١١ رافق هوجارث فى رحلة أخرى للقيام بحفريات جديدة لاكتشاف المدينة الحيثية الرئيسية على الحدود التركية السورية، وأتاحت هذه الرحلة احتكاكًا أكثر قربًا بالعرب، فقد كان يستأجر العمال الذين يقومون بالحفر ويناقشهم ويعرف منهم تفاصيل حياتهم وفى هذه الفترة عشق صبيًا هو السقاء سليم أحمد المكنى بـ «داهوم» وأهداه كتابه أعمدة الحكمة السبعة بالحروف الأولى: س.أ،بل ونحت له تمثالاً وهو عارٍ، ووضعه على سطح منزله.

كما شارك لورانس عالم المصريات الإنجليزى المعروف «بيترى» فى العام التالى فى حفرياته جنوب القاهرة، لكنه لم يحب المصريين وفضل عليهم البدو الذين سبق له أن عاش بينهم أثناء تنقيباته الأثرية فى الأردن وسوريا ولابنان وفلسطين.

وعندما توقفت الحفريات عاد إلى أكسفورد برفقه سليم أحمد وعربى آخر يدعى حمودى وقضيا معه عدة أشهر وتجول معهما فى الريف الإنجليزى. وفى نهاية ديسمبر عام ١٩١٣ تلقى برقية للعمل فى مسح للنقب شمال سيناء تحت رعاية صندوق فلسطين للتنقيب، وهى فى الواقع مهمة جاسوسية داخل الأراضى العثمانية. ورغم أن اللورد كتشنر المندوب السامى البريطانى فى مصر كان يعتبر شأنه شأن الحكومة الإنجليزية أن تركيا حليفة حكومة صاحب الجلالة، فإنه تشكك أن العثمانيين سينضمون لألمانيا فى حالة دخولها الحرب التى كانت تلوح فى الأفق، وكان المطلوب هو عمل مسح دقيق لحدود سيناء التى تحمى الشريان التاجى للإمبراطورية: أى قناة السويس، وفى الوقت نفسه كان من الضرورى لكتشنر أن يقوم بعملية جس نبض للهاشميين فى الحجاز ليعرف منهم ما إذا كانوا سيؤازرون إنجلترا أم يعادونها فى حالة الحرب. وبالفعل أرسل كتشنر عميلاً التقى بالأمير عبد الله فى الحجاز وكان رد الأخير أنه سيكون محايداً مؤقتًا، إلا أنه على استعداد ما إن يحصل على الدعم اللازم للقيام بثورة مسلحة.

وبعد عدة أيام أعلنت الإمبراطورية العثمانية الحرب رسميًا على بريطانيا، وفى أوائل ديسمبر عام ١٩١٤ تم إرسال لورانس إلى هيئة الأركان العامة بالقاهرة.

وهكذا التحق لورانس بالمخابرات البريطانية..

فى الحجاز كان الشريف حسين يعد العدة للاستقلال عن العثمانيين الذين سبق لهم أن أذاقوه الهوان أثناء إقامته الجبرية فى أسطنبول بعد قتلهم عمه، خصوصًا بعد أن حصل على معلومات تفيد أنهم قرروا التخلص منه، بينما كان القادة القوميون فى سوريا والعراق والضباط العرب فى الجيش التركى قد أرسلوا للشريف حسين أنهم يساندون ثورة ضد الأتراك من أجل استقلال العرب.

وانتهت الاتصالات السرية إلى أن الشريف حسين يطلب حكم كل الأرض العربية فى الإمبراطورية العثمانية مقابل مساعدته بريطانيا التى كانت تعانى من عدد من الهزائم العسكرية التى هددت وجودها، غير أن مكماهون الوزير البريطانى لم يستطع الموافقة على مطالب حسين لأن حليفته فرنسا كانت على وشك توقيع اتفاقية مشتركة لتقرير مصير العالم العربى بعد الحرب، بحيث تتولى فرنسا الانتداب – أى الاستعمار – على سوريا فى مقابل إطلاق يد إنجلترا فى مصر.

ورد مكماهون على حسين بأنه سيؤجل النقاش الكامل حول الحدود إلى ما بعد انتهاء المعارك مع تأكيد بريطانيا أنها مع استقلال العرب فى كل الأحوال (!!) وبعد أسابيع قليلة وقعت بريطانيا اتفاقية سايكس بيكو الشهيرة مع فرنسا وروسيا لتقسيم الشرق الأوسط فى حالة انتصار الحلفاء.

وعلى الفور بدأ ضابط المخابرات البريطانى لورانس عمله الشاق للإعداد للثورة العربية الكبرى (!!) فرحل إلى البصرة حيث كانت رحى الحرب الطاحنة تدور ومنها إلى أعالى دجلة، وتلقت الجيوش البريطانية عددًا من الهزائم المتتالية هنا وهناك إلا أن اليوم الحاسم اقترب .. ففى ٥ يونيو – ٥ يونيو مرة أخرى، إلا أنه هذه المرة عام ١٩١٦– رفع الشريفان على وفيصل رايات الهاشميين على أسوار مكة وأعلنا باسم كل العرب انتهاء حكم الأتراك العثمانيين.

وبقليل من المساعدة من البحرية البريطانية وعدد محدود من القوات المدربة والآليات الحديثة سيطر الهاشميون على أهم المدن فى الحجاز وحققوا نجاحًا دعائيًا لامعًا تحت قيادة ضابط مدفعية عراقى يدعى نورى السعيد ورئيس أركان متميز هو عزيز المصرى. كما رحل لورانس إلى الحجاز.. ارتدى ملابس البدو وعمل كضابط اتصال بين الهاشميين وبريطانيا، وشارك فى كل المعارك بلا استثناء، وعمل مستشارًا لفيصل، وجرح وأسر واغُتصب من جانب الأتراك بعد القبض عليه وتمكن من الهرب، ولم يحصل أجنبى على مثل هذه الثقة الكاملة والنهائية من جانب الهاشميين مثلما حصل لورانس.

وفى الوقت نفسه كان العرب قد اتفقوا مع بريطانيا على مساعدة الحلفاء على كسب الحرب ضد تركيا وألمانيا، فى مقابل استقلال العرب، واتفقت بريطانيا مع فرنسا على اقتسام الأرض العربية بعد انتصارهما فى الحرب.

والثابت والمؤكد أن لورانس قام بدور بالغ الأهمية فى المعارك التى دارت فى الحجاز، وشارك بنفسه فى عدد من المعارك لتفجير خط السكك الحديدية الذى كان يتيح وصول إمدادات متواصلة من مقر قيادة القوات التركية إلى الحجاز، كما شارك فى المفاوضات والاتصالات الشاقة بين الحلفاء والهاشميين، بل يمكن القول إنه كان العصب والمحرك لكل تفاصيل المعارك العسكرية والعمل السياسى المتواصل طوال شهور الحرب وظل لورانس فى معية فيصل يأكل معه ويحضر جميع المقابلات ويقترح الأفكار ويختفى حين يحضر مشايخ القبائل لمبايعة الهاشميين، واستحضر قدراته الهائلة ليؤثر بها على شئون فيصل، وغمر نفسه كليًا فى الثقافة العربية: فكان يراقب وينصت ويقلب الأمور ويفكر مليًا فى التفاصيل وينقب عن الدوافع والمكائد ويحلل الشخصيات، إلا أنه كان يتوخى الحذر دائمًا.

ولعله معروف الدور الأساسى والعميق الذى لعبه الهاشميون فى مساعدة الحلفاء، بل إن الانتصار الذى حققه الأخيرون فى الحرب يعود بشكل من الأشكال للمساعدة العربية. وحين استولى البلاشفة على السلطة بعد ذلك فى روسيا كشفوا للعالم الاتفاق السرى بين فرنسا وبريطانيا وروسيا لتقسيم العالم العربى.. وهكذا كانت مكافأة العرب..

وانتهت كل الآمال بتشكيل إمارة على عجل للهاشميين شرق الأردن كمكافأة سريعة،

وتم تشكيل العالم العربى وفق ما رأت مصالح الحلفاء أنه مناسب لها، كما أن وعد بلفور كان قد صدر وسرعان ما بدأت الخطوات الأولى من أجل تحقيقه وتمكين يهود العالم من الاستيطان فى فلسطين، وتصدير مشكلة إليهود الأوربيين التى أرقت أوروبا إلى الأرض العربية.

أما الجاسوس البريطانى لورانس فقد ساعد بلاده وخدع العرب وانتهت حياته كشاذ يتلقى على نحو منتظم ضربات بالعصا على ردفيه العاريين حتى يدميا ويحصل على ذروته الجنسية، ثم لقى حتفه بعد حادثة عبثية حين سقط من على دراجته البخارية وهو يسير ببطء، إلا أن الصدمة جاءت على رأسه ففقد حياته على الفور وهو فى السابعة والأربعين من عمره، بينما ظلت الخريطة التى شارك فى وضعها للعالم العربى قائمة حتى هذه اللحظة!!.

مشروع واینبرخم / علی بهجت

رحل المؤرخ المصرى د. أنور لوقا والأستاذ فى جامعة چنيف قبل أن يرى آخر كتبه «على بهجت .. أول أثرى مصرى» الذى أصدرته دار الهلال المصرية.

وينتمى د. أنور لوقا إلى ذلك الرعيل من الرواد الذين انشغلوا بالتأسيس وبناء اللابنات الأولى، فقد ولد فى صعيد مصر عام ١٩٢٧، وبسبب نبوغه المبكر حصل على الدكتوراه من السوربون وهو ما يزال فى الثلاثين من عمره، وكانت رسالته حول الرحالة والكتاب المصريين وتجربتهم فى فرنسا فى القرن التاسع عشر، وبعدها أعد دراسة تكميلية أخرى حول نص رفاعة الطهطاوى الشهير تخليص الإبريز، الذى تضمن رحلته العلمية إلى فرنسا، وقام أيضًا بترجمة النص إلى الفرنسية، لذلك استحق أن ينال دكتوراه الدولة وهى أعلى الدرجات العلمية هناك.

وإذا كان الطهطاوى – كما يشير إلى ذلك الأستاذ وديع فلسطين فى تقديمه لسيرة حياة د. لوقا – قد أقام جسراً بين الثقافتين العربية والأوربية، فإن لوقا عبر هذا الجسر فى اتجاهين: الأول نقل الثقافة والأدب العربيين إلى أوروبا، والثانى نقل الآثار التى ترفد الثقافة العربية من أوروبا إلى العرب.

لذلك ترجم عدداً كبيراً من الكتب المهمة إلى الفرنسية إلى جانب كتبه التى كتبها بالفرنسية فى الأصل، واهتم على مدى ثلاثين عاماً أقام خلالها فى أوروبا بدراسة الوثائق المتعلقة بالعلاقات الثقافية بين العرب وأوروبا، واكتشف جوانب مجهولة وشخصيات كان الغبار قد غطاها وطواها النسيان، ومن بين هذه الشخصيات التى أزاح الستار عنها قبل رحيله فى أغسطس ٢٠٠٣ كتابه عن على بهجت رائد البحث فى الآثار العربية فى مصر.

والمفارقة أنه لم يتبق من على بهجت إلا اسمه على أحد شوارع منطقة الزمالك بالقاهرة، وهو ما لفت انتباه أنور لوقا فى شبابه حين كان يزور صديقاً له يقيم فى هذا الشارع!.

وبعد سنوات وسنوات لفت انتباهه أيضاً ما كتبه د. حسين فوزى عنه فى الأهرام فى الستينيات.. وظلت فكرة إحياء دور على بهجت تناوشه حتى عثر على كنز حقيقى تمثل فى مجموعة من الرسائل المتبادلة بين على بهجت وتلميذه وصديقه السويسرى «واينبرخم» الذى يعرفه دارسو الآثار العربية جيداً ويعلمون فضل مؤلفاته الآثارية عن القدس والحرم والمدينة والقاهرة والفسطاط.

وقبل أن أعرض لعلاقة الصداقة المتينة القائمة على الود والاحترام بين الصديقين بهجت وواينبرخم، أشير إلى الخطوط العريضة لسيرة حياة بهجت الذى ولد عام ١٨٥٨، وأبوه تركى وكذلك جده، إلا أن الجد استوطن مصر، بعد أن عمل فى خدمة الحكومة المصرية سنوات طويلة وتزوج واستقر فى مصر، وفى عام ١٨٨٢ حين احتلت إنجلترا مصر وقمعت الثورة العرابية، كان على بهجت قد أتم دراسته وعمل معيداً بالمدرسة التجهيزية، إلا أنه، وبسبب حبه للتاريخ وميله للأبحاث الأثرية، انتدب للعمل فى البعثة الفرنسية للآثار فى مصر ليعينها على قراءة النصوص العربية المحفورة المزخرفة ومراجعة المخطوطات.

وخلال عمله فى حقل الآثار تعرف على شاب سويسرى، كان يزور مصر للمرة الأولى بعد أن تعلم العربية فى بلاده، وجاء بعد أن حصل على الدكتوراه عام ١٨٨٦ من جامعة ليبزج بألمانيا، وكان موضوعها «ملكية الأرض والضريبة العقارية فى عهد الخلفاء الأوائل»، فنال تلك الدرجة العليا بامتياز وهو ما يزال فى الثالثة والعشرين من عمره.. هذا الشاب

هو ماكس واينبرخم صديق على بهجت.

وحين وصل مصر للمرة الأولى بصحبه أمه، نزل إلى الميدان على الفور، حيث عاش فى الريف واختلط بالفلاحين فى إحدى قرى الدلتا. لم يضيع وقتًا، بعد أن لمس الفلاحون صدقه ووده، فقام بتسجيل الحكايات التى يسمعها فى دفتره كما سمعها باللهجة المصرية، ثم ترجمها إلى الفرنسية فيما بعد.

وفى القاهرة صحبه على بهجت إلى جبل المقطم وزارا عدداً من المساجد القديمة هناك وخصوصًا مسجد الجيوشى وشغل بقراءة النقوش المحفورة بالعربية، وعزم على دراسة هذه النصوص ومسحها مسحًا شاملاً فهى الطريق الوحيد للتعرف على الحضارة العربية الإسلامية.

وهكذا تعددت زياراته لمصر وتوثقت علاقته ببهجت ومن مصر انطلق مع عدد من أصدقائه إلى فلسطين حيث زار القدس ودمشق على مدى ثلاثة أشهر واهتم بالتعرف على الصروح الأثرية هناك والتقط لها الكثير من الصور الفوتوغرافية، وخطط تصنيفًا أوليًا للكتابات المنقوشة عليها.

وعاد إلى مصر مرة أخرى بعد زواجه وقضى مع عروسه شتاء عام ١٨٩٢ فى القاهرة. فى هذا العام تحديداً أطلق الصيحة المدوية لتنبيه علماء الغرب إلى الخطر الذى يهدد الآثار الإسلامية وما تشمله من كتابات عربية بالاندثار، وأعلن أنه سيتصدى شخصيًا لإنشاء علم الكتابات العربية، لأنه لم يرد على خاطر العلماء العرب إحصاء آلاف الكتابات الأثرية المنقوشة على المساجد والعمائر القديمة.

لم تكن صيحته مجرد تنفيس عما يشعر به تجاه النقوش والكتابات التى أحبها، فبصحبة ومعاونة على بهجت، طاف واينبرخم بكل بناء أقيم. فى العصر الإسلامى فى القاهرة من المساجد والأضرحة والأسبلة والقصور والقلاع، ونسخ على أوراقه كل الكتابات والنقوش، وقام بتصويرها فوتوغرافيًا، وصنفها حسب تسلسلها التاريخى مع تحقيق النصوص من خلال الرجوع إلى كتب المؤرخين العرب ومخطوطاتهم.

وفى هذا السياق يجب الإشارة إلى أن التصوير الفوتوغرافى فى ذلك الوقت كان ما يزال فى بداياته، والآلات المستخدمة كانت ثقيلة، ولهذا كان يحملها على ظهر حمار مع

مجموعة من المساعدين، وكان ينتظر حتى عودته إلى أوربا ليقوم بتحميضها.

والحقيقة أن مشروع واينبرخم كان أضخم من طاقة فرد واحد، إلا أنه وعلى مدى عشرين عامًا أنجز وحده مجلداً ضخمًا عن الكتابات الأثرية فى مصر، فضلاً عن ثلاثة مجلدات أخرى خصصها لمدينة القدس والحرم القدسى، غير أنه لم يشهد خروج المجلدين الأخيرين إلى النور، حيث قضى نحبه فى ظروف مأساوية وهو ما يزال فى السابعة والخمسين من عمره.

وعلى مدى ثلاثة وثلاثين عامًا هى عمر صداقته مع على بهجت، تبادلا عشرات الرسائل، والواقع أنها تشكل كنزًا ثمينًا كما أشرت فى البداية فهى مكتوبة بلغة تجمع بين الفصحى والعامية، ولا تقتصر على التبادل العلمى والأثرى فحسب، بل نعلم منها عمق العلاقة الأسرية بين العائلتين: عائلة بهجت فى مصر وعائلة واينبرخم فى سويسرا.

وحتى يتعرف القارئ على حجم الإنجاز العلمى لبهجت وهو الأمر الذى يفسر عمق العلاقة بين العالمين اللذين نذرا حياتهما من أجل الحفاظ على الذاكرة العربية، أنقل السطور التالية من رسالة بعث بها على بهجت لصديقه واينبرخم عام ١٩١٩:

«إننى كما تعلم مشتغل بالفسطاط وبدار الآثار، أما الفسطاط فعملى فيها قد أتى والحمد لله مسليًا لى نوعًا، وأبنت الطرق والحوارى والخوخات، ورسمت كل ذلك فى خرطة، ثم قرأت ابن دقماق والمقريزى وغيرهما من الكتب التى تكلمت عن الفسطاط، ولخصت من ذلك رسالة فى وصف المدينة وما كانت عليه، ثم ما آلت إليه. وأتعشم أننى وفيتها حظها من البحث، وسأطبع هذا البحث على حدة فى شتاء العام المقبل، وسيكون فى هذا الكتاب أيضًا – مع خريطة المدينة المكشوفة – رسم لبعض دور المدينة، وأتكلم عليها من حيث تخطيطها وترتيبها، لكنى سأستعين فى هذا العمل الفنى بأحد المهندسين أرباب الفن».

ويضيف بهجت فى رسالته أنه فى سبيله لإنجاز رسالة أخرى فى (الرنوك) وهى شارات الملوك والسلاطين وكبار الموظفين بعد أن رسم جميع الرنوك الموجودة على مبانى القاهرة وتضم إلى جانب رنوك الملوك، أرباب الوظائف عند سلاطين مصر مثل كاتب السر

والقاضى والدوادار وغيرهم.

ويكشف بهجت عن أمر آخر فى رسائله، حيث يسر لصديقه أن رئيسه على مبارك – صاحب الخطط التوفيقية الشهيرة التى تضم عدة مجلدات تشكل مسحًا لكل حارات وأزقة القاهرة – كان يكلفه بعشرات الأبحاث التى يضمها لمجلداته وينسبها إلى نفسه!

أما الجهد الذى بذله د. أنور لوقا فى تحقيق الرسائل المتبادلة والتعليق عليها وتحليلها، فهو جهد يليق حقًا بأن يكون آخر أعماله قبل رحيله كما أن قصة اطلاعه على كنز الرسائل تستحق أن تروى. ففى سويسرا، انتحر واينبرخم فى الثامنة والخمسين إثر مرض عضال أصابه بانهيار نفسى، وقد حرصت ابنة واينبرخم التى تعرف عليها د. لوقا فى سويسرا على مواصلة سعى أبيها، لأنه كان قد خلف ذخيرة من المواد التاريخية المحققة، وصانتها ابنته لأكثر من نصف قرن وحفظتها حتى قررت قبل أن يوافيها الأجل أن تودعها بأكملها فى مكتبة چنيف لتكون فى متناول الباحثين ولم تكتف بهذا، بل أنشأت عام ١٩٧٣ مؤسسة تحمل اسم أبيها وخولتها الملكية الفكرية لإصدار مؤلفات ومخطوطات واينبرخم بالصورة اللائقة.

وفى النهاية يجب الإشارة إلى أن على بهجت كان بدوره قد تعرض لظروف مأساوية من بينها موت ابنه الوحيد وهو لم يزل بعد شابًا، لذلك ما إن علم بنبأ انتحار أقرب أصدقائه إلى قلبه، والذى قضى معه سنوات فى عمل متواصل سواء فى مصر أو أوروبا، ما إن علم بنبأ الانتحار حتى صار شبه حطام، ورحل بعد ثلاث سنوات فقط ..

عائشة التيمورية .. ماذا يتبقى منها؟

ولدت وفى فمها ملعقة من الذهب كما يقال.. هى بنت الحسب والنسب والأصول. عاشت كل حياتها كما أرادوا لها ولم تخرج عن الحدود المرسومة والمحددة سلفًا فى كل شىء. وبينها وبين نفسها فى الخفاء كانت تكتب الشعر، وكأنما تخفى تحت السطح الهادئ بركانًا لم يجد له متنفسًا إلا فى شعرها الذى كان حياتها الحقيقية والوحيدة!

هذه السيدة هى عائشة التيمورية. ربما لا يذكرها الكثيرون وربما غفلت عنها كتب الأدب والنقد لأسباب عديدة، لعل أهمها أنها ولدت وعاشت فى القرن التاسع عشر، عندما لم يكن مسموحًا للمرأة أن تغادر الحدود المرسومة لها وهى جدران بيتها على الأغلب.

ومع ذلك فقد شكلت مع محمود سامى البارودى أولى المحاولات الجادة لاستعادة مجد الشعر العربى وابتعاثه واستنهاضه ووصل ما انقطع، بعد أن كان قد سقط تمامًا من عليائه، وغرق فى مستنقع الركود وإعادة إنتاج نفس المعانى والأخيلة التى ميزت الشعر المكتوب خلال العصرين المملوكى والعثمانى.

لذلك لم يكن غريبًا أن تكتب عنها مى زيادة:

«وإذا قدر للمرأة المصرية أن تلج باب الشعر والأدب، وتمعن فى المسير فى ما وراءه

من فسيح المسافات، كان مرجع الفضل إلى التيمورية التى نشرت أول علم فى الجادة غير المطروقة، وبكرت فى إرسال الزفرة الأولى أيام كانت تكتم الزفرات، وكان إرسال الصوت فى عالم الأدب يحسب للمرأة عاراً وجريمة».

وتضيف:

«ويوم ينمو الأدب النسائى فى هذه البلاد، فيجىء حافلاً بحياة فنية غنية، ستظل أناشيد عائشة التيمورية لذيذة محبوبة كترنيمة المهد القديمة التى همهمت بها لنا أمهاتنا، شجية مطلوبة كشدو القصب».

والحقيقة أن الشعر العربى كان قد توقف قرابة ثمانية قرون قبل أن يفسح المكان لامرأة تكتب الشعر بكل هذا التجديد والحيوية فبانتهاء حياة الشاعرة الأندلسية ولادة بنت المستكفى عام ١٠٩١م دخل الشعر النسائى فى غيبوبة طويلة، بعد أن كان قد حفل بشاعرات خلدن بشعرهن حياتهن وحققن إضافات باهرة مثل الخنساء وليلى العفيفة وجليلة بنت مرة وهند بنت النعمان وغيرهن.

أما حياتها الشخصية فتكاد تخلو من العواصف والأنواء التى حفل بها شعرها. عاشت عائشة التيمورية سبعة حكام من أسرة محمد على، وامتزجت ثلاثة عناصر فى دمها. ولدت عام ١٨٤٠، وجدها لأبيها كردى اسمه تيمور ابن إسماعيل ابن كرد ابن على وكان ضابطًا فى جيش محمد على وموضع ثقة حتى إنه تولى إمارة المدينة المنورة خمس مرات، والعنصر الثانى تركى انحدر إليها من والد جدتها لأبيها الذى شغل منصبًا رفيعًا هو رئاسة الديوان الهمايونى فى عهد السلطان سليم الثالث، أما العنصر الثالث والأخير فهو الجركس وينحدر إليها من والدتها التى أعتقها سليمان تيمور والد عائشة وتزوجها، على عادة أرستقراطيى ذلك الزمان.

وكما سبق أن ذكرت، فإن عائشة كانت بنت أصول «ونشأت فى فمها ملعقة من الذهب» دون أى مبالغة، وفى الوقت نفسه كانت تنتمى لبيئة جامدة محافظة تحرص على تقاليد النفاق الاجتماعى وكعادة بنات هذه الطبقة دفعتها أمها للاشتغال بالتطريز وقد أشارت عائشة بنفسها إلى هذا فى روايتها الباكرة «نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال» حيث كتبت:

«.. فلما تهيأ العقل للترقى، تقدمت إلىَّ ربة الحنان والعفاف.. والدتى تغمدها الله بالرحمة والغفران بأدوات التطريز والنسيج، وصارت تجدُّ فى تعليمى وتجتهد فى تفطينى وتفهيمى وأنا لا أستطيع التلقى، ولا أقبل فى حرفة النساء الترقى، وكنت أفر منها فرار الصيد من الشباك، وأتهافت على حضور محافل الكتاب بدون ارتباك، فأجد فى صرير القلم فى القرطاس أشهى نغمة، وأتحقق أن اللحاق بهذه الطائفة أوفى نعمة».

كانت تلك أولى درجات تمردها – والأخيرة أيضًا – عندما رفضت التطريز وأشغال الإبرة وأقبلت على القراءة والاطلاع، وكان من الممكن أن يستمر هذا الصراع بينها وبين أمها حتى ينتهى بانتصار الأم، فالابنت فى نهاية الأمر سوف تتزوج وتتحمل مسئوليات جديدة وتنسى كل ماعدا ذلك، إلا أن أباها كان مثقفًا وليس مجرد رئيس للديوان العام للخديو، وكان يقيم فى منزله صالونًا يدعو له نجوم المجتمع ويحتفظ بمكتبة عامرة تضم أمهات التراث وبثلاث لغات هى العربية والفارسية والتركية.

وفى دراستها الطويلة عن عائشة التيمورية فى كتابها: «باحثة البادية وعائشة التيمورية» كتبت مى زيادة أن والد عائشة قال لأمها:

«احذرى من أن تكسرى قلب هذه الصغيرة، وأن تثلمى بالعنف طهره. وما دامت ابنتنا ميالة بطبعها إلى المحابر والأوراق، فلا تقفى فى سبيل رغبتها وميلها».

وبالفعل أحضر لها أبوها اثنين من المعلمين، الأول للقرآن الكريم والفقه والخط، والثانى للنحو والصرف واللغة الفارسية، كما اقتطع لها من وقته الثمين ومن بين مشاغله العديدة ساعتين كاملتين يوميًا ليراجع معها دروسها. وجاءت النتيجة بسرعة شديدة فإن عائشة سرعان ما تفوقت، بل وأتقنت اللغات الثلاث: العربية والفارسية والتركية، واستغرقت فى قراءة شعرنا القديم، وسرعان ما نظمته أيضًا.

وعندما بلغت الخامسة عشرة من عمرها، وكعادة بنات عصرها، تزوجت من أحد أقربائها وهو محمد توفيق بك، ورحلت معه إلى إسطنبول، وأنجبت ثلاثة أطفال تفرغت لرعايتهم على مدى عشرين عامًا كاملة، حتى توفى زوجها فعادت إلى القاهرة مع أبنائها بعد فترة هدأت أحزانها قليلاً، ففكرت فى وصل ما انقطع، بل وجلبت معلمتين لتنشيط

ذاكرتها، وأمكنها أن تستعيد ما كانت قد اضطرت للانصراف عنه، استعادت مع فاطمة الأزهرية النحو، ومع ستيتة الطبلاوية العروض.

منحها كل هذا الوقت والهدوء والحياة الرخية العودة لدفاترها القديمة، وزادت على ما سبق أن كتبته قصائد أخرى عديدة، واستعدت لإصدار ثلاثة دواوين دفعة واحدة الأول بالعربية والثانى بالتركية والثالث بالفارسية، وفجأة رماها القدر بأقصى ضربة تعرضت لها فى حياتها، فقد ماتت ابنتها «توحيدة» ذات الثمانية عشر ربيعًا، كانت الضربة أقسى مما يمكنها تحملها، فاعتزلت الدنيا وانخرطت فى بكاء ونواح استمر سبع سنوات!

حاول ابنها محمود أن يخفف عنها لوعتها، واستطاع بعد لأى أن يقنعها بإخراج دواوينها إلى النور وأجابته عائشة:

«فى استطاعتى الآن أن أنظم شيئًا من الشعر شكرًا لله: أما أشعارى الماضية فقد أحرقتها كلها، ولا أظن أن فى مكتبتى إلا الشىء اليسير منها بالعربية والتركية أما أشعارى الفارسية، فإنها لما كانت فى محفظة فقيدتى فقد أحرقتها بمحفظتها كما احترق كبدى وإنى وهبتك ما عندى من الكتب والأوراق، فاصنع بها ما شئت، وإن رأيت بها جدارة بالطبع فاطبعها».

وهكذا استطاع ابنها محمود توفيق إنقاذ ما يمكن إنقاذه، ومن بين ما أنقذه ديوانها «حلية الطراز» بالعربية، وديوان آخر بالفارسية والتركية عنوانه «شكوفه».

ويبدو أن جرحها قد اندمل، أو ربما أن نشر هذين العملين أبهجها ودفعها للعودة إلى الكتابة، فكتبت روايتها «نتائج الأحوال فى الأقوال والأفعال»، وكتابًا آخر يناقش الزواج وأمراض الحياة الأسرية والقضايا الاجتماعية المرتبطة بعلاقة الرجل بالمرأة عنوانه «مرآة التأمل فى الأمور» وكذلك تمثيلية لم تكملها وعنوانها «لقاء بعد الشفاء» فقد وافتها المنية قبل أن تنتهى منها.

بطاقة هوية لامرأة مختلفة

تشكل سيرة حياة «درية شفيق» لوحة تراچيدية عنيفة الألوان، تختلط فيها مشاعر اللوعة والفراق بالتحقق والاكتمال، والانكسار بالانتصار، وخاضت تجارب متوالية على مدى أكثر من ستين عامًا، وجابت الدنيا ممثلة لمصر فى عواصم العالم مدافعة عن حقوق المرأة ضد مضطهديها، ومن مصر الملكية إلى مصر جمال عبد الناصر لم تتوقف درية شفيق عن اختياراتها ومواقفها حتى حددت إقامتها لتخلد إلى الصمت الذى فرض عليها سبعة عشر عامًا، قبل أن تضع حدًا لحياتها بنفسها.

سيرة حياة درية شفيق- بكل أسف – لم تكتبها امرأة مصرية أو عربية بل باحثة أمريكية هى سينثيا نلسون فى كتاب صدر فى الاحتفالية التى أقيمت فى ذكرى مرور مائة عام على صدور كتاب قاسم أمين فى القاهرة وترجمت الكتاب نهاد أحمد سالم.

قد يختلف قارئ الكتاب أو يتفق مع اختيارات ومواقف درية شفيق، وقد يرى فى بعض مواقفها ميولاً استعراضية فى أحيان قليلة، بل قد يدين بعض مواقفها، إلا أن الأمر المؤكد أنها بالغة الصدق ودفعت الثمن كاملاً لاختياراتها ومواقفها.

غابت درية شفيق، وغاب دورها مبكرًا، غير أن بصماتها على القضية التى نذرت

حياتها من أجلها مازالت تتلألأ على الرغم من غبار السنين وتراب النسيان الذى قامت بنفضه عن صورتها باحثة أمريكية – للأسف كما سبق أن أشرت – وقد بذلت جهوداً ينبغى الاعتراف بها، فإلى جانب عكوفها على مذكرات درية شفيق المكتوبة بالإنجليزية والفرنسية – ولم تنشر للأسف، مرة ثالثة – قامت بإجراء مقابلات شخصية مع معاصريها وأفراد أسرتها وقرأت كل ما توافر لها من أدبيات الحركة النسائية فى مصر حتى استطاعت أن تخرج لنا فى نهاية الأمر هذه اللوحة الحافلة لدرية شفيق أو بنت النيل كما أحبت أن تطلق على نفسها دومًا.

ولدت درية شفيق عام ١٩٠٨ فى دلتا مصر فى بيت جدتها لأمها وجاء ترتيبها الثالث بين إخوتها الستة وهى الطفلة الثانية لرتيبة ناصف وأحمد شفيق. ينتمى أبواها لطبقتين مختلفتين فالأم تنحدر من أسرة من كبار الأعيان يحمل جدها لقب باشا، بينما الأب ينحدر من أسرة بسيطة واستطاع بالكاد أن ينهى دراسته بمدرسة «المهندسخانه».

وظل هذا الفارق الطبقى مصدر ألم للطفلة الصغيرة درية، على الرغم من أن أباها كان يحترم أمها ويحبها وظل وفيًا لها، على عكس رجال تلك الأيام الذين كانوا يتعاملون مع نسائهم بوصفهم آلهة صغاراً.

وتنقلت درية بين ثلاث مدن لتتلقى تعليمها بين المنصورة وطنطا والإسكندرية، وفقدت أمها فى سن الثالثة عشرة فتلقت أعنف صدمة وهى فى أوائل سنى مراهقتها. وعلى الرغم من ذلك وربما بسبب هذه الصدمة استطاعت أن تحصل على شهادة البكالوريا الفرنسية (الثانوية العامة التى كانت واحدة من أرفع الشهادات خصوصًا بالنسبة للفتيات)، وهى فى سن السادسة عشرة كانت أصغر الحاصلين على هذه الشهادة التى انتزعتها بتفوق حتى كانت الثانية على البلاد.

بسبب هذا التفوق والنبوغ المبكر راودتها فكرة السفر إلى باريس والالتحاق بالسوربون، غير أن موارد أبيها المالية لم تكن تسمح بذلك فكتبت رسالة إلى هدى شعراوى رائدة الحركة النسائية فى مصر تطلب منها أن تساعدها فى تحقيق حلمها، وبالفعل ساعدتها وحصلت درية على منحة من وزارة التعليم.

وفى أواخر صيف عام ١٩٢٨، كانت درية تستقل الباخرة من الإسكندرية فى اتجاه مارسيليا بصحبة إحدى عشرة فتاة مصرية. وفى المكتب المصرى للبعثات فى باريس أخبروها أن من شروط المنحة المقدمة من الوزارة دراسة أحد فروع التربية النسوية، واختاروا لها التاريخ والجغرافيا ليتم تعيينها مدرسة، فرفضت وطالبت بدراسة الفلسفة، وكان الرد بالطبع هو الرفض لأن الوزارة تنفق على المنح وفق شروطها. اضطرت درية للجوء لطه حسين الذى تدخل بحسم من أجل أن تلتحق هذه الطالبة المجتهدة بالفرع الذى اختارته.

شأنها شأن طلاب البعثات واجهت صدمة الغرب المتفوق، غير أنها سرعان ما استعادت وعيها وانصرفت إلى دراستها للفلسفة والاجتماع والأمراض العقلية، كما هامت حبًا بالموسيقى، وتعرفت إلى شاعر فرنسى أدرك موهبتها الشعرية منذ أطلعته بخجل على بعض محاولاتها.

على أى حال عادت درية إلى الوطن بعد أن حصلت على ليسانس الدولة بمرتبة الشرف عام ١٩٣٢ ومنذ وصولها لم تتوقف عن بذل الجهود من أجل الحصول على منحة أخرى لاستكمال دراستها وإعداد رسالة الدكتوراه من السوربون.

وعادة ما كانت درية تقضى عطلاتها الصيفية فى الإسكندرية، وفى صيف عام ١٩٣٥ تعرفت إلى الصحفى الشاب أحمد الصاوى محمد، وبسبب ملابسات عديدة تزوجته درية بسرعة، فقد كان صحفيًا موهوبًا ومعروفًا بمقالاته المستنيرة دفاعًا عن حرية المرأة وتخرج فى السوربون. وأصرا معًا على أن يكون صداقها خمسة وعشرين قرشًا ليحطما بذلك أعتى التقاليد، لكن زواجها لم يستمر إلا أسابيع قليلة، فقبل زفافهما الرسمى كشف أحمد الصاوى عن حقيقته كشرقى عادى وطالبها بأن تلزم البيت وحاول ابتزازها بأساليب غير أخلاقية، لكنها أصرت على الطلاق الذى أجبرته عليه درية إجبارًا، على الرغم من أن الطلاق فى تلك الأيام كان يعتبر سبة أخلاقية فى جبين أى امرأة.

لم يكن أمامها إلا أن تقاوم أحزانها وصدمتها العنيفة المفاجئة فعادت إلى السوربون للتحضير لشهادة دكتوراه الدولة فى الفلسفة، وهى الشهادة التى تؤهلها للتدريس فى

جامعات فرنسا. وهناك التقت بابن خالتها نور الدين رجائى الذى كان يدرس للحصول على الدكتوراه فى القانون التجارى وبسبب فارق السن بينهما، فهى أكبر منه، لم تنشأ بينهما علاقة ما فى الوطن، فضلاً عن أن خالتها كانت تنتمى لطبقة أعلى بسبب زواجها من أحد الأثرياء.

ودون أى تدبير من جانبهما ربط الحب بينهما وتزوجا بعد أشهر قليلة من لقائهما كانت هى فى سن التاسعة والعشرين وهو فى سن الثانية والعشرين غير أن حبهما كان أقوى من هذا الفارق العمرى فضلاً عن الطبقى.

وأخيرًا عادا وكل منهما يحمل شهادته، وعمل نور أستاذًا فى كلية الحقوق، بينما عرض على درية أن تعمل مفتشة للغة الفرنسية فى المدارس الثانوية، وهى وظيفة أقل بكثير من شهادتها إلا أنها قبلت مؤقتًا بعد أن رفض عميد كلية الآداب أحمد أمين قبولها للتدريس بسبب أناقتها الباريسية بعد أن التقى بها مرة واحدة، وأصر على تقديم استقالته لو عيّنت درية أستاذة بالكلية رغم أنها كانت واحدة من قلة قليلة جدًا ممن حصلوا على دكتوراه الدولة.

أنجبت درية طفلتين هما عزيزة وچيهان وعاشت أهدأ سنوات عمرها مع زوج تحبه ويحبها ويحترمها فى بحبوحة من العيش وأسكنها فى شقة بالزمالك بجوار النيل الذى طالما أحبته منذ طفولتها فى المنصورة.

وانضمت هى وزوجها لنادى السيارات الذى كان أحد النوادى المعدودة للأرستقراطية المصرية بسبب اعتياد الملك فاروق السهر فيه على موائد القمار، وكثيرًا ما لعب زوج درية – نور رجائى – على مائدة الملك وهو الشرف الذى كثيرًا ما كلفه مبالغ مالية هائلة!

أما بداياتها لرفض هذه الحياة والانقلاب عليها فكانت عام ١٩٤٤ حين نشرت بحثها المكتوب بالفرنسية «المرأة الجديدة فى مصر» والموجه بالطبع للصفوة التى تقرأ الفرنسية وأشارت فيه إلى الأوضاع الجديدة للمرأة فى مصر وركزت على الجانب الاجتماعى تحديدًا، وناشدت الصفوة من نساء القصر والطبقات العليا أن يعبئن مواردهن المعنوية والمادية من أجل إحداث التغيير والتحول فى الظروف الفظيعة التى تعانى منها البلاد

كمكافحة الثالوث البغيض: الفقر والجهل والمرض.

وفى الشهور الأولى من عام ١٩٤٥ تلقت درية اتصالاً هاتفيًا من أحد أصدقاء زوجها الذى تعمل زوجته وصيفة للأميرة شويكار طليقة الملك فؤاد وأحد أعضاء الأسرة المالكة عارضًا عليها أن تتولى تحرير مجلة ثقافية وأدبية تنوى الأميرة شويكار إصدارها.

وعندما قبلت، كان أحد أحلامها أن تشترك فى الحياة العامة وتضع أفكارها موضع التطبيق لكنها سرعان ما عانت من دسائس القصر وصراعاته ومؤامراته التى تتسم بالصغار والانحطاط. وفشلت درية فى التواؤم مع هذا الوضع الجديد، فهى محسوبة على مجتمع فاسد ومطعونة فى هويتها ووطنيتها بسبب ارتباطها بنساء القصر وأميراته، فتركت كل ذلك فى خطوة بدت جنونية، لكن زوجها وقف بجانبها، وكان قد استطاع أن يؤسس مكتبًا للمحاماة وفر له موارد مالية هائلة ولأنه كان يحبها ويحترمها فقد وافق على أن تخوض تجربة جديدة هى إصدار المجلة النسائية بنت النيل التى استمرت فى الصدور حتى عام ١٩٥٧، وباعت فى الساعتين الأوليين من صدورها ٥٠٠٠ نسخة وهو رقم مذهل بكل المقاييس.

كانت تجربتها الثانية أكثر تطورًا وأكثر قربًا من الواقع وقضاياه واستعانت بعَلَمين من أعلام تدريس الصحافة فى ذلك الوقت وهما إبراهيم عبده وخليل صابات فى المرحلة الأولى، وفى المرحلة الثانية استعانت بالصحفى اليسارى الشاب لطفى الخولى.

ووقفت المجلة إلى جانب الفلسطينيين فى بدايات الصراع بين الصهاينة والعرب فى الأربعينيات، وطالبت بجلاء الاحتلال الإنجليزى عن مصر وشاركت فى انتفاضة ١٩٤٦ ضد تحالف الاحتلال والقصر الملكى.

تقول المؤلفة سيثيا نلسون:

مجلتا بنت النيل والمرأة الجديدة تمثلان معًا محاولة درية لتشكيل صورة جديدة للمصريين وللمرأة العربية فى مرحلة ما بعد الحرب، وهما أيضًا تكشفان عن الخطين المتنافسين فى حياتها: الجمال والنضال، وكيف أنهما مرتبطان بعمق فى تجربتها وهى تستكشف مصيرها.

وبعد هزيمة جيوش الملوك العرب أمام الصهاينة عام ١٩٤٨ هاجمت درية شفيق

التخاذل العربى ووقوف الغرب مع الصهيونية من جانب، ومن جانب آخر كانت الحركة النسائية التقليدية تحتضر فى مصر خصوصًا بعد رحيل هدى شعراوى رائدة العمل النسائى، لذلك اتجهت درية بكل قواها نحو إنقاذ الحركة بتأسيس اتحاد بنت النيل الذى انتخبت رئيسة له.

أما التناقض الذى ظل عالقًا ولم تستطع درية أن تحله فهو عدم إدراكها أن القضية ليست هى تحرر النساء، بل تحرر المجتمع، وأن الأمر ليس مجرد أغنياء عليهم أن يساعدوا النساء الفقيرات المهضومات الحقوق، على عكس نساء أخريات ينتمين للأرستقراطية أيضا مثل إنجى أفلاطون التى اختارت أن تكافح فى صفوف اليسار من أجل الأهداف نفسها تقريبًا.

وقد نجح لطفى الخولى نجاحًا محدودًا فى تسييس اتحاد بنت النيل، إلا أن هذا أدى إلى نشوء خلافات بين نور رجائى ودرية شفيق. وفى عام ١٩٤٩ سافرت إلى زيورخ لتسجيل اتحاد بنت النيل فى المجلس الدولى للمرأة مما منحها احتكاكًا بمختلف الاتجاهات النسوية، ومن هناك سافرت إلى باريس بعد أن نشر أول ديوان لها فى دار نشر كانت تصدر أعمال أراجون وإلوار نيرودا.

وفى عام ١٩٥١ اقتحمت مع مجموعة من نساء اتحاد بنت النيل البرلمان واعتصمن به من أجل إصدار قانون يمنح المرأة حقوقها السياسية فى الترشيح والانتخاب وقدمت للمحاكمة، كما شاركت فى تنظيم المظاهرات احتجاجًا على استمرار الاحتلال البريطانى حتى قامت ثورة ١٩٥٢ فأيدتها درية وتمت الموافقة على تحويل اتحاد بنت النيل إلى حزب سياسى وكان أول حزب سياسى نسائى فى مصر.

لكن شهر العسل القصير بين الثورة ودرية شفيق انتهى بأسرع ما يمكن، فقد رفضت قرارات حكومة يوليو العسكرية ونظمت إضرابًا عن الطعام مع مجموعة من عضوات الاتحاد حتى تستجيب الحكومة لمطالبهن السياسية وتمنحهن كامل حقوقهن فى الانتخاب والترشيح للمجالس النيابية.

وبعد نجاح مجموعة جمال عبد الناصر عام ١٩٥٤ فى صراعها مع محمد نجيب قامت

درية شفيق بجولة طويلة كانت أشبه برحلة حول العالم بين نهاية عام ١٩٥٤ وبداية عام ١٩٥٥ حيث حضرت الاجتماع المهم للمجلس الدولى للمرأة فى هلسنكى ومن هناك سافرت إلى الولايات المتحدة ثم اليابان والهند والباكستان، فقد أصبحت درية شفيق واحدة من أشهر نساء العالم خصوصاً بعد دخولها الإضراب المفتوح عن الطعام.. وفى هذه الأثناء، وحتى تستطيع شرح قضايا المرأة فى بلادها للجمهور الذى يتحدث الإنجليزية، تعلمت فى أسابيع قليلة الإنجليزية التى لم تكن تعرف منها حرفًا واحداً.

وعندما عادت من جولتها حول العالم، كان عبد الناصر قد نجح فى أن يصبح واحداً من زعماء حركة التحرر الوطنى وحقق إنجازات هائلة على المستوى الداخلى منها منح المرأة حق التصويت، لكنه من ناحية أخرى كان قد أصدر قرارات بأن تتولى الدولة الإشراف على كل المنظمات الاجتماعية بعد إلغاء الأحزاب فكانت بداية النهاية، وبداية عزلة درية شفيق، فالنجاح الجماهيرى لعبد الناصر كان أكثر من ساحق خصوصاً بعد العدوان الثلاثى.

وفى عصر الأربعاء ٦ فبراير ١٩٥٧ دخلت درية السفارة الهندية على بعد خطوات من منزلها بالزمالك وأعلنت الإضراب عن الطعام حتى الموت فى بيان وجهته بالعربية إلى جمال عبد الناصر وبالفرنسية إلى الأمين العام للأمم المتحدة قالت فيه:

«نظراً للظروف العصيبة التى تمر بها البلاد قررت بحزم أن أضرب عن الطعام حتى الموت بغية نيل حريتى الخارجية والداخلية وأنا كمصرية وعربية أطالب السلطات الدولية بإجبار القوات الإسرائيلية على الانسحاب فوراً من الأراضى المصرية والتوصل إلى حل نهائى لمشكلة اللاجئين العرب، ثانياً أطالب السلطات المصرية بإعادة الحرية الكاملة للمصريين رجالاً ونساءً، وبوضع حد للحكم الدكتاتورى الذى يدفع ببلادنا إلى الإفلاس والفوضى، وأنا وحدى أتحمل مسئولية التخلى عن حياتى من أجل تحرير بلادى تاركة ورائى زوجى الدكتور نور الدين رجائى وابنتىّ، فإذا مسهم شىء فإنى أحمل الرأى العام العالمى والمصرى المسئولية».

بالطبع كانت أزمة سياسية انتهت بتحديد إقامة درية شفيق فى بيتها ومنعها من الخروج نهائياً..

وتتابعت الكوارث بعد ذلك، فقد قبض على زوجها بزعم اشتراكه فى مؤامرة ضد عبد الناصر، وبعد أن قضى عدة أشهر رهن الاعتقال أفرج عنه وبعد عدة أشهر تم الطلاق فى هدوء بينه وبين درية، واستسلمت درية للعزلة الإجبارية التى فرضت عليها بعد أن كانت ملء السمع والبصر، وحتى بعد وفاة جمال عبد الناصر والسماح بسفر درية للولايات المتحدة لحضور ولادة أول حفيد لها من ابنتها عزيزة ظلت معزولة لكنها العزلة التى فرضتها على نفسها بعد أن أثخنتها الجراح.

ولأنها امرأة غير عادية، فقد أنهت حياتها بطريقة غير عادية أيضًا.

هاجمها اكتئاب نفسى حاد منذ عام ١٩٧٣، وحاولت العلاج لكنها فشلت فوضعت – شأنها شأن أغلب مريضات الاكتئاب – حدًا لحياتها بانتحارها فى ٢٠ سبتمبر عام ١٩٧٥ بأن ألقت بنفسها من شرفة مسكنها بالدور السادس.

تلك هى الخطوط العريضة لرحلة درية شفيق، وهى كما يرى القارئ تبدو أبلغ من أى تعليق، عاشت تناقضات جيلها بكل قطرة من دمائها، وبعد أن وصلت إلى الذرى ألقى بها إلى السفح!!

الذى أكل «وزة» على طبلية أم كلثوم

فى ساعة متأخرة فى إحدى ليالى الشتاء عاد الشيخ زكريا أحمد إلى بيته، وفى الطريق وجد بائعة فجل تجلس ومعها طفلها الصغير يرتجف من شدة البرد. وسألها الشيخ:

«البضاعة بتاعتك دى بكام ؟».

قالت له المرأة متعجبة:

«وبتسأل ليه يا سيدنا يالأفندى ؟».

شعرت أنه ربما كان رجلاً مخموراً يتسلى فأضافت:

«البضاعة دى باتنين جنيه يا حضرة».

وهو مبلغ لا يستهان به فى الخمسينيات من القرن الماضى، لكن المفاجأة أن «الأفندى» أخرج المبلغ من جيبه ووضعه فى يد البائعة قائلاً:

«يا اللا يا ستى قومى روحى لأولادك».

وحمل على كتفه «مشنة» الفجل عائداً بها إلى بيته، واستيقظت زوجته لتراه وقد ابتلت بدلته بالماء الذى تساقط من الفجل والجرجير والكرات. وبعد أن عرفت القصة منه لم تفاجأ، وكثيراً ما فعل الشيخ مثل هذه الأعاجيب لكنها قالت له إنه من الجميل أن يدفع

للبائعة هذا المبلغ لتعود إلى أولادها فى تلك الليلة الباردة، لكن لماذا حمل المشنة على كتفه ولوّث بدلته بهذا الشكل؟ ولماذا لم يترك المشنة؟ أجابها أنه لو ترك لها المشنة لواصلت المرأة الجلوس علَّها تبيع حزمة أو اثنتين!

هذه الحكاية واحدة من مئات النوادر والحكايات التى يعرفها محبو وعشاق وسميعة الشيخ زكريا أحمد الملحن والمغنى والممثل ومكتشف أم كلثوم وصاحب سيد درويش وبديع خيرى وبيرم التونسى وأحد فرسان الزمن الذى ولى، عاش حياته بالطول وبالعرض حقًا، عاشها كما أحب أن يعيشها بكبرياء لا يلين ومحبة للحياة والفن وانطلاقا فى بحار الأغنية والأوبريت والمسرحية والطقطوقة والمونولوج على نحو لم يتحقق لأحد سواه.

فى منتصف القرن التاسع عشر حلم الشيخ أحمد – والد زكريا – الذى كان أحد شيوخ قبائل الفيوم بأنه رأى السيدة زينب حفيدة الرسول الكريم فى المنام، وأجمع مفسرو الأحلام على ضرورة سفره للقاهرة حيث ضريحها.. وهكذا شد الرجل الرحال إلى القاهرة، وقضى الشهر الأول فى زيارة أضرحة الأولياء ثم المرور على أقاربه ومعارفه، وبالصدفة كان أحد هؤلاء الأقارب يعمل فى قصر الخديو، ومن عشاق الطرب ولا تفوته حفلة لعبده الحامولى ورافق العاشق قريبه إلى حفلات محمد عثمان وساكنة وألمظ والشلشلمونى وغيرهم من نجوم ذلك الزمان.

فى نهاية الأمر اختطفته القاهرة وفنانوها، فكان المطرب الكبير محمد عثمان قادراً على الغناء لعشرة آلاف مستمع بلا ميكروفون، وفى حديقة الأزبكية كان يمكنه الاستماع لعشرات الفرق الموسيقية سواء العربية أو الأوروبية، وبالمصادفة أنقذ أحد مشايخ الأزهر من اعتداء قاطع طريق، ومكافأة له تم تعيينه موظفًا بالأزهر، كما تزوج من ابنة إحدى العائلات التركية واستقر نهائيًا فى القاهرة.

ومن المثير للدهشة أن يولد زكريا بعد ٢١ طفلاً ذكراً ماتوا جميعًا فى سَنَتهم الأولى ولم يعش إلا زكريا. وشأن أقرانه فى الحى دخل كتاب الشيخ نكلة، ثم انتقل إلى الأزهر حيث قضى ست سنوات أكمل خلالها حفظ القرآن ودروس الفقه والنحو. وعرف صاحبنا خلال هذه السنوات كواحد من أجمل الأصوات القارئة والمرتلة للقرآن الكريم، وفى الوقت

نفسه هام عشقًا مثل أبيه بالغناء والموسيقى، بل وعرف طريقه لقهوة التجارة حيث يجلس الموسيقيون والآلاتية والمغنون.

ويبدو أن حب الفن والموسيقى كان وراثيًا لدى صاحبنا، فلم يكن أبوه فقط محبًا للفن، بل أمه أيضًا التى كانت تغنى لابنها أغنيات تركية مشجية. ومثلما تعرض للطرد من الأزهر وخلع ملابسه، تعرض أيضًا للطرد من المدرسة للسبب نفسه، فقد ملكت عليه الموسيقى والغناء نفسه وبدا وكأنه ممسوس، فلم يكن هناك فرح أو حفل يفوته فى الحى والأحياء المجاورة، وإذا لم يتوافر هذا الحفل يستمع إلى «الفونوغراف» الذى يحمله رجل يتجول فى الشارع، ولقاء بضعة مليمات كان زكريا يستمع لمشاهير العصر ونجومه على أسطوانات.

لكن والده مع ذلك كان مصرًا على أن يستكمل ابنه الذكر الوحيد تعليمه، والولد دائم السهر فى الحفلات، وطرده من البيت عدة مرات، وفى النهاية هرب زكريا نهائيًا من البيت ومن الدراسة معًا، وكسبت الموسيقى وفن الغناء فارسا أضاء ليل القاهرة.

تعلم زكريا أحمد على يد الكبار حقًا، فمن كبار «الصييتة» والمقرئين الشيخ درويش الحريرى، ومن علماء الموسيقى الشيخ على محمود، ومن الحافظين للتراث القديم الشيخ اسماعيل سكر، بل والتحق بفرقة الشيخ إسماعيل سكر الذى كان مجرد القرب منه يعنى الكثير، فما بالك والشيخ قدمه بنفسه إلى الجمهور. وتجرأ صاحبنا ولحن لنفسه وهو دون العشرين، وانطلق فى حفلاته وسهراته التى لم تكن تنقطع مع المشايخ سلامة حجازى والمنياوى ومحمد سالم، ثم طاف بريف مصر وصعيدها يتعلم من أولئك المغمورين فى الموالد والاحتفالات الدينية وحفلات الزواج، كما انضم إلى جمعية التمثيل المصرى التى كان من أهدافها الاهتمام بالمسرحية المصرية ومحاربة التمثيل الهزلى.

يكفى فقط أن أشير إلى ما ذكره صاحبنا فى يومياته التى بدأها فى أول يناير ١٩١٦:

«فى أول يناير شغل عند درويش بك وصالح بك، وفى ٣ يناير قابلت سيد درويش وكان يشتكى لى، وفى الأيام ٤، ٥، ٦، ٧ ،٨ ، ٩، ٢١، ٢٥، ٢٩، ٣٠، ٣١ يناير شغل فى حوش آدم والفشن والحلمية وعند والى بك فى المغربلين والزقازيق والقناطر الخيرية ودمياط

وشربين والعباسية، وفى الأيام ١، ٤، ٦ ،٧، ٨، ١١، ١٧، ١٨، ١٩ من فبراير شغل عند جمجوم المناديلى، وفى الإسكندرية والمرج وطره والمعادى والمحلة والإسكندرية، وهناك تحت مقابلة مع سيد درويش».

ولحسن الحظ أن الشيخ زكريا كان يدون يومياته بتفاصيلها الغنية، وكانت هذه الأوراق فى حوزة الصحفى الراحل صبرى أبو المجد واعتمد عليها فى كتابه عن زكريا أحمد، وهو الذى اعتمدت عليه بدورى فى عدد من حكايات الشيخ، إلا أن الأوراق ذاتها كان ينبغى الاهتمام بها ونشرها، غير أن ذلك لم يحدث بل ولا يعرف أحد أين هذه الأوراق الآن!!

ونعرف من هذه المذكرات واليوميات أن محمد عبد الوهاب زاره فى بيته فى الثانى من يناير عام ١٩١٨، أما أم كلثوم فكتب فى يومياته عنها: «فى ٢ يونيه عام ١٩١٨ عرفت أم كلثوم وكانت قد جاءت إلى السنبلاوين للاستماع الىّ، وسمعتها وهى تغنى مع أخيها خالد، وعزمتنى عندها فى الريف .. وفى ١٠ يونيو زرت أم كلثوم بطماى الزهايرة وأكلت عندها وزة على الطبلية وفى ٢٠ أغسطس تم زفافى».

ولحسن حظ الشيخ زكريا أنه تزوج من شقيقة زوجة أستاذه الأول الشيخ درويش الحريرى، وكانت فتاة صغيرة لا يتجاوز سنها الحادية عشرة واسمها هانم، ظلت معه حتى لحظاته الأخيرة وأتاحت له استقراراً مكّنه فيما بعد من الانطلاق فى العالم الذى اختاره على مدى ٤٠ عاماً هى سنوات زواجه.

وعندما اندلعت ثورة ١٩١٩ انغمر صاحبنا فى أتونها ولحن ألحانًا سرت فى كل مصر من بينها ما غناه عبد اللطيف الابنا مثل «قال يا سعد مين غيرك» و «يا مصر دى أيام أنسك» و «لمصر فيك يا سعد» وما غناه زكى مراد – والد النجمة الكبيرة ليلى مراد «مصر أولادها رجال» و «نار الوطنية فى القلب»، بل وكان له نشيد اسمه نشيد «سعد زغلول» يلقى فى بداية العمل بمسرح الماچستيك حيث كان الجمهور والمطربون يرددونه وقوفًا!

ومن بين الإضافات الباهرة التى أضافها صاحبنا للموسيقى العربية، الأوبرا والأوبريتات التى لحنها وبلغ عددها رقمًا فلكيًا وهو ٥٦ أوبرا وأوبريتًا، ولا يقل تأثيره والدور الذى لعبه فى هذا الفن الصعب عن التأثير والدور الذى لعبه سيد درويش. ولعل

كلاً من سيد درويش وأم كلثوم من أكثر الفنانين الذين ارتبط بهم صاحبنا ارتباطا فنيًا وإنسانيًا، وإذا كان الموت قد اختطف الشيخ سيد درويش شابًا، فإن الحياة امتدت بأم كلثوم منذ بداياتها عندما التقيا وكانت أم كلثوم ما تزال طفلة، وكان هو الذى دعاها للقاهرة وعرفها بكبار الموسيقيين والملحنين من أمثال القصبجى والشيخ أبو العلا والشيخ على محمود. وكان أول ثلاثة ملحنين لها هم زكريا أحمد والسنباطى والقصبجى، غير أن صاحبنا لم يكن ملحنًا لأم كلثوم فقط، بل صديقًا وزميلاً وأخًا تربطه بأسرتها أواصر الحب والود، كتب زكريا أحمد عن أم كلثوم ما يلى:

«تمتاز أم كلثوم على غيرها من المغنيات بثلاثة أشياء: أولها أن الله وهبها صوتا لا مثيل له من ناحية القوة والجمال، والثانى أنها بحكم حفظها وتجويدها للقرآن الكريم قد اكتسبت خبرة تجعلها قديرة على إعطاء كل كلمة وكل حرف ما ينبغى للنطق الصحيح وبمضى المدة أصبح ذلك فى طبيعتها وسلمت مخارج الحروف عندها بحيث يتبين سامعها كل كلمة تغنيها بوضوح تام.. والشىء الثالث أنها دقيقة الحس عظيمة الذكاء كثيرة الاطلاع، فهى تجيد فهم كل أغنية وتحس كل المعانى التى تتضمنها أو تشير إليها كل كلمة من الأغنية، وكثيرًا ما يفتح الله عليها فتتعمق فى فهم الأغنية وفى الإحساس باللحن الموضوع لها فتضيف إلى المعانى التى يريدها المؤلف والملحن».

من جانب آخر كتب صاحبنا عدداً لا بأس به من الأغنيات ولم يلحنها فقط، وغنى له من تأليفه وتلحينه كبار مطربى عصره مثل نعيمة المصرية وفاطمة قدرى وصالح عبد الحى وليلى مراد.

وفى عام ١٩٢٦ سافر إلى تركيا بناءً على اتفاق مع صديق عمره الفنان الكبير بديع خيرى، لكن الأخير عاد إلى القاهرة قبل وصول زكريا الذى ذهب متأخراً كعادته، وفى تركيا حدثت له الأعاجيب لأنه لم يكن يعرف كلمة واحدة غير عربية. وفى العام التالى غنى فى بيروت وحيفا ويافا والقدس وطرابلس وصيدا واستقبل هو وفرقته استقبالاً أسطورياً.

وشهد العام التالى بعد عودته إلى مصر نشاطًا عارمًا، فكان يعمل مع ثلاث فرق مسرحية هى فرق الكسار والريحانى وفاطمة رشدى، ويلحن لأم كلثوم ومنيرة المهدية

وصالح عبد الحى، ولم يتورع عن العمل فى السينما ممثلاً سينمائيًا!! وسافر إلى باريس لتصوير الفيلم بالفعل!!

أما علاقته ببيرم التونسى التى استمرت طوال حياة الاثنين معًا فتكاد تكون أهم علاقة فنية عربية بين ملحن وشاعر، وكان كلاهما نواة «الشلة» التى سرعان ما تجمع حولها عدد محدود من الخلصاء ممن أطلقوا على صحبتهم ذلك الاسم الساحر العذب «أهل الهوى» وكان كل من زكريا وبيرم قد التقيا فى باريس عام ١٩٢٠ حين كان الأخير منفيًا هناك.

وحتى يتعرف القارئ على أثر زكريا أحمد والدور الذى لعبه، نلقى نظرة سريعة على إنتاجه المتنوع والغزير، فقد لحن مثلاً أكثر من ٣٠ توشيحًا ألقاها كبار المطربين والمقرئين، وبلغ عدد ألحان الروايات والأوبريتات ٥٨٠ لحنًا، وسجل على أسطوانات وأشرطة أكثر من ٢٢٥ قطعة، إلى جانب مئات الأغانى، فضلاً عن أغانى ٣٧ فيلمًا بلغ عددها ٩١ أغنية ولا أظن أن هناك فنانًا عربيًا نهض وحده بتلحين ١٠٧٥ أغنية مازال أغلبها حاضرًا فى وجدان الملايين، وما زال أكثرها يعاد وتغنيها فرقة الموسيقى العربية وفرقة أم كلثوم، ومطربون آخرون فى المشرق والمغرب يبدأون حياتهم الفنية بأغانيه وألحانه الخالدة.

وفى ١٤ فبراير ١٩٦١ ترجّل فارس الغناء العربى عن صهوة جواده وأسلم الروح عن ٦٥ عامًا، لكن تراثه لا يبلى ولا يؤثر فيه الزمن، فألحانه لأم كلثوم مثلاً ظلت وستظل هى أجمل الألحان التى غنتها أم كلثوم، وسيرة الشيخ زكريا أحمد العطرة، ومواقفه وألحانه مع عشرات المطربين لا تنتهى وتحتاج لأوراق وأوراق!!.

صورة جانبية لامرأة تقف خلف قضبان الزنزانة رقم ٧

عشر سنوات أمضتها سهى بشارة فى معتقل الخيام بالجنوب اللابنانى. خلال هذه السنوات لم تكف لجنة العفو الدولية ومنظمة الصليب الأحمر وعشرات المنظمات غير الحكومية عن توجيه النداءات من أجل الإفراج عن الأسيرة فى سجون الاحتلال، كما وقع عشرات المفكرين والمثقفين الفرنسيين على عريضة نشرتها صحيفة اللوموند تطالب بالإفراج عن سهى بشارة.

من هى سهى بشارة ذات العينين الواسعتين والنظرة التى تنفذ إلى القلب مباشرة؟

الإجابة عن هذا السؤال تقتضى أن نعود قليلاً إلى الوراء، وبالتحديد إلى أحد أيام أوائل يونيو عام ٢٠٠٠، حين توقفت أمام الزنزانة رقم ٧ فى معتقل الخيام بجنوب لابنان امرأة لابنانية فى الثالثة والثلاثين من عمرها، وراحت تتذكر كيف استطاعت أن تتحمل عشر سنوات كاملة خلف أسوار هذا المعتقل الرهيب، والذى تمكنت المقاومة اللابنانية الباسلة من تحرير من كانوا فيه بعد أن حولت حياة الاحتلال الإسرائيلى له إلى سلسلة من الخسائر لا تنتهى، حتى اضطرت الغطرسة الصهيونية إلى لملمة دباباتها ومجنزراتها ومدافعها والرحيل على عجل.

أما المرأة الصغيرة الحجم ذات الثلاثة والثلاثين ربيعًا فهى سهى بشارة التى أطلقت النار، وهى التى تكره القتل وتعشق الحياة، من مسدس صغير على أنطوان لحد قائد ما يسمى بجيش لابنان الجنوبى الذى ضم مجموعة من المرتزقة التابعين مباشرة للاحتلال الإسرائيلى.

إنها سهى بشارة ذات العينين المتألقين والمنحدرة من عائلة يسارية. أبوها نقابى آثر ألاَّ يترك بلاده فى ذروة أتون الحرب الأهلية اللابنانية لأنه كان مسئولاً عن طباعة صحيفة يسارية، وأعمامها اختاروا اليسار قبيل الحرب الأهلية، ووطنها لابنان كان قد اختار المقاومة سبيلاً للتحرير.

عندما وقفت أمام باب الزنزانة رقم ٧، تذكرت عشر سنوات كاملة مرت عليها داخل أسوار هذا المعتقل الرهيب، تذكرت التعذيب بالكهرباء وهى مكبلة بالأصفاد فى يديها وقدميها معًا، تذكرت الطريق الذى اختارته وكان ممكنًا أن تدفع حياتها ثمنًا لاختيارها.

ومن خلال السيرة الذاتية لها (صدرت عن دار الساقى وترجمها أنطوان أبو زيد) نتعرف على هذه المرأة ذات العينين العميقتين. ولدت سهى بشارة بعد قرابة أسبوع من كارثة ١٩٦٧، وبالتحديد فى الخامس عشر من يونيو فى قرية دير ميماس فى الجنوب اللابنانى وهى صغرى أخواتها الأربعة، نزحت أسرتها شأن عشرات الأسر إلى بيروت، وظل والدها حريصًا على طباعة الصحيفة اليسارية (النداء)، حيث كان عامل طباعة طوال الحرب الأهلية. ولأن أسرتها فقيرة، اعتمدت سهى على نفسها منذ سن الثانية عشرة، واعتادت إعطاء دروس خصوصية فى الرياضيات التى كانت شديدة التفوق فيها وفى الوقت نفسه ارتبطت باتحاد الشباب الديمقراطى.

عرفت الحرب وأهوالها منذ ولادتها عندما اندلعت حرب ١٩٦٧ ودمرت الطائرات الإسرائيلية قرى بكاملها فى الجنوب اللابنانى وعندما اندلعت الحرب الأهلية فى أبريل ١٩٧٥، تغيرت الدنيا تمامًا: نازحون من الجنوب ولاجئون فلسطينيون وقتال مجنون فى الشوارع ومن فوق أسطح البيوت. كتبت سهى تصف تلك الأيام:

«باتت الاشتباكات خبزنا اليومى. ما كانت تتوقف إلا خلال أوقات وقف إطلاق النار

الهشة. صارت الحرب خبزنا اليومى نقيس الأيام بمقياسها، وتمحو السنوات التى تشابهت فى ذاكرتى حتى ما عادت تميزها بعضها عن بعض إطلاقًا. فهى تخلطها خلطًا برعودها وصرخاتها التى لا تنتهى».

وما لبثت سهى بشارة أن شهدت الاجتياح الإسرائيلى لجنوب لابنان والذى قاده الإرهابى آرييل شارون ووصل إلى مشارف بيروت عام ١٩٨٢، وأجبر المقاومة الفلسطينية على مغادرة بيروت بدعم مباشر من الولايات المتحدة. وهكذا وجدت نفسها فى خضم الحرب ووطنها محتل. كتبت:

«فى أواخر السبعينيات، وبعد خمس سنوات من المعارك المتواصلة، بلغت فى صميم نفسى إلى حتمية راسخة، وهى أن للابنان عدوًا واحدًا ومحتلاً واحدًا ألا وهو إسرائيل. وفى إدراكى أن الحرب الأهلية هى محصلة طبيعية لما كنا فيه».

بعد الاجتياح الإسرائيلى اضطرت الأسرة للنزوح من بيروت التى دمرها جيش الدفاع والعودة إلى قريتها دير ميماس، حيث شاهدت ما أدمى قلبها وأصاب كرامتها الشخصية، فقد كان جنوب لابنان تحت سيطرة المرتزقة من جيش أنطوان لحد فى خدمة الدولة العبرية. لم تستطع ابنة الخمسة عشر ربيعًا – آنذاك – أن تتحمل ما يجرى فى وطنها ولقريتها، لذلك ما إن أعلن عن ولادة جبهة المقاومة الوطنية اللابنانية فى سبتمبر ١٩٨٢، حتى لاح لها الأمل أخيرًا.

وعلى الرغم من أنها ولدت فى أتون الحرب، وشبت أثناء اندلاع المعارك وسط رائحة البارود، فإنها ظلت تكره فكرة القتل. بل إنها تعلق على اغتيال بشير الجميل الذى فتح بلاده للصهاينة مؤكدة أنها حزنت لموته على هذا النحو، ونفس التعليق تقريبًا على العملية التى نفذتها المقاومة ضد الجنود الأمريكيين والفرنسيين فى بيروت، وفى باقى وقائع سيرتها الذاتية نصادف دائمًا تعليقات مشابهة على أحداث العنف التى كرهتها دائمًا.

على أى حال، انصهرت سهى فى المظاهرات والاحتجاجات وتوزيع المنشورات كواحدة من أكثر العضوات نشاطًا فى اتحاد الشباب الديمقراطى المقرب – على حد تعبيرها – من الحزب الشيوعى اللابنانى وعندما صارحها أحد زملائها لأول مرة بأنه وقع فى غرامها،

فكرت وأدركت – على حد تعبيرها أيضًا – أن «حكاية الحب هذه ربما تحول دون المضى فى مخططها المستقبلى». ولأن جبهة المقاومة سرية، فكان عليها أن تبذل جهداً مضاعفًا من أجل الاقتراب منها، ومن ثم الارتباط بها؛ فهى على يقين من أنها الطريق الوحيد لتنظيف وطنها من دنس الاحتلال. كتبت سهى:

«ومع أنى كنت، شأن كل فتيات جيلى، راغبة فى أن يكون لى عاشق، وأحلم بأن أحيا حياة زوجية، تتحقق خلالها أمانى الزوجين فى عائلة وأبناء، فقد بدا لى محالاً فى الظروف الضاغطة التى تحيط بنا أن أنخرط فى التزامين وجبهتين معًا. ومنذ ذلك الحين اقتصرت علاقتى بالفتيان على الصداقة حتى إننى غدوت لهم خير أمينة على أسرارهم».

وهكذا .. لم يعد يشغلها سوى أمر واحد: الانخراط فى المقاومة. ولم تنتظر طويلاً. فبعد دخولها كلية الهندسة، توجهت لها المقاومة، وفوجئت بأنها لم تكن بعيدة عن الاهتمام واختيرت بعد متابعة دقيقة لتنخرط فى الحركة.

فى أول الأمر كان المطلوب منها جمع معلومات عن الأوضاع فى الجنوب المحتل. فقريتها دير ميماس فى قلب الجنوب وعلى مبعدة كيلو مترات قليلة من الحدود، والمشكلة تكمن فى تاريخها وتاريخ عائلتها المعروفة بانتمائها التاريخى لليسار، واليسار بدوره معروف بعدائه للاحتلال ورفضه للمساومات. وأخيراً اهتدت إلى حل المشكلة، واخترعت قصة حب تربط بينها وبين شخص يدعى «سهاد» عامل فى المختبر التابع لمستشفى مرجعيون، وهى بلدة يعمل فيها ابن عمها وزوجته، وأصبح مبرراً أمام عائلتها على الأقل تكرار ذهابها وعودتها من والى الجنوب.

ومنذ أوائل يونيو ١٩٨٨ أقامت فى الجنوب اللابنانى إقامة دائمة، فلديها علاقة غرامية ملفقة مع «سهاد»، وبن عمها افتتح عيادة خاصة فى مرجعيون، بينما ظلت المشكلة قائمة، وهى ضرورة محو تاريخها الشخصى كمناضلة فى صفوف اتحاد الشباب الديمقراطى، ومحو تاريخ عائلتها المعروفة تاريخيًا بارتباطها باليسار.

غير أنها استطاعت فى نهاية الأمر أن تقنع الجميع أنها غارقة فى هذا الحب الملفق، وانتمت للمركز الرياضى فى مرجعيون. ولما كانت زوجة أنطوان لحد قائد جيش لابنان

الجنوبى المرتزق تبحث عن أستاذ للتمارين الرياضية فى المركز الذى تشرف عليه، قدمت سهى نفسها لها.

تلك كانت أولى خطواتها نحو تحقيق هدفها: ضرورة منع أنطوان لحد من فصل جنوب لابنان عن شماله وتسليمه لإسرائيل، حتى لو اقتضى الأمر اغتياله.

واستطاعت سهى كمعلمة للتمارين الرياضية لزوجة أنطوان لحد أن تدخل قصره، وكانت تلتقى مصادفة بلحد عدة مرات أثناء وجودها فى القصر. وفى إحدى المرات، وكانت تحمل مسدسها معها، كادت تقتله لكنها امتنعت فى اللحظة الأخيرة، فقد كان يتناول طعامه وظهره لها فلم تطاوعها نفسها قتله على هذا النحو.

وجاءت الفرصة أخيرًا فى صباح أحد الأيام وهى فى قصره، واستطاعت أن تصوب المسدس نحوه وجهًا لوجه وأطلقت طلقتين فقط، وعلى الفور ألقى القبض عليها وخضعت لاستجوابات متتالية، كما ألقى القبض على أمها أيضًا.

ضربت وجلدت وعذبت بالكهرباء وهددت بالاغتصاب وعروها من ملابسها، لكن جوابها لم يتغير: أنا عضوة فى المقاومة اللابنانية. عاودوا ضربها لتعترف على شركائها، وأمام عنف التعذيب المتواصل لم تعترف إلا باسمين حركيين لاثنين من زملائها فى المقاومة. ثم أخذوها إلى داخل إسرائيل وخضعت هناك لاستجوابات وتعذيب، لكنها لم تصرح إلا بما سبق أن صرحت به. والحقيقة أن هذا هو ما كانت تعرفه بالفعل، فأسلوب المقاومة السرية لم يكن يتيح لها إلا هذا القليل تحسبًا لإمكانية القبض عليها وتعذيبها حتى تعترف فلا حدود للتعذيب من أجل انتزاع الاعتراف، والضعف الإنسانى وارد فى كل الأحوال.

بلغ عدد أقاربها والمقربين منها ممن اعتقلوا نحو ٦٠ شخصًا من بينهم أمها وعمها. أما هى فقد استجوبت شهرين كاملين بمعدل ثلاث جلسات فى اليوم الواحد مع التهديد بالاغتصاب والتعذيب بالكهرباء. أما ما أصابها فى مقتل، فهو اكتشافها أنه تم إنقاذ أنطوان لحد أعجوبة، فقد نقلوه إلى إسرائيل، واستطاع الأطباء الإبقاء على حياته، لكنه أصيب مع ذلك بشلل جزئى فى ذراعه اليسرى.

أمضت سهى بشارة عشر سنوات كاملة فى معتقل الخيام الذى كان أصلاً أحد

معسكرات قوات الانتداب الفرنسية، ويضم قسمًا للرجال وآخر للنساء. كانت السجينات محرومات من أى اتصال بالعالم الخارجى، والطعام هزيل، والقذارة وانعدام أبسط الظروف الصحية يسمح بتنامى الأمراض داخل أجساد أنهكها التعذيب المتواصل، إلى جانب «السجينات اللواتى يبدين تعاطفهن الكلى معى، ويظهرن تفهمًا مبالغًا فيه لأمرى، فى حين يكن كامنات لى، ليغتنمن فرصة كبوتى وإرهاقى المتراكم بعد ساعات وساعات من سوء المعاملة والتعنيف، لينتزعن منى، وعلى حين غفلة، المعلومات التى استبسلت لإبقائها فى الصدر».

وهكذا دخلت سهى معتقل الخيام وهى فى الحادية والعشرين من عمرها وكان عليها أن تمضى عشر سنوات كاملة فى تعذيب واستجواب متواصل وتهديد بالقتل وعزلة عن العالم.

فى سيرتها الذاتية، يستغرق السجن – بطبيعة الحال – جانبًا كبيرًا: علاقتها بالمسجونات من عضوات حزب الله اللائى ارتبطت بأعمق الصلات بهن، وهى مسيحية الديانة وشيوعية الانتماء.

علاقتها بالسجانات، ومواجهة ساعات السجن البطيئة الكئيبة، والصراع من أجل الاحتفاظ بالتماسك بالتمارين الرياضية ومواجهة الحيض دون توافر وسائل صحية فلم يكن مسموحًا لها إلا بالاستحمام مرة واحدة فى الأسبوع لدقائق معدودة.

صمدت سهى، ولعل صمودها كان السبب فى مواصلة الحملات الدولية من أجل الإفراج عنها وتدخل شخصيات دولية لها وزنها، فضلاً عن منظمات حقوق الإنسان ولجنة العفو الدولية ومنظمة الصليب الأحمر.

وفى التاسعة والنصف من صباح ١٦ يونيو ١٩٩٨ نجحت هذه الجهود أخيرًا، وبعد عشر سنوات من الاعتقال غادرت سهى معتقل الخيام إلى الأبد فى سيارة الصليب الأحمر الدولى التى لم تتوقف إلا أمام المقر الرسمى لرئيس الوزراء اللابنانى رفيق الحريرى الذى استقبلها بنفسه. وفى اليوم نفسه اتصل بها سفير فرنسا فى لابنان وأخبرها أن باريس مستعدة لاستقبالها فى الوقت الذى تحدده.

بعد الإفراج عنها بعامين نجحت المقاومة اللابنانية فى إجبار إسرائيل على الانسحاب من الجنوب المحتل، وكانت سهى من أوائل من وصلوا للاحتفال بهذه المناسبة المهيبة، وتوقفت أمام معتقل الخيام الذى اغتصب أحلى عشر سنوات من عمرها، وراحت تحدق فى جدران الزنزانة رقم ٧ التى شهدت صمودها وفكرت:

«فى المعتقل كان يكفى المرء ضحكة، أو مشهدا مسرحيا صغير أعد عفو الخاطر ليتجاوز الرعب من حوله. واليوم، يحدث أن أمضى بخيالى، بطرفة عين، وبسبب ظرف تافه، إلى ذلك الموضع، إلى أرض الزنزانة المطروقة، وفى زاوية زنزانتى، وللحظة فقط. ليس ما يشغلنى هذه الذاكرة، ذاكرتى، إنما تشغلنى ذاكرة شعب بأسره ومستقبله. تشغلنى روح المقاومة فيه. ذلك أن ما قمت به هو لأجل أطفال الغد، ولأجل هذه الساعة الهشة التى لا يسعنا فيها أن نراهم يلعبون، أو نسمع أصداء صراخهم اللاهى فى الأرجاء، أو وهم يستظلون فى فىء الشجر، فى ربوع بلادى».

لطيفة الزيات .. صاحبة الوطن

هذه امرأة مختلفة بكل المقاييس، ومنذ اللحظة الأولى اختارت أن تسبح ضد التيار، وظلت حتى النفس الأخير تسبح ضد التيار!

هى «صاحبة الوطن» ورمزه وعاشقته وكاتبته..

هى لطيفة الزيات الأستاذة الجامعية والكاتبة والناقدة والسياسية التى منحت لكل دور من هذه الأدوار مذاقًا مختلفًا مضمخًا بعطر الوطن..

وإذا كان تحرر المرأة لدى الكثيرين والكثيرات يشكل قضية منفصلة أى تحرير المرأة من الاضطهاد بأشكاله المختلفة من جانب الرجل والأسرة والمجتمع، فإن لطيفة الزيات ابنة انتفاضة ١٩٤٦، كانت امرأة مختلفة، وفهمت مبكرًا أن تحرير المرأة يعنى تحرير الرجل والمجتمع، لا صراعًا ضد الرجل، بل باعتبارها قضية مشتركة من أجل التحرر الوطنى والاجتماعى..

لطيفة الزيات التى ولدت فى أغسطس عام ١٩٢٠ – نتذكرها من أجل كل ما مثلته وكل ما دافعت عنه، وفى هذا السياق يمكن تقديم لمحات سريعة لإلقاء الضوء على مشوار امرأة مختلفة، فى زمن أصبح المختلفون فيه أقلية تحتاج إلى محمية طبيعية، بينما الآخرون والأخريات يسيرون على القضبان التى رسمها السابقون!

لم تترك لنا لطيفة الزيات سيرتها كامرأة مختلفة فقط، بل تركت لنا إسهاماتها البارزة فى حقول متعددة، فروايتها «الباب المفتوح» عام ١٩٦٠ كانت صرخة جريئة للبطلة ليلى ضد كل ما يعوق روح الإنسان، وفى عام ١٩٦٢ ترجمت عدداً كبيراً من المقالات النقدية لـ. ت. س. إليوت .. ثم توالت أعمالها أثناء عملها كأستاذة جامعية وأصدرت تسعة مؤلفات باللغة الانجليزية فى النقد الأدبى، إلى جانب أربعة مؤلفات أخرى باللغة العربية، وفى الوقت نفسه أصدرت عدداً آخر من الأعمال الروائية والقصصية هى: «الشيخوخة» مجموعة قصصية، «الرجل الذى عرف تهمته» رواية قصيرة، «حملة تفتيش» سيرة ذاتية، «بيع وشرا» مسرحية، «صاحب البيت» رواية.

بين عامى ١٩٤٢ و ١٩٤٦ التحقت بكلية الآداب جامعة القاهرة، وفى ذلك الزمان كان عدد الفتيات اللائى يدخلن الجامعة محدوداً، لكن لطيفة كانت على موعد مع القدر كما يقولون، وانصهرت مع الجماهير التى خرجت للشوارع فى لحظة فاصلة ودقيقة ونادرة فى التاريخ.

كانت مصر قد احتلت من جانب إنجلترا عام ١٨٨٢ كما هو معروف، وظلت قضية الاستقلال عن الاحتلال الأجنبى قضية مركزية سواء للنخبة أو الجماهير، ومن أجل إنجاز التحرر قامت مصر بثورة ١٩١٩ التى لم تنجح فى تحقيق الاستقلال، ووصل التدهور السياسى والاجتماعى إلى درجة مخيفة، فالملك والأحزاب القائمة وقتذاك لم يكن يشغلهم سوى المواقع التى يحتلونها ويمتصون دماء الشعب من خلالها، وفى الوقت نفسه كانت الحركة السياسية غير الرسمية ممثلة فى الأحزاب اليسارية والنقابات والجمعيات تخوض نضالاً ضارياً، تمخض فى النهاية عن انتفاضة عارمة عام ١٩٤٦ لم تهدد الاحتلال الإنجليزى فقط، بل هددت الملك والأحزاب، وبدا أن مصر مقبلة على ثورة شعبية حقيقية.

أما الجامعات المصرية، وخصوصاً كلية الطب، فقد لعبت دوراً أساسياً فى إشعال الانتفاضة، وتشكلت للمرة الأولى لجان وطنية فى كل كلية انبثقت منها لجنة وطنية عليا لطلاب مصر، اتحدت مع لجنة وطنية شكلها العمال، وبذلك أصبحت هناك قيادة شعبية للانتفاضة هى «اللجنة الوطنية للطلبة والعمال»، التى نظمت المظاهرات والإضرابات

المتتالية وأعلنت العصيان المدنى فى تلك الأيام المجيدة من عام ١٩٤٦.

وكانت الطالبة الصغيرة لطيفة الزيات تفتح عيونها للمرة الأولى على هذا المشهد الجليل، مشهد الانتفاضة بكل ما يمثله فى وعيها الشاب، وسرعان ما انخرطت مع زملائها فى نضالهم الذى استجابت له الأمة بكل طوائفها، بل وانتخبت لطيفة من جانب زملائها فى اللجنة الوطنية العليا للعمال والطلبة.

منذ هذه اللحظة ارتبطت لطيفة بالحركة الثورية اليسارية، وعندما تخرجت فى كلية الآداب، تزوجت زيجتها الأولى من المناضل أحمد شكرى سالم وقضيا معًا قرابة ثلاث سنوات أغلبها فى الهرب من مطاردة الشرطة لهما، ولأسباب بعضها شخصى والبعض الآخر يعود إلى الظروف العامة المتوترة انتهت علاقتهما بالانفصال بعد اعتقالهما، ثم الإفراج عنها وحدها.

عالم «ليلى» ابنة الطبقة الوسطى التى كانت تسعى للوعى بذاتها وبالظروف المحيطة بها، والتى ظلت مكسورة الجناح أغلب صفحات رواية «الباب المفتوح» عبرت عنه لطيفة الزيات، بل وأصبحت «ليلى» عنوانًا على جيل يسعى للوعى بذاته ليملك مصيره واختياره.

أما الفترة التى عاشتها هاربة من الشرطة تتنقل من مسكن إلى مسكن مطاردة وخائفة قبيل اعتقالها للمرة الأولى عام ١٩٤٩، فقد عبرت عنها بعد ربع قرن كامل فى روايتها «صاحب البيت» التى صدرت عام ١٩٩٤.

وخلال ١٣ عامًا، بين ١٩٥٢ و ١٩٦٥ عاشت لطيفة الزيات فترة مختلفة شكلت قطيعة بين حياتها السابقة وحياتها فى المستقبل، ويمكن القول إنها كانت فترة من فترات البحث عن الذات. التحقت بالجامعة فى كلية الابنات قسم الأدب الإنجليزى فى جامعة عين شمس، وواصلت تدريسها ثم تعرفت على د. رشاد رشدى أستاذ الأدب الإنجليزى الشهير وقد كان يرأس أهم أقسام الأدب الإنجليزى فى جامعات الشرق الأوسط آنذاك، لكنه كان يختلف عن لطيفة فى كل شىء: محافظ ويمينى ومعادٍ لليسار، ومع هذا تزوجته، وتعبر عن هذه «القطيعة» فى حياتها فى أعمالها الروائية وخصوصًا سيرتها الذاتية الجارحة الصدق والشفافية «حملة تفتيش» على نحو بالغ الرهافة، فهو أول رجل عرفته كرجل! وعندما

استعادت نفسها بعد ١٣ عامًا، وأدركت أنها ارتكبت خطيئتها الكبرى أصرت على الطلاق، وهو الأمر الذى أصاب رشاد رشدى بالذهول فقد رد عليها – حسبما كتبت فى سيرتها الذاتية: أنا الذى صنعتك!

وكانت لطيفة أثناء ذلك قد حصلت على الدكتوراه وتفرغت لعملها الأكاديمى وانقطعت تمامًا عن الكتابة الإبداعية أو الصحفية، واقتصر إنتاجها على الكتب النقدية الجامعية وأغلبها باللغة الإنجليزية.

وبعد انفصالها عادت الروح إليها، وعادت هى للاهتمام بالدنيا رويداً، وتابعت الإنتاج الأدبى العربى بالنقد، كذلك أشرفت على إصدار وتحرير الملحق الأدبى لمجلة الطليعة التى كانت تصدرها مؤسسة الأهرام فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، واختارها مجلس السلام العالمى لتكون من بين أعضائه، وإلى جانب رئاستها لقسم النقد والأدب المسرحى بمعهد الفنون المسرحية، عملت مديرة لأكاديمية الفنون، وانتخبت فى أول مجلس إدارة لأول اتحاد كتاب لمصر.

ومثلما كانت الحركة الشعبية العارمة ضد الاحتلال الإنجليزى السبب فى ارتباط لطيفة الزيات بكفاح الشعب المصرى وانخراطها فى صفوفه، كان الإختراق الصهيونى لمصر فى أعقاب توقيع معاهدة كامب ديڤيد بين السادات وإسرائيل سببًا أيضًا فى عودتها للارتباط بالحركة التلقائية للمثقفين فى رفض التطبيع مع إسرائيل، حيث رأست أول لجنة جبهوية تضم تيارات فكرية وسياسية مختلفة اتفقت على رفض التطبيع ومقاومة الاختراق الصهيونى تحت اسم «لجنة الدفاع عن الثقافة القومية» ترأسها وتقودها لطيفة الزيات. ويعود الفضل للطيفة وللجنة فى تنظيم أوسع وأضخم مقاطعة لإسرائيل والتى توجت بمنع افتتاح الجناح الإسرائيلى بمعرض القاهرة الدولى للكتاب، كما نشطت أثناء اللحظات الكبرى ولعبت دوراً مهمًا فى حركة المثقفين أثناء الاجتياح الإسرائيلى للابنان عام ١٩٨٢. وعلى مدى أكثر من عقد من الزمان كانت لطيفة الزيات رئيسة اللجنة التى تحضر اجتماعاتها أسبوعيًا، وتناقش وتقود العشرات من المنتمين لتيارات سياسية مختلفة، وكان عليها أن تصل بالجميع لاتفاق حول الحد الأدنى لعملهم الجبهوى المشترك.

كاتب هذه السطور يحمل للراحلة الكبيرة كل محبة وإجلال، فقد أتيح له أن يشارك فى أنشطة لجنة الدفاع عن الثقافة القومية، وكان شاهداً على تفانيها التلقائى ومجهودها المذهل فى إدارة الجلسات وتوجيه النقاش والاشتراك فى تحرير النشرات والإعداد للتظاهرات وتوزيع البيانات.

كانت قادرة على توحيد الجهود وتجميع المختلفين، وخبيرة فى فنون الاتصال الجماهيرى وأساليب الكفاح السياسى، ولأن اللجنة علنية ومفتوحة لمن يرغب فى المشاركة دون قيد أو شرط، حاولت أجهزة الأمن تخريبها بواسطة العملاء الذين كانت تدسهم فى وسطها، لكن لطيفة الزيات كانت قادرة على كشفهم بسهولة ومن ثم فرارهم بسرعة!

لم أر لطيفة الزيات تمتلك كل هذا القدر من الحيوية والطاقة إلا فى هذه الفترة التى قادت فيها كفاح اللجنة ضد التطبيع، كانت قادرة على مواصلة النقاش لساعات طويلة وكتابة المقالات وتحرير نشرة اللجنة وبياناتها وابتداع أشكال جديدة وأساليب مختلفة فى كل اجتماع.

من جانب آخر كان الراحل عبد السلام الزيات شقيق لطيفة يعمل مع السادات أميناً للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكى، وقد أدرك مبكراً أن السادات يسير فى طريق التخلى الكامل عن مكتسبات ومبادئ المرحلة الناصرية، فاستقال وهو فى أعلى المناصب، وتوفى عام ١٩٧٣، فأصبحت بدونه يتيمة، فلم يكن مجرد شقيق لها بل أب، ثم تعرضت للاعتقال. فبعد عامين من انخراطها فى لجنة الدفاع عن الثقافة القومية اعتقلت فى قضية «تخابر» تفتقر لأبسط الحيل الأمنية والبوليسية، وكان الغرض هو مجرد تلطيخ سمعتها الوطنية، وإذا كان اعتقالها الأول جرى وهى فى نهاية العشرينيات عام ١٩٤٩، فإن اعتقالها الثانى جرى وهى على مشارف الستين!

وفى شهادة فى مجلة فصول فى خريف ١٩٩٢ كتبت:

«وقد سجنت مرتين فى العهد الملكى سنة ١٩٤٩، ووجهت إلىَّ تهمة محاولة قلب نظام الحكم، ومرة عام ١٩٨١ ووجهت إلىَّ تهمة التخابر مع دولة أجنبية، وعرفت قسوة السجن المرة الأولى فى زنزانة انفرادية، وقسوة التهمة الجائرة فى المرة الثانية فى ظل تهمة جائرة

ومخزية، غير أنى أعرف الآن، بعد خبرتى الطويلة بالحياة، أن سجن الذات للذات هو أقسى أنواع السجن، وقد تعرضت لما يتعرض له كل مشتغل بالسياسة من عقوبات محسوسة وغير محسوسة، وتبعثر لفترة كيانى وأنا أكتشف أن بيتى وبيت أخى محمد عبد السلام الزيات قد أخضعا لوسائل الرقابة والتنصت بالصوت والصورة لمدة امتدت ثلاث سنوات، غير أنى أعرف الآن أن لحظة تصالح فى حرية مع الذات تعادل كل أنواع العقوبات التى أنزلتلها السلطة بى».

وتضيف:

«وتبقى الحرية المصاحبة لعملية الإبداع حرية فريدة، لا يوازيها عندى إلا الحرية التى يمارسها الإنسان فى أثناء العمل الجماهيرى فى حالة مد ثورى، وهو شرط لم يتوافر الفترة الأخيرة. ففى الإبداع والعمل الجماهيرى دون بقية النشاطات، ينشغل الإنسان بكليته في المجتمع، بكل قدراته الإنسانية، سواء منها العقل أو الحس أو الوجدان، وفى كل من المجالين يعيد الإنسان فى حرية إنتاج ذاته وإنتاج واقعه، ويمارس أسمى أنواع حريته وقد يتحفظ القارئ على مساواتى للعمل الجماهيرى بالإبداع فى هذا المجال، ويتوجب على أن أشرح أنى بنت مد ثورى هائل فى النصف الثانى من الأربعينات كاد يقتلع النظام من أساسه، لولا مجيء حركة الضباط فى ٢٣ يوليه ١٩٥٢، وأنى شخصيًا ساهمت فى هذا المد الثورى مساهمة فعالة، من حيث كنت وأنا طالبة، واحدة من بين ثلاثة أمناء للجنة الوطنية للطلبة والعمال التى قادت كفاح الشعب المصرى سنة ١٩٤٦.

وفى الشارع كنت بكلّية الإنسان مجتمعة، بقدراتى العقلية والوجدانية والحسية معًا، فى الشارع، كنت، كنا، نعيد إنتاج مجتمعنا، كنت النحن التى هى الأنا، نصنع الغد، نتحسسه وهو يتشكل، وهو يتخلق، وننتشى هذه النشوة التى لا توازيها إلا نشوة الإبداع، ونحن نمارس الحرية كما ينبغى أن تمارس».

تلك هى لطيفة الإنسانة والكاتبة معًا فى ضفيرة واحدة لا تنفصم، بل إن حياتها تكاد تكون مرآة لأعمالها الروائية. ففى الباب المفتوح مثلاً، روايتها التى كانت منحى مدهشًا وطازجًا لعالم روائى خاص مبكرًا عام ١٩٦٠، تبدو محاولات «ليلى» للوعى بذاتها ورفض

منطق الطبقة الوسطى وكأنها محاولات لطيفة نفسها وهى فى أولى سنواتها الجامعية، وفى روايتها صاحب البيت تقدم تجربة الهروب والمطاردة من الشرطة لزوجين يعملان بالسياسة حتى القبض عليهما مثلما جرى للطيفة عام ١٩٤٩..

ليس المقصود أنها أعادت كتابة وقائع حياتها، بل إن عملها الروائى مرآة للوطن بكل تناقضاته وتفاصيله الدقيقة من خلال امرأة مختلفة اسمها لطيفة الزيات!

أما سنواتها الأخيرة فقد توزعت خلالها بين نشاطين أساسيين:

الكتابة حيث صدرت أغلب أعمالها تباعًا خلال الفترة من ١٩٨٩ و ١٩٩٤، وبين عملها العام فى الندوات واللقاءات والمؤتمرات ..

ودون أن تسعى، سعت إليها جائزة الدولة التقديرية التى نالتها عام ١٩٩٦.. وما لبث السرطان اللعين أن هاجمها وأسلمت الروح فى سبتمبر عام ١٩٩٨ بعد صراع ضارٍ..

بعد رحيلها، بقيت لطيفة الرمز والمثل على امرأة مختلفة بحق، صاحبة الوطن!

لماذا انتحرت أروى صالح ؟!

أنتمى للجيل نفسه الذى تنتمى إليه الراحلة أروى صالح. جيل الحركة الطلابية التى اندلعت فى أوائل السبعينات وبالتحديد فى أواخر عام ١٩٧١ وفى الأشهر الأولى من عام ١٩٧٢ (الوقائع تشير إلى اقتحام قوات الأمن للقاعة الكبرى فى جامعة القاهرة، حيث كان قد تجمع قرابة ألف من المعتصمين الذين كانوا قد أرسلوا لـ«الدولة» مطالبهم وقرروا أنهم لن يفضوا اعتصامهم حتى تنفذ هذه المطالب، تم فض الاعتصام بالقوة واعتقل هؤلاء الطلاب فجر ٢٤ يناير، فى مساء اليوم نفسه تجمع عدة آلاف آخرين فى ميدان التحرير بقلب القاهرة فى برد يناير القارس، ولم يغادروا العراء إلا بعد اعتداء قوات الأمن عليهم فجرًا وتفريقهم بالقوة، لكنهم كانوا قد أنجزوا ما بدا أنه حلمهم: الخروج والرفض بل واحتلال أكبر ميادين القاهرة بقوة أجسادهم الصغيرة الشابة).

وأنتمى أيضًا إلى المجموعة اليسارية التى انتمت إليها أروى صالح، وهى إحدى عشرات التجمعات اليسارية، التى مثلت بعد هزيمة ١٩٦٧ أول رد عملى وعنيف على الهزيمة. وعندما ضُرب جنين هذه التجمعات بقسوة وفظاظة عام ١٩٦٨ إثر المظاهرات التى اندلعت فى عدد من المدن المصرية احتجاجًا على أحكام كاريكاتيرية صدرت ضد

الضباط والجنرالات المسؤولين عن كارثة تدمير سلاح الطيران المصرى على الأرض فى صباح الخامس من يونيو، عندما ضُرب جنين هذه التجمعات، ولد أبناء هذا الجيل الذى ننتمى إليه، أروى صالح وأنا.

على أى حال، عرفت أروى صالح سنوات عدة، وقرأت كتابها «المبتسرون» مخطوطًا، واخترنا أن نكون أصدقاء قريبين جدًا عدة سنوات أخرى، وإن كنا قد اختلفنا بعنف – لا أستطيع أن أحدد لنفسى الأسباب الحقيقية لهذا الخلاف – الذى انتهى بقطع علاقة كل منا بالآخر تمامًا حتى رحيلها المفاجئ وانتحارها ذات صباح من أواخر يونيو عام ١٩٩٧.

حاولت فى السطور السابقة أن أوضح مدى عمق العلاقة التى تربطنى بالراحلة، وأوضح أيضًا أن أروى وجيلنا – جيل السبعينيات – كانت ظروف خروجهم إلى الحياة ظروفًا سياسية، فقد واجهوا منذ اللحظة الأولى اكتشاف كم كان حلمهم فى عالم عادل وفى مشروع يحتضنه الجميع فى قلوبهم، ووطن خالٍ من الاستغلال والفقر وكل الشروط المهينة لإنسانية الإنسان.. اكتشفوا كم كان كل هذا وهمًا، وأن ثورة يوليو وجمال عبدالناصر شكلا كل أحلام هذا الجيل ووعيه وهمومه ورؤيته، لذلك كان سقوط الحلم وهزيمة ١٩٦٧ هزيمة لكل شىء، وقطيعة مع ماضٍ لم يكن ممكنا أن تحدث بقرار بل هى أشبه بقطع الحبل السرى بين الطفل والأم على نحو من الأنحاء.

قبل رحيل أروى صالح بعام واحد تقريبًا، أصدرت كتابها الأول «المبتسرون.. دفاتر واحدة من جيل الحركة الطلابية». وتشير فى المقدمه إلى أن «المادة التى يضمها هذا الكتيب كتبت منذ خمس سنوات تقريبًا».

وقامت بتدوينها على فترات متقطعة، تخللتها فترات من المرض النفسى ومحاولات انتحار متباعدة على مدى قرابة عقد من السنين، كما تخللتها فترات أخرى من الهروب بالسفر والإقامة فى الخارج، فى نهايتها سقطت مريضة تمامًا لا تقوى على اتخاذ أى قرار، ومن المطار اتجهت على الفور إلى المصحة النفسية.

يضم «المبتسرون» ما يمكن النظر إليه باعتباره قسمين أساسيين، الأول يتعرض للظروف السياسية التى رافقت اندلاع الحركة الطلابية وخمودها، والثانى يتعرض لتجربة

هذا الجيل من حيث علاقته بجيل المثقفين اليساريين من جيل الستينات، ثم لمصائره بعد هزيمته. كما يضم ملحقًا يحتوى على رسالتين شخصيتين مكتوبتين بالعامية لصديقين لها، وأخيرًا تذييلاً لكتاب اختارت له عنوانًا أكثر من دال «ليه يابنفسج بتبهج وانت زهر حزين».

وبعد انتحارها الفاجع الذى صفعنا جميعًا فى تلك الظهيرة الملتهبة من أحد أيام يونيو ١٩٩٧، عكف عدد من أصدقائها على أوراقها المتناثرة وأصدروها فى كتاب حمل عنوان «سرطان الروح»، ويضم ما أمكن العثور عليه وتجميعه من دفاترها غير المكتملة: قصائد، أحاديث مع النفس، بورتريهات نثرية، ودراسة نقدية طويلة عن أعمال صنع الله إبراهيم الروائية.

الكتابان يكشفان – على هذا النحو أو ذاك – عن ذلك الجانب المسكوت عنه من علاقة ثورة يوليو بأبنائها المباشرين، بنتائجها بمن اكتووا بنار سقوط شعاراتها فى وحل هزيمة، كانوا هم أول من رفضها وقاومها حتى بالثورة على الثورة ذاتها.

ففى «المبتسرون» مثلاً لا تتردد أروى صالح عن القول: «رغم كل المرارة التى يكنها أبناء جيلى – اليساريون بشكل أو بآخر – تجاه عبدالناصر وزمنه لا يستطيعون الإفلات من الحنين إلى ذلك الزمن بالذات». وتضيف أروى أن هذا الجيل «لا يتصور فى الواقع وجوده خارج هذه الخريطة بالذات، الخريطة التى يحدها شرقًا المعسكر الاشتراكى وغربًا المعسكر الرأسمالى، وفى الوسط – بل القلب – حركات التحرر الوطنية فى العالم الثالث، لذلك فبرغم افتراضنا الماركسى (وعلى الأصح، «الهيجلى» بكل ما فيه من ميتافيزيقية) بأننا كجيل يحمل مفاتيح مستقبل العهد التاريخى الذى يعيشه، نمثل «نفى» زمن عبدالناصر، النقيض الذى يملك إمكانية تجاوزه، وأخيرًا المعارضة الممثلة فى الطبقة العاملة التى ستنفى بورجوازية عبدالناصر من فردوسها القادم حتمًا – فهذا حكم التاريخ – والوطنى جدًا بنفس الحكم، لم نكن فى الواقع إلا جزءًا لا يتجزأ من هذه الخريطة نفسها».

كتبت أروى أيضًا، ولنتذكر أنها كانت تكتب بعد هزيمة تجربة جيلها، فالكتاب منشور عام ١٩٩٦، وفى المقدمة تشير إلى أنها كتبته منذ خمس سنوات، أى كتبته عام ١٩٩٠ تقريبًا، وهو التاريخ الذى شهد تفسخ التنظيمات اليسارية نهائيًا وتجربة الجيل الذى حاول

أن يكون نقيضا لعبد الناصر، لكن سلسلة التغييرات العنيفة والعاصفة بوتائر تكاد أن تكون مجنونة فى سرعتها أدت إلى ذبح أبناء هذا الجيل وتفرقهم، سواء بالبحث عن حلول شخصية، أو بالتورط فى الحياة على النحو الذى لم يكن محتملاً. لقد واجهوا مجتمعًا وقيمًا ومعايير وأطرًا مرجعية كانت هى النفى الحقيقى للناصرية، وهم باعتبارهم – فى نهاية الأمر أبناء الناصرية – واجهوا تحديداً حرب أكتوبر بنتائجها الانتحارية، وأعنى بذلك السلام مع العدو، ثم الانفتاح الاقتصادى والسماح بمنابر داخل الاتحاد الاشتراكى تحولت بعد ذلك إلى أحزاب، ثم بروز تيارات الإسلام السياسى الراديكالى بمباركة ودعم مباشر من أنور السادات، فى سياق انقلابه على الناصرية وتجييش تنظيمات الإسلام السياسى ضد اليساريين والناصريين الذين كانوا أكبر القوى المؤثرة فى الساحة السياسية. كما واجهوا أيضًا سلسلة أخرى من التغييرات على المستوى العالمى كان أبرزها سقوط الاتحاد السوفيتى ومن ثم التجربة الاشتراكية على الصعيد الدولى.

إلى هذا الحد سقطت كل الأحلام والأوهام!.

سقطت الناصرية بهزيمة ١٩٦٧، وسقطت الاشتراكية بسقوط الاتحاد السوفيتى عام ١٩٩٠، وبين هذين التاريخين تقع تجربة أروى صالح وجيلها من أبناء الناصرية الذين انقلبوا – ليس على أسسها وانتصاراتها وما مثلته وما حققته – بل على تخلى الناصرية عن كل هذا وعن عجزها وعن سقوطها، والأهم من كل هذا اكتشافهم أنهم خدعوا وراحوا ضحية أكاذيب وتزييف، كان من بين نتائجه الأساسية ضياع الوطن واحتلاله.

كتبت أروى بوضوح جارح:

«.. ولكن وهم التجاوز الماركسى الذى نتعامل معه بوصفنا عينات حية من المستقبل مزروعة فى أرض حاضر عابر، جعل لنا وعيًا ملتبسًا أدخلنا فى مسارات معقدة جدا على المستويين الفكرى والشخصى أيضًا. وحين انهدت [تقصد تهدمت] تلك الخريطة بعوامل التعرية – لا بفضل فعل ثورى «متجاوز» أو «اشتراكى» فالقصد واضح – وتحول زمن عبدالناصر إلى ماضٍ ضاعت معالمه، تهنا! ولم نجد ما نتوكأ عليه فى المتاهة سوى الخيبة، تعرى وعينا التاريخى وهو يواجه حاضرًا لا يسير وفق نبوءاته الثورية، فأخذنا نولول مع

النادبين على زمن الانهيار قياسًا- بالطبع - إلى زمن عبد الناصر، الذى بقى منتصبًا كصنم قديم. يبتسم لنا بنصف شفقة ونصف سخرية عبر العقود، فبطولتنا كانت منحة زمنه، ودولتها دالت معه، نبكى على دورنا الصغير فى خريطته الكبيرة، والوهم الجميل بأنه سيكبر من وسطها ليأكل دوره».

لم يكن وصول أروى إلى هذا التحليل الذى يكاد يقترب من الإشراق الصوفى سهلاً، بل اقتضى منها ومن جيلها عمرهم كاملاً، وهو الشىء الوحيد الذى يملكونه، وحريتهم التى فقدوا سنوات طويلة منها داخل السجون والمعتقلات، كما فقد الكثيرون من أبناء هذا الجيل إمكان تحقيق حياة «عادية» تكفل الحد الأدنى من «الترف» الشخصى، أى أسرة ومكان نظيف وحسن الإضاءة - على حد تعبير هيمنغواى فى قصته القصيرة المدهشة - بينما كان مصير الأكثر حساسية والذين لم يتمكنوا من الانفصال والخلع وتقبل الحقائق الجديدة العصية على التقبل بل والتصديق، أولئك الأخيرون كان مصيرهم الصمت أو الانزواء أو العزلة، أو مثلما جرى مع أروى صالح: الانتحار.

الانتحار احتجاجًا على الحياة ورفضها لها وإقرارًا بأنها لم تعد محتملة ولا ممكنة. الاحتجاج والتمرد لجيل بدا وكأنه يحتج على أزمات متعددة لا أزمة واحدة. أزمة الوعى والحلم بعالم قدمته الناصرية باعتباره قيد التحقق، وسيكون بالتأكيد خاليًا من الاستغلال، بل يوتوبيا على النحو الذى نراه فى قصائد وأغانى صلاح چاهين، ولذلك لم يكن غريبًا أن تستشهد أروى صالح كثيرًا بقصائده فى متن الكتاب.

بطبيعة الحال، أزمة أروى صالح هى أزمة كل مثقفى جيلها تجاه الناصرية منذ هزيمة ١٩٦٧، التى كانت حلقة فاصلة بين ما قبلها وما بعدها، أما انتحار أروى فهو قرار مؤجل التنفيذ، وإن كانت حاولت الانتحار عدة مرات ولم تتمكن من التنفيذ. وهو أيضًا قرار كان يتأكد لها كل يوم أنه واجب التنفيذ إزاء ما كان يجرى لها ولأبناء جيلها من تحولات، اقتلعت تمامًا كل معالم الروح القديمة التى كان احتجاجها أساسًا من أجل الحفاظ عليها.

الكـاتـب

*** محمود الوردانى**

- مواليد القاهرة - أبريل ١٩٥٠ .
- يكتب القصة القصيرة والرواية ويكتب فى التاريخ الاجتماعى .
- يعمل صحفياً فى مؤسسة أخبار اليوم .
- له عدد كبير من المجموعات القصصية والأعمال الروائية التى ترجم بعضها للإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية . .

*** من أعماله الإبداعية :**

- السير فى الحديقة ليلاً .
- النجوم العالية .
- رائحة البرتقال .
- طعم الحريق .
- نوبة رجوع .
- أوان القطاف .
- الروض العاطر .
- موسيقى المول .

*** من كتاباته الأخرى :**

- حدتو . . سيرة ذاتية لمنظمة شيوعية
- ثمن الحرية .
- مائة عام من الحكى .

للنشر فى السلسلة :

* يتقدم الكاتب بنسختين من الكتاب على أن يكون مكتوباً على الكمبيوتر أو الآلة الكاتبة أو بخط واضح مقروء. ويفضل - إن أمكن أن يرفق معه أسطوانة (C.D) أو ديسك مسجلاً عليه العمل.
* يقدم الكاتب أو المحقق أو المترجم سيرة ذاتية مختصرة تضم بياناته الشخصية وأعماله المطبوعة .
* السلسلة غير ملزمة برد النسخ المقدمة إليها سواء طُبع الكتاب أم لم يطبع .

صدر مؤخراً فى سلسلة
الإصدارات الخاصة

43- المسرح القريب ..... أحمد إسماعيل

44- عبد الحميد إبراهيم فى عيون الادباء والمفكرين ..... إعداد وتقديم/ مصطفى القاضى

45- مسرح الأقاليم علامات على الطريق ..... د. عمرو دوارة

46- بستان المسرح .....فريدة النقاش

47- المجددون فى الإسلام .....عبد المتعال الصَّعيدى

48- تاريخ وفلسفة العلم فى مصر .....د. أحمد عبد الجواد

49- رحلةٌ فى قلب نهُرو .....محمد عودة

50- حزب الأمة .....د. أحمد زكريا الشلق

51- الإرهاب ومحاربته فى العالم المعاصر ..... د. إسماعيل عبد الفتاح

52- مجرد ذكريات ..... د. رفعت السعيد

53- مطالعات فى السياسة والثقافة .....د. السيد أمين شلبى

54- المعارف لابن قتيبة .....تحقيق وتقديم/ د. ثروت عكاشه

55- التاريخ تعليمه وتعلمه .....د. حكمت أبو زيد

56- مصر والمسألة المصرية من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٢ .....د. أحمد عبد الرحيم مصطفى

57- رحلة عبد الوهاب المسيرى الفكرية.....د. عمرو شريف

58- رسالة فى بركة رمضان الجَمعيَّة..... عبد الحميد حَوَّاس

59- مرآة الإسلام ..... طه حسين

60- المجتمع المصرى بين الثابت والمتغير ..... د. عبد المنعم الجميعى

61- الخديو والإمبراطورة افتتاح قناة السويس «نوفمبر ١٨٦٩» ..... محمد يوسف أحمد